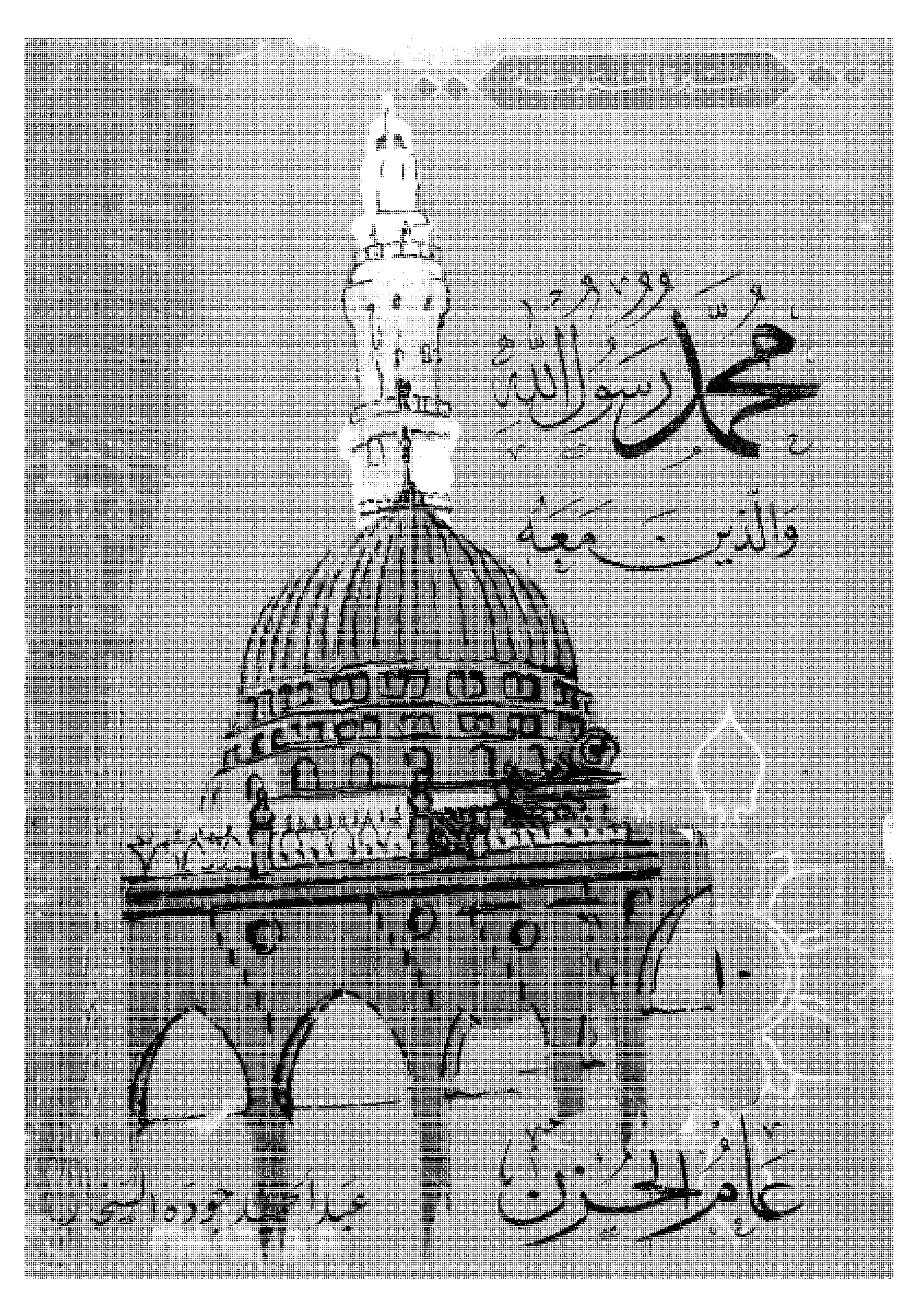

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
١٠
عام الحزن
عبد الحميد جودة السحار

السيرة النبوية



عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أوَمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتىَ رسل الله الله يعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون * وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كانت الجزيرة العربية غارقة فى الظلمات قد ران عليها عقم روحى ، فأغلب القبائل تتعبد لآلهة نحتت من حجارة أو حفرت من خشب أو صنعت من نحاس . تعدد فيها الأرباب وقام بعض الكهنة ورجال الدين لحماية المصالح الموروثة وبث روح التعصب للدين فى نفوس المؤمنين بالأصنام والأوثان . حفظا لمكانتهم وتوطيدا لسلطانهم وعملا على تغلغل نفوذهم إلى سويداء القلوب .

ومارس رجال الدين رياء كرياء الفريسيين اليهود . تركوا جوهر الدين وتشبثوا بالقشور ، فما أفزعتهم الوثنية التى كانوا يمارسونها فى عباداتهم ولكن كان يثير حنقهم أن يدخل الحجاج البيوت من أبوابها أو أن يأكل الحمس فى مواسم الحج شيئا من الدهن أو أن يطوف الناس بالبيت الحرام بثياب اقترفوا فيها المعاصى والآثام !

وكان سكان الجزيرة العربية متخلفين عن سير الزمن يمارسون كل ألوان الحرية المدمرة ، حرية جنسية لا ضابط لها ، حتى إن إلصاق ولد بوالده كان يترك أمره للبغايا أنفسهن أو إلى القافة إذا ما ادعى أكثر من رجل نسبة المولود إليه ، أو إغارة قبيلة على قبيلة وانتزاع الزوجات من أحضان الأزواج أو الفتيات من دور السادات الذين يكرهونهن على البغاء أو البنات من كنف الآباء . ثم فخر بما حاق السبايا من عار يمشى به الشعراء فى القبائل والأمصار . وكان للرجل أن يتزوج من النساء ما يشاء دون تحديد ما دام قادرا على الإنفاق عليهن ، وكان الابن الأكبر يرث نساء أبيه يحتفظ

لنفسه بمن يشتهى منهن ويخلع بعضهن على الراغبين فيهن لقاء مبلغ من المال ويبيع بعضهن فى الأسواق بيع العبيد دون أن يكون لهن أى حق فى الاعتراض ، فما كانت المرأة إلا لعبة الرجل إذا أرادها ، أو سلعته التى تجلب له المال إذا ما احتاج إلى الأموال .

وحرية فى سلب أرواح الأغيار دون ذنب أو جريرة ، فقد كانت الثارات بين القبائل والبطون والأحياء مشتعلة لا يخمد لها أوار ، إذا قتل سفيه رجلا فى مشادة أو فى مجال فخر أو بسبب تافه من الأسباب فأهل المقتول لا يتربصون بالقاتل بل يضعون أعينهم على ذوى المكانة والشرف فى أهله ، حتى إذا ما عثروا على أحدهم فى غفلة من قومه اغتالوه بدم قتيلهم ، فيصبح ساداتهم مطلوبين بعد أن كانوا طالبين ، وتسيل الدماء البريئة على الرمال لتكون وقودا لقتل نفس بغير نفس وسيطرة الظلم على الناس .

وكانت الغارات تشن على القوافل للسلب والنهب . فقطع الطرق مهنة لا يزدريها المجتمع ، وقد زهقت فى تلك الغارات أرواح وسلبت أموال وفقدت أنفس حريتها فى لمحة عين . وطالما تغنى الشعراء بشجاعة قطاع الطرق وشبهوهم بالأسود إذا ما انقضت على فريستها وأنشبت فيها مخالبها !

ولم تكن هناك حكومة القوى عندها ضعيف حتى تأخذ الحق منه والضعيف عندها قوى حتى تأخذ الحق له ، بل قبائل تنصر كل فرد فيها ظالما أو مظلوما ، فمن لم تكن له قبيلة تمنعه التمس الجوار من قبيلة قوية خشية أن يتخطفه الناس فى ذلك المجتمع الذى لا يحترم العدل لذاته ، بل يحترم كل ما تسانده قوة أو يتستر بالغدر :

وكان الناس على الرغم من تعصبهم لآلهتهم يفتقرون إلى دين صحيح

يقوم اعوجاج نفوسهم ، تعبدوا ذواتهم و لم يحترموا إلا قوتهم وسلطان أموالهم وبطش عشيرتهم ، وكانت حاجتهم إلى دين قويم تدفعهم إلى حالة من اليأس الروحى تضطرهم إلى التماس فتات العزاء الدينى على موائد الكهنة والصوفة الذين وهبهم آباؤهم لخدمة المعابد ، والحمس من أهل مكة الذين تنطعوا فى أمر الدين فأحالوا جوهره إلى نواهى ما أنزل الله بها من سلطان ، وإلى أوامر فى المأكل والملبس والمظهر لم تعرف طريقها إلى القلوب .

ونزل اليهود فى يثرب وكانوا أهل كتاب ولكنهم كانوا يعيشون فى مجتمع مغلق بعد أن وقر فى نفوسهم أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، وأنهم وحدهم الموعودون بحضن إبراهيم عليه السلام بعد الممات . فكانوا يضنون بدينهم . و لم يحاولوا أن يشركوا جيرانهم العرب فى النعمة التى أنعم الله عليهم بها ولا أن يرفعوهم إلى النبع الروحى الذى يزداد ثراء كلما ازداد أخذ الناس منه ، أنانية منهم واستجابة لغرورهم الذى وسوس لهم أنهم شعب الله المختار .

و لم يكن اليهود فى مجتمعهم المغلق جميعا بل كانت قلوبهم شتى بعد أن انقسموا إلى طوائف متناحرة عقب أن حملهم بختنصر إلى بابل أسرى وأخذوا من أساطير البابليين ما دسوه فى دينهم ، فإذا بإلههم الرحيم ينقلب إلى إله غيور ، متعطش للدماء ، وإذا بالخلافات تنشب بين السامريين وبين العائدين من المنفى حول التوراة التى جاءوا بها وقد أضافوا إليها تاريخ اليهود من بعد موسى ، حتى إستر التى لعبت برأس إمبراطور الفرس وجعلته يصدر أمرا بالعفو عن بنى إسرائيل بعد أن كان قد أصدر أمرا بقتل كل من كان منهم فى إمبراطوريته .

وعرفت اليمن اليهودية بكل ما فيها من خلافات ، ودخل بعض الحميريين فى دين النصارى واشتركوا فى العداوة التى كانت بين النسطوريين واليعقوبيين ، وتحيرت عقولهم لما فكروا فى مئات المذاهب التى تفرعت عن المسيحية السمحة ، والنظريات الفلسفية التى أثيرت لإثبات لاهوت المسيح وناسوته ، أو وحدة طبيعة المسيح ، أو الأقانيم الثلاثة ، وكان الشيء الوحيد الذى أخذوه عن الكنيسة دون احتدام جدال أو مناقشة شرب الخمر ، فقد قيل لهم إن السيد المسيح كان شريب خمر !.

واعتنقت قبيلة تميم المجوسية ، فكانت تعبد النار وتصلى لأهورا مزدا وتستعيذ من أهريمان ، وأخذت عن الفرس الزواج من المحارم فكان الأب يتزوج ابنته والأخ يتزوج أخته والرجل يبنى بعمته أو خالته . ولم يكد يربط بين هؤلاء العرب المختلفين فى الديانات والمذاهب والأهواء غير بيت أبيهم إبراهيم يحجون إليه فى الموسم سواء أكانوا وثنيين أم على دين اليهود أم النصارى أم المجوس أم الصابئة أم الحنفاء .

وكان لقريش شرف الولاية على الحرم ، فكان منهم صاحب الرفادة والسقاية ، وصاحب السدانة والحجابة ، وصاحب الأزلام ، والعِدْل الذى يكسو الكعبة سنة وتكسوها قريش كلها سنة . وقد ذهب صيت ساداتهم فى القبائل فالشعراء يحتكمون إليهم تداعبهم أعذب الآمال بأن يرضى أشراف قريش عن شعرهم وأن يعلقوه بهبل إله الشعر فى جوف الكعبة ، وذلك غاية التكريم الذى يطمح إليه فحول شعراء العرب .

وكان فريق من قريش يؤمن بالله فى السماء وآلهة فى الأرض ، وفريق آخر لا يؤمن بأية آلهة ويقول : لا يهلكنا إلا الدهر ، بينا فريق يعبد

الكواكب والنجوم ، وفريق يؤمن بالبعث بعد الموت،وآخر يسخر من فكرة القيامة . وكانت الصفة التى رانت على الجميع الجهل والخرافات ، قد خبت فيهم الاستنارة الدينية وإن تعصبوا لآلهة آبائهم وما كانوا يعبدون .

كانت بلاد العرب أرض الضياع ووادى الدموع ، أهدرت فيها كرامة الإنسان بعد أن ظهر الفساد فى جنباتها ، وكانت تندفع إلى الهاوية فما كان لها ماض مشرق يلح على المصلحين أن يعملوا على بعثه ، أو إمبراطورية دارسة يدعون الناس إلى إحيائها ، وما كانت هناك آمال عريضة تثير حماس الراغبين فى تأليف القلوب المتنافرة لتحقيقها ، فقد كان كل عربى سعيدا بالحرية المدمرة التى ينعم بها ، حرية الشهوات وفوضى المعتقدات وتحصيل كل لذة قبل الفوات :

وفى ذلك الظلام الدامس كان الله يرعى عبده محمد بن عبد الله ليصنعه على عينه ، فحبب إليه العزلة وألقى من فيض كرمه فى قلبه الأنوار وآتاه الحكمة ، فعرف السعادة فى القرب من الله ، ففتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته فإذا بشرف المعلومات تحصل لقلبه بإلهام من ربه فتنكشف له الحقائق بكشف إلهى ، وإذا بالحجب التى كانت بينه وبين ملكوت السموات ترتفع وإذا هو على نور من ربه .

وفى غار حراء أقبل بكنه الهمة على الله ، فإذا بأنوار ربانية تغشى المكان ، وإذا برحمة إلهية تتنزل على من اصطفاه ربه ليكون رسوله إلى الناس ، وإذا بالروح الأمين يكلفه برسالة تنوء بحملها الجبال ، رسالة هداية البشرية جمعاء ودعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

كان وحده لا سيف فى يده ولا أنصار ينصرونه من دون الله ، قد بعث

إلى أقوام شداد غلاظ الأكباد يقدسون دين الآباء ولا يحتملون أن يمس إنسان بسوء ما كان آباؤهم يعبدون ، لا وزن لحياة الأغيار عندهم فيسفكون الدماء لأتفه الأسباب ، لكلمة عابرة يظن أنها حطت من شأنهم أو خدشت كرامتهم ، أو لغمزة أو لمزة أو فعلة عارضة أسيء فهمها . أفيرضون أن يأتى يتيم قريش لينفى الألوهية عن الآلهة جميعا ويثبتها لله وحده لا شريك له ؟! أو يصدقون أنه يكلم من السماء ؟!

انقلب محمد — ﷺ — إلى أهله ليس له عون إلا عون ربه وإيمان بإلهه ، ترتجف بوادره من هول ما كان بينه وبين رسول ربه فى غار حراء ، وقد أشفق على نفسه من ضخامة المسئولية التى وضعت على كاهله ، فقد أمر وهو الأعزل من كل سلاح أن يقف فى وجه الفساد الذى استشرى فى الأرض ، وأن يتحدى الجبابرة والعتاة والمفسدين حتى يتم الله نوره . ولم يخفف من حدة الهلع الذى نزل بقلبه إلا أنه وعد بنصر من عند الله .

كان محمد — عليه السلام — طوال حياته التى انقضت قبل الرسالة يعيش مع الله وبالله وفى الله ، وكان سعيدا غاية السعادة بالأنس بربه والحياة فى رحابه ، حتى إذا ما نزل عليه الوحى وكلف بإنذار الناس انتابه خوف شديد . فلم تعد الأسباب التى تربط بينه وبين دنياه تلك الصلة المباركة التى كانت بينه وبين ربه الرحمن الرحيم ، والمحبة التى كانت ترفرف على بيته السعيد ، ولا السلام الذى كان بينه وبين صفوة صحبه وجيرانه وعشيرته ، بل أصبح عليه أن يواجه العالمين ، وأن يقول فى وجوه المشركين : الله ربكم ورب آبائكم الأولين .

وكان على يقين من أنه مع الله وأن الله معه ، ولكنه كان متلهفا على رؤية بزوغ شمس رسالته . فلو استجاب أحد من البشر إلى دعوته لألقى بذور

الأمل فى نفسه ، فلما قص على زوجه الحبيبة ما جاء به الروح الأمين إذا بخديجة التى اصطفاها الله لرسوله تواسيه وتذهب عنه روعه وتؤمن به ، بل وتحضه على الثبات ثم تهيىء له سبل تبليغ رسالات ربه ، مضحية بأموالها ، مستهينة بكل الصعاب ، متحملة كل شدة وهى راضية النفس فى سبيل الحق وإعلاء كلمته ، و لم تكتف بأن تكون أول المسلمين بل كانت سيدة نساء قريش راعية الرسول الكريم وحاضنة الدين القويم .

وراح محمد — صلى الله عليه وسلم — يدعو إلى دين الله سرا ، فاستجاب إلى دعوته أناس كانت عقولهم تواقة إلى المعرفة . فما إن قال لهم إنهم يتعبدون لأصنام ينحتونها بأيديهم لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا حتى انزاحت الغشاوة عن أفئدتهم ، وما أن دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار حتى أشرقت قلوبهم بالأنوار واستشعروا عزة وحرية مطلقة بعد أن تحرروا من كل شر ومن عبودية الأهواء والغرائز والجهل والنزوات ، وسموا بأنفسهم فوق كل رغبة حسية رخيصة .

واكتشف المؤمنون جوهر نفوسهم التقية فى نور الله ، واهتدوا إلى أن الحياة دون الله لا معنى لها فاجتهدوا فى نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تعلن عن الكون وتحكمه ، وجاهدوا فى تحطيم الحواجز النفسية بينهم وبين ربهم فإذا بهم يذوقون لذة روحية سرمدية ، لذة الأنس بالله ، فهانت الدنيا فى أعينهم وصغرت شدائدها ، وصارت لهم رسالة فى الدنيا يعملون على تحقيقها ويحتملون المكاره فى سبيلها ، فأصبحت نبضات قلوبهم المشرقة بالضياء الربانى رحلة أنفسهم فى طريق الهداية إلى محبة الجنس البشرى .

وراح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والفئة القليلة المؤمنة يصلون لله خفية فى

شعاب مكة ، حتى إذا ما أمر عليه السلام بإنذار عشيرته الأقربين صدع بما أمر به ، فكان لا بد من صدام بين الإرادة المؤمنة والإرادة المتشبثة بدين الآباء ، بين الفكر الجديد والمعتقدات البالية ، بين النور والظلام ، بين الراغبين فى الحقيقة المطلقة والخائفين من زوال كل نفوذ وسلطان .

ومشى سادات قريش إلى أبى طالب يؤذنونه بحرب إذا لم يكف ابن أخيه عن دعوته وسب آلهتهم وتسفيه أحلام آبائهم ، وأبى أبو طالب أن يسلم ابن أخيه لشانئيه وإن لم يؤمن برسالته . بل جمع بنى هاشم ودعاهم لحماية الأمين ، فهو منهم وله عليهم حقوق وإن خرج عن دين قومه ، فاستجابوا له جميعا إلا عمه أبا لهب الذى انضم صراحة إلى معسكر أعداء دين الله .

وأصبح محمد — ﷺ — هدف سخرية الساخرين من الذى يُكلَّم من السماء ! وقطعت العداوة شوطا أبعد من الهزء والهجاء بعد أن امتدت الأيدى بالأذى إلى رسول الله ، فربما فيض حنان خديجة عليه ليمسح عنه ما قاساه ، واجتهد فى الابتهال إلى الله فكان الروح الأمين يثبت قلبه بما ينزل به من القرآن .

وآمن عمه حمزة بدين ابن أخيه ، وقد شرح الله قلبه للإسلام ليعز به دينه وكان أعز فتى فى قريش ، فلما علم المشركون من سادات قريش بإسلامه الذى أعلنه على الملأ هابوا إيقاع الأذى برسول الله ؛ خشية سيف حمزة البتار ، وحولوا غضبهم إلى المستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم من يمنعهم ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين لتجد فيهم منفسا لمرض القلوب وحقد الأحقاد !

وكان المستضعفون قد دخلوا فى دين الله بعد نظر وتدبر وروية

وانشراح صدورهم لليقين وإشراق قلوبهم بالنور ، وكانت نفوسهم حرة لما اختاروا الإسلام وإرادتهم مطلقة لما فضلوه على دين الآباء ، فكانوا يشعرون بحرية حقة وإن كانوا مكبلين بالأغلال وإن كانت أجسادهم تمزق بالسياط أو تكوى بالنار ، فقد أشرق وجودهم بالاندماج فى الوجود بمحض حريتهم ، والاتصال بمن فوق الوجود بانجذاب أنوار أرواحهم إلى نور السموات والأرض ، فغمرهم وهم فى محنتهم الأرضية نور على نور .

كانوا على يقين من أنهم على الصراط المستقيم ، بينا كان جلادوهم متعصبين لعقائد بالية ورثوها عن الآباء فلم يكونوا على مثل يقين ضحاياهم الذى لا يقبل جدالا ولا نقاشا ، فكان الاضطهاد معركة بين اليقين المبصر والتعصب الأعمى ، بين النور والظلام ، بين الذين ينشدون حرية الفكر والعقيدة والذين يريدون الحجر على العقول والقوامة على ميدان نشاط الفكر بأسره وإهاضة جناح كل الراغبين فى التحليق إلى الملكوت السماوى والارتفاع إلى النبع الروحى ليكتسبوا حرية الكمال ، حرية التحرر من الشرور والآثام والنزوات والبرء من أمراض الفؤاد .

ولم يكونوا على درجة واحدة من اليقين والصلابة والاحتمال ، ولم يكن نزوعهم الوجدانى لنشدان الحرية الأخلاقية فى مرتبة واحدة من القوة ، ولما كان الإنسان يملك من الحرية على قدر ما يستحق فقد اختلفوا فى الاحتمال رتبات الجنان .

كان أناس منهم أكثر حرية ممن قيدوهم بالقيود وصبوا عليهم سوط عذاب ، وكانت الأرض تحتهم أثبت منها تحت أقدام العتاة ، بل كان بعضهم يبتهج بوجوده ويتهلل بالفرح الروحى لقوة الإرادة التى أمده الله بها فجعلته يستخف بالعذاب ويستهزئ بالمتلهفين على سماع كلمة سوء تخرج

من بين شفتيه ولو قهرا تصيب الدين الجديد ومن جاء يفرق بين الأهل والخلان. وقد كان بلال صابرا على ما نزل به من اضطهاد، وما كان يجرى على لسانه إلا ذكر ربه . طلبوا منه أن يذكر محمدا — ﷺ — بسوء فأبى ، فطلبوا منه أن يذكر آلهتهم بخير وأن يقول كما يقولون ليشترى نفسه التى كانت هدفا لأقسى ألوان الاضطهاد بكلمات طيبة فى حق اللات والعزى فأبى ، واستمر يردد : أحد .. أحد ، فكان نشيده منسجما مع شعوره بحرية إرادته ، فكان بحق إمام المعذبين الصابرين الذين أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين .

وعجزت أبدان عن احتمال آلام العذاب الرهيب ، فالروح قوى والجسد ضعيف ، فارتفعت أصوات أصحابها بالأنين ، ولم يستطيعوا الصبر على البلاء العظيم فأعطوا المشركين بلسانهم ما يرفع عنهم العذاب الأليم وإن كانت قلوبهم عامرة باليقين ، واضطروا لتحريك اللسان بما يكرهون للفرار مما نزل بهم من آلام يشيب من هولها الوليد ، فلما أطلق الكافرون سراحهم تقاصرت نفوسهم واستشعروا هوان موقفهم فانقلبوا إلى رسول الله — ﷺ — يعتذرون وهم يذرفون الدموع .

رأى عمار أمه وقد ربطت بين بعيرين ، وقد صوب أبو جهل حربة إلى قلبها ففاضت روحها . ورأى أباه وهو يجود بأنفاسه فى أثناء العذاب ، فأعطى معذبيه ما أرادوا بلسانه مكرها ، فهرع المسلمون إلى رسول الله — ﷺ — فقالوا :

— كفر عمار .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— كلا . إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه

ودمه .

فأتى عمار رسول الله — ﷺ — وهو يبكى ، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه وقال :

— إن عادوا لك فعد لهم بما قلت .

فهدأت نفوس من أعطوا معذبيهم بألسنتهم ما أرادوا مكرهين .

وفزع أناس من العذاب ولم تكن ذواتهم قد تحررت من رواسب معتقدات الآباء ، فما شعروا بحريتهم الحقة وما كانوا يعرفون فى وضوح ما يريدون ولماذا هجروا دين الآباء ودخلوا فى الدين الجديد . فلما رأوا سوط العذاب فى أيدى ساداتهم انخلعت أفئدتهم رعبا وارتدوا مهرولين إلى الكفر بعد الإيمان ، فأنزل الله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان * ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين * أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون * لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾[١] .

---

(١) النحل : ١٠٦ — ١٠٩ .

٢

عرف محمد — ﷺ — ربه قبل أن يبعث ، وأشرق قلبه بأنوار يسرت له مشاهدة ما وراء حواسه ، فاستوى بصره وبصيرته وأرشد إلى طريق الحق ، حتى إذا ما أتم الله تدريبه وإعداده لتحمل نزول الوحى عليه كلف بالرسالة ، فكان عليه وحده بتأييد من ربه أن يخلع الشرك وعبادة الأوثان من رقاب الناس .

كان دين زرادشت قد فسد فى فارس وطمرته الأساطير وعبد الناس هناك النار بعد أن أقنعوا أنفسهم بأنها من نفس طبيعة أهورا مزدا إله النور . وتفتت الدين الزرادشتى تحت تأثير الأفكار الجديدة التى وردت إليه من الهند بل ومن الدولة الرومانية التى كانت العدو اللدود لإمبراطورية الساسانيين ، فعادت فارس إلى الوثنية البغيضة بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وكانت الدولة الرومانية تعتنق المسيحية ولكن رعاياها انقسموا فيما بينهم فى طبيعة المسيح ، طائفة تقول بوحدة طبيعة المسيح وطائفة تقول بالأقانيم الثلاثة. وتأرجح الناس بين لا هوت المسيح وناسوته ، وقامت العداوات بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية ، والكنائس الأخرى التى كانت ترجو أن تتحرر من سيطرة الكنيسة التى كانت تؤيد الأباطرة فى نظراتهم الدينية وتقرضهم الأموال بالربا لاستمرار الحرب بين فارس والدولة البيزنطية .

كانت المسيحية قد انقسمت إلى مئات المذاهب ، وكانت الصور

والتماثيل منتشرة فى كل الكنائس . وكانت المجامع الدينية التى كانت تجتمع لتقر هوى الإمبراطور فى مسألة من مسائل اللاهوت قد أفسدت دين المسيح بما أدخلته فيه من فلسفات وأساطير ، وقد ظهر بين رجال الدين المسيحى الحسد والغرور والخسة وبيع الأشياء وشراؤها ، وأصبح الدين مطية لتحقيق المغانم وإشباع الشهوات المادية .

كانت المسيحية السمحة قد تلاشت من الأرض ، وقد ارتدت الوثنية رداءها بعد أن أدخل فيها بولص أساطير بعل والفلسفات الوثنية القديمة ، واستطاع بحماسته أن يصبغ الغرب بأفكار وثنية شرقية ، أو كما قيل يجعل نهر العاص يصب فى نهر التيبر .

وكانت الجزيرة العربية غارقة فى الشرك حتى الآذان ، تسيطر عليها الخرافات ويخفق فى جنباتها الفساد ، ونهب الأموال فضيلة يتغنى بها الشعراء ، والسادات يكرهون فتياتهم على البغاء ، والقبائل ترى فى سفك الدماء البريئة للأخذ بالثأر عملا من أعمال الزهو والشموخ بالأنوف ورفع الجباه . قد شاع فيهم الجهل وفشى فيهم المنكر وكثرت فيهم البدع والأهواء ، وقد تكدس فى الحرم منارة التوحيد ثلاثمائة وثلاثون من الأصنام والأوثان !

كان الفساد يغمر وجه الأرض قد زاغت قلوب الناس عن الحق ونزل فيها الشرك بخالق السموات والأرض ، رب الناس إله الناس رب العالمين .

وكانت الحضارة البشرية تنزلق إلى الهاوية حتى أشرفت على شفا جرف هار ، فأراد الله بفيض كرمه ورحمته أن ينتشل البشر من الهوان وأن يعيد للناس كرامتهم وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، فجعل يصنع محمد ابن عبد الله على عينه ، فاستودع قلبه الإخلاص وفجر فؤاده ينابيع الحكمة

ورفع الحجاب بين بصيرته والملكوت ، فصار الله هو المتولى لقلبه والمتكفل له بتنويره بأنوار اليقين .

وعرف محمد عبادة الله حق عبادته وصار أتقى رجل على وجه الأرض على نور من ربه ، حتى إذا ما كان الله خفق قلبه وقرة عينه وروح روحه اصطفاه ربه لرسالته وأمره أن ينذر الناس ، فإذا به وحده أمام العالم كله بلا سلاح إلا سلاح الإيمان ، وبلا قوة إلا ما يمده بها ربه ، وبلا ناصر غير الله .

وشرح الله قلوب فئة من المستضعفين فى الأرض للإسلام ، أمدهم بقوة من عنده فإذا بهم يثبتون للاضطهاد ويستهزئون بالعذاب وقام فى مكة صراع حول الحقيقة أهى وحى السماء أم أساطير النضر بن الحارث وأجزاء الحكمة التى استوردها من فارس وقصر الخورنق بالحيرة ؟ أهى الآلهة المجسدة المنحوتة من الحجارة أو المنقورة فى الخشب أو المصبوبة من الذهب والبرونز والنحاس ، أم الحقيقة المتعالية ؟ الله الذى لا إله إلا هو له ما فى السموات والأرض وله غيب السموات والأرض ؟

ونشب الصراع بين أناس على ربهم يتوكلون يحسنون التعامل مع الله ومع ذواتهم ومع الأغيار ، وأناس يحسنون الظن بأنفسهم وإن كانوا فى الضلال يعمهون ، ويعتمدون على أنسابهم وشعرائهم وسفهائهم فى إطفاء نور الله .

كان الشعراء ينظمون القريض فى هجو محمد — ﷺ ، وكان الله يوحى إليه بقرآن يقص عليهم ما كان بينه وبينهم وما كان يجرى فى نجواهم ويلزمهم الحجة ، فيشرح بعض الصدور للإسلام ويزيد الكافرين كفرا على كفرهم .

كانوا فى حيرة من أمره وأمر قرآنه ، فما يقول ليس بشعر ولا سجع

الكهان وإن له لحلاوة وإنهم ليخشون أثره فى نفوس أناس تستهويهم البلاغة والبيان ، فلا بد من إلصاق نقيصة به تنفر الناس منه وتجعلهم يعرضون عنه ، فقالوا : ساحر كذاب .

ونزل القرآن يفند مزاعمهم : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر * بل الذين كفروا فى عزة وشقاق * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد * ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب * أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب * كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كلٌّ إلا كذب الرسل فحق عقاب * وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق * وقالوا ربنا عجل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب * اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق * والطير محشورة كل له أواب * وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾(١) .

وكانوا فى عجب من أمر يتيم قريش ، وكانوا يتساءلون من أين جاء ابن عبد الله هذا العلم وتلك الحكمة ؟ لو سكتوا على هذه الآيات البينات

---

(١) من ١ — ٢٠ .

لشرحت الصدور للدعوة الجديدة ولوجدت طريقها إلى المتطلعين إلى النزاهة المطلقة ولاستجاب السادة والعبيد إلى صوت العقل ، فراح النضر ابن الحارث يجلس إلى القوم يروى الأساطير ويسخر مما يقصه محمد عليه السلام عن عاد وثمود ، ثم يقول : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(٢) .

كان النضر بن الحارث أكثر المستهزئين بابن خالته محمد عليه السلام ، وكانت عداوته تزداد اشتعالا كلما نزل القرآن بآيات تلزمه الحجة . ولولا العناد والحسد لأسلس لابن الخالة القياد ليأخذ بيده إلى ينابيع الحكمة الحقة .

كان يقول لسادات قريش كلما أظهروا ميلا للقرآن :

ــ لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدُّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون * وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾(٢) .

---

(١) الأنفال ٣٢ (٢)الأنفال ٣١ ــ ٣٦ .

كانت جلود سادات قريش تقشعر من الرهبة كلما نزل القرآن بالوعيد ، فكان النضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبى معيط وأبى بن خلف يسخرون فى ضراوة من يتيم قريش ويقولون للتهوين من شأنه :

ـــ الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد .

فإذا بالقرآن ينزل مقوضا هذه الحجة : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين * إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾(١) .

واستمر الكافرون فى التهوين من شأن محمد عليه السلام ، فالمعركة بينه وبينهم مستمرة ، فإن وهنوا كان ذلك نهاية نفوذهم والقضاء على سلطانهم وسيطرة الدين الجديد على المسجد الحرام ، فقالوا مستمرين فى هزئهم :

ـــ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟

ـــ لولا أرسل إليه ملك فيكون معه نذيرا !

ـــ إن هذا إلا إفك افتراه .

---

(١) يونس ٤٤ ـــ ٥٨ .

— إنما يعلمه بشر ، إنه يمر بالنصرانيين يسار وخير ، ويسمع قراءتهما ويتعلم منهما .

— بل يجلس إلى جبر يتعلم منه .

— لو كان رسول الله حقا لألقى الله إليه كنزا أو تكون له جنة يأكل منها .

فنزل القرآن يفند مزاعمهم : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزّبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون * أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾(١) .

﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾(٢) .

﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاء ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما * وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا * تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا * بل كذبوا

---

(١) النحل ٤٣ — ٥٨ .

(٢) النحل ١٠٣ .

بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا * وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا * لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ﴾[1] .

واجتمع سادات قريش فى ناديهم وقد انتابهم خوف من وعيد القرآن ومن أن أتباع محمد — ﷺ — يزيدون ولا ينقصون ، واستولت عليهم أمنية مصالحة سليل هاشم فقالوا :

— ابعثوا إلى محمد حتى تعذروا فيه .

وكان محمد — ﷺ — جالسا فى المسجد وحده ، فامتدت إليه أبصارهم ثم قالوا :

— انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يريد .

— لا نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة .

فقال عتبة :

— أنا أقوم لمحمد وأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا .

فقالوا مستبشرين :

— يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يابن أخى إنك منا حيث قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من

---

(١) الفرقان ٤ — ١٤ .

مضى من آبائهم .

وصمت رسول الله — ﷺ — ليعطى السيد المطاع فى قريش فرصة إنهاء حديثه ، فقال عتبة :

— أنت خير أم عبد الله ؟! أنت خير أم عبد المطلب ؟! إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك . لقد أفضحتنا فى العرب حتى طار فيهم أن فى قريش ساحرا وأن فى قريش كاهنا ، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

— قل يا أبا الوليد أسمع .

— يابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

كان عتبة بن ربيعة ملتصقا بالأرض محصورا فى دنياه لما كان يحدث ربيب السماء ، إنه يعرض على رسول الله ﷺ عرض الدنيا الزائلة ، يعرض عليه الأموال دون أن يدرى أن محمدا عليه السلام قد زهد فى الثروة ، فهو يرى أن الكنوز مثقلة بدموع العبيد ، وأن الثروات التى تجمع عن طريق استغلال الناس تناقض روح الإنسانية الخيرة التى يدعو إليها ، إنه يعرض عليه الملك ! إنه يفتح أمامه أبواب دار الندوة لا ليكون سيدا من

سادتها بل ليكون صاحب الرأى الأخير فيما يقررونه . إن مقاييس عتبة بن ربيعة الذى نيف على المائة عام مقاييس هابطة لا تتجاوز دنياه المادية التى لا تعرف من اللذات إلا اللذائذ الحسية ، ولم يستطع أن يفهم أن دعوة رسول الله ﷺ إنما تستهدف أول ما تستهدف أن ترفع الإنسان من الأرض إلى عالم الملكوت ، وأن تعيد إليه كرامته بانتشاله من الحيوانية التى تردى فيها ، وأن كنوز الأرض وملك الدنيا الفانية لا تساوى لحظة أنس بربه أو النظر إلى وجهه الكريم .

ما قدر الشيخ عتبة رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — حق قدره لما قال له : أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فما خطر له على قلب أنه جالس إلى خير خلق الله .

انتظر — ﷺ — حتى فرغ عتبة فقال :

— لقد فرغت يا أبا الوليد ؟

— نعم .

— فاسمع منى :

— فأفعل .

— ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون * قل أإنكم لتكفرون بالذى

خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم * فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾(١) .

أنصت عتبة وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، فلما انتهى رسول الله — ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن ذلك وهو يرتجف من الرأس إلى القدم ، ولكنه عليه الصلاة والسلام استمر فى القراءة : ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون * فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون * وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون * ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا

---

(١) فصلت ١ — ١٣ .

قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين * وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون * فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون * ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون * وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين * إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم * ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم * ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾[1] .

---

(١) فصلت ١٤ — ٣٧ .

فسجد رسول الله — ﷺ — ثم قال :

— قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة بن ربيعة مأخوذا بما سمع ، إنه ينيف على المائة ، وقد سمع أشعار فحول الشعراء واشترك فى تشريف بعض روائع الأشعار وسمح بتعليقها فى الكعبة ، ولكن ما سمعه من الأمين يفوق كل ما سمع طوال حياته من نشيد ، وإنه قد جاب الأسواق وألقى سمعه إلى كل حكماء العرب فى عكاظ ومجنة وذى مجاز وفى أسواق الشام واليمن فما بلغ أحدهم ما بلغه قرآن ابن عبد الله ، وقد سمع قصص النضر بن الحارث وأمية بن أبى الصلت وأحاديث الكهان فما بلغ قصص ولا أحاديث روعة ما شنف به محمد — عليه السلام — أذنيه ؛ فرقة القرآن تسرى فى روحه فتملؤه نشوة على الرغم مما استبد به من خوف .

ودنا عتبة من أصحابه فرأوا فى وجهه شرودا وحيرة ، فقال بعضهم لبعض :

— واللات والعزى لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فجلس إليهم فقالوا له :

— ما وراءك يا أبا الوليد ؟

— ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها إلىّ خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا :

ـــ سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

ـــ هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

٣

راح الملأ من قريش يفكرون فيما قال عتبة بن ربيعة . إنه ينصحهم بأن يخلوا بين محمد ـــ ﷺ ـــ وبين الناس فإما أن يقتله العرب فيريحوهم منه ومن ثأر بنى هاشم ، وإما أن يظهر على العرب فيصبح ملكه ملكهم وعزه عزهم ، فلم يعجبهم ذلك المنطق فقد كانوا جميعا إما حاسدين أو خائفين على ما فى أيديهم من نفوذ .

وكان حديث عتبة نذير اشتداد خطر الدين الجديد ، فإن كان قرآن محمد قد سحر ببيانه شيخا من فرسان البيان فإنه سيلعب بألباب الناس إذا ألقوا إليه سمعهم ، فقامت القبائل تعذب من أسلم فيها لعل المؤمنين بدعوة ابن عبد الله يعودون إلى دين الآباء ، ولعل الأصوات التى ترتل ما أتى به محمد تصمت قبل أن تشتد الفتنة وتغمر كل الدور .

كان العذاب ينزل بالمسلمين ، وكان الحوار دائرا بين رسول الله عليه السلام وبين سادات قريش . وذات يوم اجتمع على ظهر الكعبة شيبة بن ربيعة وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأبو البحترى والوليد بن المغيرة وأبو جهل وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش ، فقال بعضهم لبعض :

ـــ ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به .

فبعثوا إليه :

— إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك .

فجاءهم سريعا وهو يظن أن الله قد شرح صدورهم للإسلام وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه تعنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا :

— يا محمد ، إنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة ، وما بقى من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت به لتطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الرئى الذى يأتيك تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

إنها نفس مقالة عتبة ما زادوا عليها شيئا ، أفيضيق رسول الله — ﷺ — بهم فيقول : أف لكم ، ثم يوليهم ظهره ؟! ما كان صلوات الله عليه ليضيق بذلك الحوار بل كان يجد فيه خير فرصة لنشر دعوته بين الناس ، فقال :

— ما بى ما تقولون . ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله عز وجل بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم .

— يا محمد فإن كنت غير قابل من ما عرضنا فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلادا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا ، سل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك فليسير عنا هذه الجبال اللتى ضيقت علينا ، ويبسط لنا

بلادنا ، ويجرى فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وأن يبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن ممن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول حق هو ؟ فإن صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول :

— ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله سبحانه بما بعثنى به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوا فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه أصبر لأمر الله .

— فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك ، وسله فيجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك ، فإنك تقوم فى الأسواق وتلتمس المعاش .

— ما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا .

— فأسقط علينا كسفا من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل .

— ذلك إلى الله إن شاء فعل .

فقال قائل منهم :

— لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا .

وقال عبد الله بن أمية المخزومى ابن عاتكة بنت عبد المطلب عمته — ﷺ — :

— لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما وترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول .

فانصرف رسول الله — ﷺ — إلى أهله حزينا ، فابن خالته النضر بن

الحارث يسخر منه ، وها هو ذا ابن عمته يناصبه العداء ، وعمه أبو لهب قد انضم إلى الكافرين برسالته ، ويا ليته نصره كعمه أبى طالب دون أن يدخل فى دين الله . بل إنه يسير خلفه حتى إذا ما وقف ينذر الناس نصحهم عمه بأن ينفضوا من حوله لأنه مجنون !

إن من اتبعوه يعذبون ليفتنوا عن دينهم ، وهو يرى ما ينزل بهم من اضطهاد فيعتصر قلبه حزنا عليهم دون أن يستطيع أن يرفع عنهم آلام العذاب . إنه يأمرهم بالصبر حتى يأتى الفرج من عند الله ، وإنه ليصبر على ما يقول قومه وإن كان ليحزنه ما يقول فهم يتهمونه بالسحر والكهانة والجنون بعد أن لبث فيهم سنين وعرف بينهم بالأمين .

كان الأسى يلفه ، وكانت خديجة الطاهرة وسيدة نساء قريش تبذل كل ما فى طاقتها من حنان لتمسح عنه الأحزان ، وكانت تواسيه لا تبخل بمالها ولا بعواطفها بل تنفق كل شىء بسخاء لتأييد زوجها الكريم فى إنذار الناس وتبليغ رسالات ربه ، كانت خديجة البلسم لجراح نفسه ، الملاذ بعد الله إذا ما ضاقت الدنيا واشتد الكرب وانهمرت الدموع .

وكان دائم الأحزان فابنته زينب قد آمنت بالله ولكنها تعيش فى كنف ابن خالتها هالة بنت خويلد الذى لم يشرح الله قلبه للإسلام ، فلو أن زوجها أبا العاص بن الربيع يحبها فهى تعيش بين أناس كافرين ما أكثر ما يلمزونها ويحيلون حياتها التى كانت هادئة هانئة إلى عذاب أليم ، وابنتاه العزيزتان رقية وأم كلثوم قد طردتا من بيت عمه أبى لهب بعد أن نزل القرآن بهجاء عمه وامرأته أم جميل . ولو أن عثمان بن عفان قد تزوج رقية وحقق حلمه الذى كان يهفو إليه إلا أنهما لم ينعما بما كانا يرجوان من سعادة واستقرار ، فقد صارا هدفا لسخرية بنى أمية وتحقيرهم ، وابن عمه

أبو سفيان بن الحارث شاعر بني هاشم ، بعد أن مات الزبير بن عبد المطلب من كان يحبه من كل قلبه ولا يطيق فراقه ، قد وقع الجفاء بينهما ، بل إن ابن عمه لم يكتف بالقطيعة بل أعلن عداوته كما أعلنها من قبل النضر بن خالته وعبد الله بن أبي أمية ابن عمته عاتكة .

وراح يفكر فيما نزل بأتباعه من ألوان الاضطهاد . فاضت روح ياسر وزوجته سمية ، وعذب خباب بالنار ، وعذب الزبير بن العوام بالدخان ، وقرن أبو بكر وطلحة وضربا ضربا مبرحا ، وذاق بلال الأهوال ، واضطر عمار بن ياسر أن يعطي معذبيه ما يريدون بلسانه وقلبه عامر بالإيمان ، ولم يحتمل ضعاف النفوس العذاب فارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان .

إنه رأى في منامه أنه سيهاجر إلى أرض ذات نخل ولا يحسبها إلا يثرب ، وقد قص على أتباعه رؤياه فكانوا يهرعون إليه بعد ما ينزل بهم من عذاب ويقولون متى نخرج ؟ فيقول لهم في أسى وصدق إنها رؤيا رآها وأنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه .

إن سادات قريش قاسية قلوبهم ، وإنهم ليتفننون كل يوم في ألوان الاضطهاد الذي ينزلونه بمن شقوا عصا الطاعة وخرجوا على الجماعة ، وقد صارت العداوة ضارية بينهم وبين المسلمين في مكة خشية أن تنتقل دعوة أبي القاسم إلى القبائل فيصعب عليهم إخمادها ، فكانوا ينتشرون في مكة كلها ليشوهوا دعوته ، وإنهم لينظمون هجاءه ويحفظونه للصبية لينشدوه خلفه أينما سار .

وفكر في عمه حمزة بعد أن شرح الله قلبه للإسلام ، إنه فتى قريش وأعز فرسانها ، وقد امتنعت قريش عن إنزال الأذى به بعد أن أعلن عمه على الملأ أنه على دينه . ولكن ماذا يستطيع حمزة أن يفعل وحده ليرغم القبائل على

أن تكف عن إنزال العذاب بالمستضعفين من المسلمين ، وطاف بذهنه عمر بن الخطاب . إنه قوى وهو عدو لدود للإسلام ولكن معدنه طيب . فلو شرح الله قلبه للإسلام لكان ذلك نصرا لدين الله ، فراح عليه السلام يبتهل إلى الله فى حرارة أن يؤيد الإسلام بعمر .

ورن فى أذنيه بعض ما قال له الكافرون : سل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك ... سل ربك فيجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة .. ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ فأطرق عليه السلام أسيفا ، وإذا بالروح الأمين ينزل عليه بآيات من ربه : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾(١) .

وغسل الوحى ما كان فى نفس رسول الله — ﷺ — من أحزان ، وربما

---

(١) الإسراء ٩٠ — ٩٦ .

فى قلبه إشراق الأنوار وزاده إيمانا على إيمان ، فخرج إلى قومه يدعوهم إلى الهدى بعزم جديد فإذا بهم لا ينفكون عن ترديد ما قالوه كلما أنذرهم :

— يا محمد ، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله .

وإذا بالقرآن ينزل على رسول الله عليه السلام ليدحض حجتهم :
﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون * ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون * قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين * قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾[1] .

وكانوا يصغون إلى القرآن وهم فى عجب من أمره ، وكانوا يستشعرون نفس ما أحسه عتبة بن ربيعة لما ألقى سمعه إلى رسول الله عليه السلام ، ولكنهم كانوا يستكبرون ويرتجفون فرقا من ظهور الإسلام خشية زوال سلطانهم على الأرض وشفقة من أن تذهب مكانة مكة الدينية فيذهب ريحهم ويذوب شرفهم ، فمجدهم كله مستمد من أنهم خدام بيت الله ، فلا جرم أنهم ظلوا ألد الخصام لرسول الله وإن سحرهم بيان الذكر العظيم .

ولم يتركوا أى مظهر من مظاهر ما خيل إليهم أنه ضعف دون أن

---

(١) الأنعام ٧ — ١٢ .

يسددوا إليه سهامهم . كان محمد عليه السلام قد هجر التجارة وأعرض عن جمع المال لما سلك سبل ربه ، وكانت خديجة قد أنفقت أموالها حبا لله ، وقد زهد فى كنوز الأرض من اصطفاه ربه لرسالته وزوجه الطاهرة سيدة نساء قريش بعد أن عرفا كنوز السماء وذاقا لذة النهل من خزائن الملكوت ، ولم يهتد كفار قريش المشدودون إلى الأرض الذين يعبدون الذهب والفضة إلى تلك الرفعة التى سما إليها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فجاءوا إليه فقالوا :

— يا محمد ، إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة ، فنحن نجعل لك نصيبا فى أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا وترجع عما أنت عليه .

كانوا لا يرون إلا ملكوت الأرض وكانوا بعيدين كل البعد عن ملكوت السماء ، فكانوا يحسبون أن النفس لا تتهلل إلا للقوة والمال واللذة الجسدية ، فكانوا يحاولون أن يغروه بالملك والسيادة والسلطان والأموال الممدودة . وقد عرضوا عليه أن يزوجوه ما يشاء من النساء وكانوا يعجبون لرفضه كل ما قدموه إليه من مغريات ولا يفقهون سبب إصراره على أن يسير فى دعوة لن تجلب له إلا المتاعب والعداوات .

فى سبيل أى شيء يضحى بهناءة الدنيا ؟! إنهم لا يرون ما يستحق كل هذه التضحيات لأن قلوبهم التى فى الصدور قد عميت ، أعماها الحسد والاستكبار . وقد نزل القرآن يوضح الأمر لقوم يعقلون : ﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم * قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين * قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم

عظيم * من يُصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين * وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير * وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾(١) .

ودخل رسول الله — ﷺ — الحرم فرأى خمسة نفر من سادات قريش جالسين ؛ كانوا عبد الله بن أبي أمية المخزومي ابن عمته والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر . فذهب إليهم يدعوهم إلى الهدى وقد شجعه أنه كان يطمع فى إسلام الوليد بعد أن جلس إليه كثيرا واستمع منه كثيرا ورق للقرآن قلبه حتى قال كفار قريش : قد صبأ الوليد .

وجلس عليه السلام يحدثهم ويعرض عليهم الإسلام ثم قرأ عليهم القرآن فإذا بهم يخشعون ، وكأنما خشوا الاستسلام لذلك السحر فقالوا مستهزئين :

— ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى .

فقام عنهم رسول الله — ﷺ — وقد أحزنه الذى يقولون ، فحتى متى يقول لهم إنهم يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وحتى متى يقولون له عن اللات والعزى ومناة وأصنامهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . إنهم لم يكتفوا بذلك اللغو بل إنهم يطلبون منه فى سخرية أن يأتى بقرآن فيه ما يسألونه كأنما القرآن من عنده وليس من عند العليم الخبير .

ولم يطل أساه فقد نزلت آيات فى المستهزئين تقرأ فى المجالس : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو

---

(١) الأنعام ١٢ — ١٨ .

بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون * ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(١) .

٤

السنون تمر ورسول الله — ﷺ — يدور على مجالس قريش يدعوهم إلى الإسلام فيلقون إليه أسماعهم مرة ويعرضون عنه مستهزئين مرات ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه صابر يصدع لأمر الله ويلقى من عطف خديجة ورعايتها وتشجيعها ما ينسيه قسوة ما يتحمل من آلام .

كان المسلمون يزيدون بيد أنهم يزيدون بالآحاد ، لم يدخل الناس فى دين الله أفواجا . وكان المستضعفون منهم يقاسون الاضطهاد وينزل بهم العذاب ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . ومنع الله رسوله منهم بعمه أبى طالب ، وقد قام أبو طالب حين رأى قريش يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابهم إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبى لهب فقد انضم إلى بنى أمية

---

(١) يونس ١٥ — ١٨ .

رهط زوجه أم جميل فى عداوتهم لابن أخيه .

فلما رأى أبو طالب من قومه ماسره فى جهدهم معه وحدبهم عليه ، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشدَّ لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره ، فقال :

إذا اجتمعت يوما قريشٌ لمفخر
فعبد مناف سرها وصميمُها
وإن حُصِّلت أشراف عبد منافها
ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا
هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها
علينا فلم تظفَر وطاشت حلومها
وكنا قديما لا نُقر ظلامة
إذا ما ثَنوْا صُعْر الخدود نُقيمها
ونحمى حماها كلَّ يوم كريهة
ونضرب من أجحارها من يرومها[1]
بنا انتعش العود الدواء وإنما
باكنافنا تندى وتنمى أرومها[2]

وراح رسول الله — ﷺ — يدعو قومه وهو فى منعة من بنى هاشم وبنى المطلب وإن لم يتبعوه على دينه ، فقد كان له على عشيرته حق الحماية

---

(١) بقصد : من يريدها بشر .

(٢) أصولها العريقة .

وإن سفه الأحلام وخالف دين الآباء .

وكان أعداؤه فى حيرة من أمره ، وأمر ذلك القرآن الذى ينزل عليه من السماء فما كانوا بقادرين على أن يتهموه بالكذب بعد أن مكث فيهم عمرا من قبل وعرفوه بالصادق والأمين ، فكانوا يقولون مرة إنه شاعر على الرغم من علمهم بأن ما أوحى إليه ليس بالشعر ، ويقولون تارة أخرى كاهن وإن لم يكن فى القرآن سجع الكهان . ويقولون أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليهم بكرة وأصيلا . فكان القرآن الكريم يرد كيدهم إلى نحورهم : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾(١) .

واستمر رسول الله يدور على نوادى قومه . برتل آيات ربه : ﴿ ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير ﴾(٢) .

وفيما هو فى غدوه ورواحه فى الحرم رأى الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر ، فجلس إليه عليه السلام وجعل يعظه

---

(١) الحاقة ٣٨ — ٥٢ .

(٢) هود ١ — ٤ .

والأخنس يصغى فى اهتمام ويظهر لرسول الله — ﷺ — ما يسره وإن كان يضمر فى قلبه خلاف ما يظهر ، فلما قام عليه السلام عنه نزل عليه الوحى يفضح أمر الأخنس : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾(١) .

وكان عذاب المستضعفين لا يخبو له أوار ، وكان الجدل شديدا بين الرسول صلوات الله عليه وبين الكافرين ، فما من آية من آيات القرآن تنزل عليه إلا ويجادلونه فيها محاولين أن يجدوا ثغرة ينفذون منها للطعن فى ذلك الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

جاءوا إليه يقولون :

— تزعم أنك نبى يوحى إليك وأن سليمان سخر له الريح وأن موسى سخر له البحر وأن عيسى كان يحيى الموتى ، فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث ومزارع ونأكل ، وإلا فادع الله تعالى أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلموننا ، وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التى تحتك ذهبا فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيئتهم .

فبينا هم حوله والمسلمون يرمقونه فى ثقة إذ نزل عليه الوحى فتهللت وجوههم بالبشر ، فقد كانوا على يقين من أن ربهم يوحى إلى رسوله الكريم فصل الخطاب ، فلما سرى عنه راح يتلو : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس

---

(١) هود .

الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دراهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد * ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾(١) .

كان الوحى ينزل عليه وهو بين الناس وهو على راحلته وهو فى بيته ، فما كان ينطق عن الهوى ، فبينا كان رسول الله — ﷺ — بفناء بيته بمكة جالسا إذ مر به عثمان بن مظعون فعرج إلى النبى — ﷺ — فقال له :

— ألا تجلس ؟

— بلى .

فجلس عثمان بن مظعون إليه مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شخص بصره إلى السماء فنظر ساعة وأخذ يضع بصره حتى وضع على عتبة فى الأرض ، ثم تحرف عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينفض رأسه كأنه يستنقه ما يقال له ، ثم شخص بصره إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتى توارى فى السماء ، وأقبل على عثمان كجلسته الأولى فقال عثمان :

— يا محمد ، فيما كنت أجالسك وآتيك ما رأيتك تفعل فعلتك الغداة .

— ما رأيتنى فعلت ؟

— رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حتى وضعته على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتنى فأخذت تنفض رأسك كأنك تستنقه شيئا

---

(١) الرعد ٣١ — ٣٢ .

يقال لك .

— أو فطنت إلى ذلك ؟

— نعم .

— أتانى رسول الله جبريل عليه السلام آنفا وأنت جالس .

فماذا قال لك ؟

— قال لى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾(١) .

فأحس عثمان بن مظعون الإيمان يستقر فى قلبه ، وحب محمد ﷺ يملأ أقطار نفسه .

كان إسلام فرد يدخل السرور على قلبه عليه السلام ، وكان يفرح لخروج إنسان من الظلمات إلى النور ويرجو من كل قلبه أن ينتشل قومه من الجهالة التى يضربون فيها وأن يقودهم إلى الصراط المستقيم . وكان يحزن أشد الحزن لإعراض الناس عنه حتى إن الله أنزل عليه : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾(٢) .

وكانت المناقشات محتدمة بين الرسول عليه السلام وسادات قريش ، كان يطمع فى أن يشرح الله قلوبهم للإسلام وكانوا يطمعون فى أن يثنوه عن دعوته التى سفهت أحلامهم وعابت دينهم وكادت أن تطوى الأرض من تحت أقدامهم ، وكانوا متأهبين للتنازل عن غلوائهم وأن يسيروا معه شوطا على أن يسير معهم شوطا ويكف عن صلابته فى دعوته ويجعل لآلهتهم نصيبا مع إلهه ، فكانوا يلينون له لعله يركن إليهم ويجنح للمهادنة

---

(١) النحل ٩٠ .

(٢) الشعراء ٣٠ .

والسلام .

وذات يوم جلس مجلسا فيه ناس من وجوه قريش منهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة ، وجعل يقرأ عليهم القرآن ويعرض عليهم الإسلام ثم يقول لهم :

— هل ترون بما أقول بأس ؟

فقالوا :

— لا .

ورأى منهم مؤانسة وطمع فى إسلامهم فراح يحدثهم ، فجاء عبد الله ابن أم مكتوم ابن خالة خديجة سيدة نساء قريش يقوده غلام ، فقد كان أعمى ، فصار يقول :

— يا رسول الله علمنى مما علمك الله .

فشق عليه — ﷺ — ذلك وأشار إلى قائد ابن أم مكتوم بأن يكفه عنه حتى يفرغ من كلامه ، فكفه القائد ، فدفعه ابن أم مكتوم وقال :

— استدنني يا محمد .. أرشدنى يا محمد .

فعبس — ﷺ — وأعرض عنه مقبلا على وجوه قريش ، فعاتبه الله تعالى فى ذلك : ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى ﴾[1] .

وهرع رسول الله — ﷺ — إلى من عاتبه فيه ربه وأقبل عليه يعلمه مما

---

(١) عيسى ١ — ١٠

علمه الله ، ويرشده إلى الحق حتى أضاءت بالأنوار بصيرته : وأسلم ابن خالة خديجة ، وقد فرحت الطاهرة لإسلامه وإن كانت تتمنى أن يشرح الله إلى الإسلام صدر ابن أخيها حكيم بن حزام .

كانت دار الندوة بيد حكيم وكان يفعل المعروف ويصل الرحم ويتصدق ويعالج البر ، وكان رجلا تاجرا يخرج إلى اليمن وإلى الشام فى الرحلتين فكان يربح أرباحا كثيرة فيعود على فقراء قومه ، وما كان يعبد شيئا ، يريد بذلك ثراء الأموال والمحبة فى العشيرة . وكان يحضر الأسواق ، وكان مجدودا فى التجارة ما باع شيئا قط إلا ربح فيه ، وكان من المطعمين وكان راجح العقل فدخل دار الندوة وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولم يدخل دار الندوة للرأى أحد حتى يبلغ أربعين سنة ، فلو أن حكيم بن حزام قد دخل فى دين الله لتبعه ناس كثيرون ولخضد[1] ذلك من شوكة سادات قريش الحانقين على الدعوة الجديدة .

كانت خديجة ترجو إسلام حكيم ابن أخيها فهى تحبه حبا صادقا وتتمنى أن تزحزحه عن النار ، وكان رسول الله — ﷺ — يرجو إسلام عمر ابن الخطاب فهو وإن كان يبدو قاسيا فى اضطهاد المسلمين فما ذلك إلا لانه قوى جبار معتد بشخصيته مؤمن بدينه ، فلو أن الله شرح صدره للإسلام لساند دين الله بشجاعة المؤمنين ، فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف .

كان عمر بن الخطاب وشباب بيوت شرف قريش ينزلون صنوف العذاب بالمسلمين ، وكان الحوار حارا بين رسول الله (ﷺ) وبين

---

(١) خضد الشجر : قطع شوكه .

وجوه قريش ، فكثيرا ما كانوا يجتمعون به فى الحرم يصغون إلى القرآن ويسخرون منه ويستهزئون به ، حتى إذا نزل الوحى بالحجج الدامغة وضيق عليهم الخناق كانوا يهرعون إلى دار أبى طالب يسألونه أن يحضر لهم ابن أخيه ، حتى إذا ما حضر شكوه إليه وسألوه أن يجيبهم إلى أمر فيه الألفة والإصلاح .

وكانوا يعاتبون الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) على تسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وعيب آلهتهم ويعرضون عليه المال والشرف والملك والطب ، فما كان ذلك كله ليغرى رسول الله — ﷺ — فقد أمر أن يكون لهم بشيرا ونذيرا .

إنه صامد صابر لا يتزحزح عن دعوته لا يثنيه عنها وعيد ولا يفلح فيه تهديد ولا يسيل لعابه للأموال ولا للملك والسلطان ، فأيس أشراف قريش من أن يردوه إلى دينهم فرأوا أن يدخلوا معه فى مساومة ، أن يقبل أن يلتقى بهم فى منتصف الطريق . فانطلق الأسود بن زمعة والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبو جهل إلى منزل أبى طالب وسألوه أن يحضر لهم ابن أخيه ، فأرسل إليه فجاء عليه الصلاة والسلام مسرعا طمعا فى هدايتهم ، حتى جلس إليهم فعادوا يعرضون عليه الأموال والشرف والملك فقال :

— ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا .

فقال عتبة بن ربيعة :

— إن كان ما بك الباه فاختر أى نساء قريش فنزوجك عشرا .

— ارجع إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل بكل ما تحتاج إليه فى دنياك وآخرتك .

كفار قريش يتكفلون لرسول رب العالمين بكل ما يحتاج إليه فى آخرته ، لم تكن لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، فقال رسول الله عليه السلام :

— بلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، وإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم .

رفض الأموال والملك ولذات الأرض ، رفض أن يعود إلى الظلمات بعد أن أشرق قلبه بنور ربه ، فقالوا له :

— إن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح .

— وما هى ؟

— تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ونعبد إلهك سنة ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبده خيرا مما نعبده كنت قد أخذت منه بحظك ، وإن كان الذى نعبد خيرا مما تعبد كنا قد أخذنا منه بحظنا .

وأصبح محمد — ﷺ — سيد الموقف ، صارت له الكلمة العليا ، فقد قبلوا أن يشركوا الله مع آلهتهم ولكنه لم يقبل أن يشرك آلهتهم مع الله ، ارتضوا المساومة فكان ذلك بداية الانهيار وإن ركبوا رءوسهم وحاربوا الإسلام فى ضراوة ، وقد تمادوا فى التنازل فقالوا :

— اعبد معنا آلهتنا يوما نعبد معك إلهك عشرة ، واعبد معنا آلهتنا شهرا

لنعبد معك إلهك سنة .

وأبى رسول الله — ﷺ — أن يقبل ذلك الشرك وقد جاء ليمحق الشرك . وغادر دار عمه أبى طالب وهو الأعلى لم يتزحزح عن دعوة ربه قيد شعرة ، فهو على هدى من ربه وعلى يقين من أن حزب الله هم الغالبون .

وانطلق سادات قريش يرهق وجوههم قتر وذلة كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما وضل عنهم ما كانوا يفترون ، جاءوا يلتمسون من يتيم قريش أن يكف عن عيب آلهتهم لقاء الأموال والملك والنساء وليعود إلى ملة آبائه ، فلما أعرض عنهم عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه شهرا على أن يعبد آلهتهم يوما وكانوا يحسبون أن سيشكر لهم ذلك الكرم ، فإذا به يذلهم بالرفض بعد أن أذلوا آلهتهم وأنفسهم بالعرض المهين .

وعادوا إلى مجالسهم فى الحرم وقد أطرقوا برءوسهم يفكرون فيما قرأ عليهم سليل بنى هاشم : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنَّى تصرفون * كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون * قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنَّى تؤفكون * قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمَّن لا يهدى إلا أن يُهدَى فما لكم كيف تحكمون * وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى عن الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون * وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب

العالمين * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين * وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون * ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون * إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(١) .

كان القرآن يرن فى أغوارهم رهيبا يحرك العجب فى نفوسهم ، وكانوا يستشعرون ضآلة شأنهم كلما ألقوا سمعهم إلى آى الذكر الحكيم . ولكن سرعان ما يثور حقدهم وتتحرك كبرياؤهم ويستولى عليهم غرورهم فيلجّوا فى النكران البغيض .

ودخل رسول الله — ﷺ — الحرم ثابت الخطو مرفوع الرأس وجلس يقرأ فى شجاعة منقطعة النظير : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾(٢) .

واربدت وجوه الكافرين وانتقع لونهم وهم يتميزون غيظا من ذلك الأعزل من كل سلاح الذى يلقى فى وجوههم بذلك القول الغليظ . ولم يفطنوا إلى سر تلك القوة فما كانوا يتصورون أن فردا واحدا مهما منعته عشيرته بمستطيع أن يقف فى وجه قومه ، إنه أعلنها حربا لا هوادة فيها فى

---

(١) يونس ٣١ — ٤٤ .   (٢) سورة الكافرون .

سبيل الله حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو خير الحاكمين .

إنه لم يكتف بأن يقول : لا أعبد ما تعبدون . بل راح يكرر فى توكيد أنهم لن يعبدوا ما يعبد لأنه لن يعبد أبدا آلهتهم لا شهرا ولا يوما ولا طرفة عين . إنه تحداهم على الملأ فلن تكون مهادنة بعد اليوم ، ولن يرحموه ولن تأخذهم رأفة فى أصحابه بل غلظة وقسوة وعذاب وإسراف فى الطغيان والتنكيل حتى يعود الصابئون إلى دين الآباء صاغرين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

٥

كان القمر فى السماء هلالا والمشاعل تنير طرقات مكة فتحيل الليل نهارا ، والناس فى غدو ورواح بين الدور والحرم حيث أناخت الرواحل فقد وافى الموسم وراح المكيون يتأهبون للخروج إلى الأسواق .

كان العبيد يحملون التجارة من مخازن التجار إلى ظهور الجمال ، والرجال والنساء والصبيان يتدفقون كالروافد من شعاب أم القرى وفجاجها ليصبوا فى البيت العتيق حيث اجتمع الناس ، وراح بعضهم يموج فى بعض جادين وعابثين قد انعكس فى الأعين فيض القلوب ، وراح أناس يتدافعون بالمناكب ليدخلوا إلى جوف الكعبة ليضربوا بالقداح عند هبل لاستشارته فى الخروج ، وراح آخرون يتمسحون بأصنام الآلهة ، بينا الأيسار الذين تأهبوا لتمضية الليل فى لعب القمار كانوا يذبحون الجزور بين إساف ونائلة .

وخارج الحرم بائعات اللذة ، وكن فتيات سادات قريش يجمعن

الأموال من البغاء ثم يحملنه إلى صناديق الرجال المتعطشين إلى الأموال الذين ما كانوا يحفلون من أين جاء الذهب والفضة والورق ما دامت الثروات تتدفق إلى خزائنهم .

وفى خيام البغايا قدمت الخمور التى جلبت من الشام ، ومنها جلجلت ضحكات الماجنين حتى غطت على أنين الأرقاء الذين كانوا غادين رائحين كالدواب يحملون تجارة السادة والسياط تلهب ظهورهم ، وأصوات الزجر تمزق آذانهم وتنزل الرهبة فى قلوبهم :

ويمم وجوه قريش إلى حى بنى مخزوم وقد لاح الهم فى العيون ، فقد تواعدوا على أن يجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة ليتشاوروا فيما يفعلونه فى الموسم ، ولم يكن ذلك الموسم كغيره من المواسم بل كان ذا شأن جليل ، فمحمد بن عبد الله سيعرض ما جاء به على القبائل فإن خلوا بينه وبين العرب فقد يسحر الناس بقرآنه فيؤمنوا به ويجد بينهم أنصارا ينصرونه فيخرج الأمر من بين أيديهم وفى ذلك خطر عليهم عظيم .

واكتمل عقدهم فقام الوليد فقال :

— يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستفد عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا .

قالوا :

— فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به .

— بل أنتم فقولوا أسمع .

— نقول كاهن .

— لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا

سجعه .

— فنقول مجنون .

— ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوته .

— فنقول شاعر .

— ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

— فنقول ساحر .

— ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فلا هو بنفثه ولا عقده .

— فما تقول يا أبا عبد شمس ؟

— والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[١] وإن فرعه لجناه ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته .

وذهب أبو بكر وعثمان وطلحة وعمار بن ياسر وبلال وسعد بن أبى وقاص والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان بن مظعون وعبد الله بن مسعود والمسلمون إلى دار خديجة وقد عزموا على أن يحرسوا رسول الله — ﷺ — خشية أن يغتاله أعداؤه فى الموسم فى سوق من الأسواق ، فقد بدت العداوة من أفواههم وما تخفى صدورهم أعظم .

---

(١) العذق : النخلة ، يشبهه بالنخلة التى ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا جنى .

وخرجت قريش إلى سوق مجنة وكانت قريبة من مكة وأشياخها يختلسون النظر إلى محمد عليه السلام وصحبه كأنما يعدون عليه أنفاسه ، وكان عمه أبو لهب أكثرهم مراقبة له فهو قد بيت العزم على أن يفض الناس عنه إذا ما التفوا حوله وتأهبوا للإصغاء إليه . وانطلقت القافلة تحمل الكافرين الذين اتفقوا على أن يرموا رسول الله — ﷺ — بالسحر والذين أنزل الله فيهم : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾(١) . وتحمل فئة قليلة مؤمنة بربها وضعت كل آمالها فى رسوله الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور :

كانت قريش غنية بأموالها غنية برجالها معتزة بمكانتها فى العرب ، بينا كان محمد — ﷺ — وصحبه فقراء فى المال أغنياء بنور الله الذى أشرق فى قلوبهم أقوياء بالله رب العالمين ، فكان أشراف قريش شامخين بأنوفهم شأن الجاهلين ، وكان عليه السلام وصحبه من المؤمنين متواضعين لله شأن المتقين .

ونزلت قريش فى مجنة وقد أقيمت الخيام وراح الناس يردون الماء تأهبا لأيام السوق العشرة ، ودخل رسول الله — ﷺ — القبة وقد أحاط بها صحبه يحرسونها فقد كانوا يخشون قريش وما أكثر من اغتالهم الغدر فى الأشهر الحرم .

وأمست السوق غاصة بأهل العداوة والمبادأة لرسول الله — ﷺ ،

---

(١) الحجر ٩٠ — ٩٣ عضين : أجزاء ، فقالوا بعضه حق لموافقته للتوراة والإنجيل . وبعضه باطل .

وأصحابه الذين يطلبون الجدل والخصومة ، فراح أبو جهل بن هشام وأبو لهب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن عدى والوليد بن المغيرة وأمية وأبى ابنا خلف وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث ومنبه بن الحجاج وزهير بن أبى أمية وعقبة ابن أبى معيط والحكم بن العاص يرصدون قبة أبى القاسم ، حتى إذا ما خرج منها ليدعو الناس إلى ما جاء به خفوا إليهم لينفروهم عنه .

كان رسول الله — ﷺ — يفكر فيما ينبغى عليه أن يفعله من أجل الدعوة فى الموسم ، فالقبائل ستفد من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق ومن الغرب إلى الأسواق ثم تتدفق إلى البيت العتيق لتأدية مناسك الحج ، وإنها لفرصة طيبة أن يعرض نفسه ودين الله على القبائل لعل الله يجعل أفئدة من الناس تشرق بأنوار الإسلام فيأتى النصر المبين .

إنه ليحس أن فى هذه الأسواق ستتألق دعوته ، وأن فيها ستهفو قلوب إلى الحق وتؤمن بالله وحده وتعز الدين ، ولكنه تذكر أنه وحده ليس معه إلا فئة قليلة من المؤمنين ، وأن أعداءه يتربصون به فماذا يستطيع هو والمستضعفون الذين معه أن يفعلوا أمام ذلك البحر الزاخر من العرب المشركين ؟!

أشفق على نفسه وعلى المستضعفين الذين ذاقوا صنوف العذاب صابرين فى سبيل نصرة دين الله . وفيما هو فى تدبره وتقديره إذ نزل عليه الوحى : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[1] فأخرج رسول الله — ﷺ — رأسه من القبة فقال

---

(١) المائدة ٦٧ .

لصحبه الذين كانوا يحرسونه :

— أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله .

ثم خرج من القبة مطمئن الفؤاد لا يخشى غدرا ولا غيلة بل يستشعر سكينة بعد أن أوحى إليه أن الله كتب على نفسه أن يحفظه ، ووقف ليدعو الملأ فى السوق إلى الإسلام ويتلو عليهم آيات الله البينات ، وإذا بشياطين قريش يهرعون إلى من تجمعوا حوله ليفضوهم عنه . فقال أبو لهب :

— هذا ابن أخى .. إنه ساحر كذاب .

فقال عليه السلام :

— ما أنا إلا نذير مبين .

فقال أبو جهل :

— إنه لمجنون .

— إن أتبع إلا ما يوحى إلى .

— بل شاعر نتربص به ريب المنون .

وارتفع صوت الرسول عليه صلوات الله وسلامه ببعض آى الذكر الحكيم فارتفعت أصوات الكافرين من قريش حتى غطت على صوته :

— هذا سحر مبين

— افتراه .

— إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه ، وكفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم .

وحاول المؤمنون أن يوضحوا للناس حقيقة الدين القويم فإذا بالملأ الذين استكبروا من قريش يقولون :

— لو كان خيرا ما سبقونا إليه . هذا إفك قديم .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا .

وارتفعت أصوات المكذبين :

ــ لو شاء ربنا لأرسل ملائكة .

واستمر أعداء رسول الله ــ ﷺ ــ يجاهدون فى فض الناس من حوله حتى نجحوا فى إعراض الذين جاءوا إلى سوق مجنة عن الهادى الراشد بعد أن رموه بالجنون وبالسحر وبالكهانة وبالكذب وبكل بهتان وزور . و لم يستطيعوا أن يثبتوا على رميه بالسحر وحده كما اتفقوا مع الوليد بن المغيرة فما كان وصفه بالساحر ليجعل الناس يعرضون عن سماع قوله الذى يسحر الألباب ويأخذ بمجامع القلوب .

وانقضت أيام مجنة العشرة و لم يخل كفار قريش بين رسول الله ــ ﷺ ــ وبين الملأ ليبلغ رسالات ربه ، فقد استطاعوا بباطلهم أن يقنعوا الناس بكذب أصدق البشر أصدق البشر أجمعين .

وحملت قريش خيامها وتجارتها وانطلقت إلى سوق عكاظ لتجتمع مع القبائل هناك ، وسار عليه السلام وصحبه وقد ضاق صدره بما قال الكافرون وحزن حزنا شديدا لعدم استجابة أحد من الناس لدعوته الصادقة ، وراح يمنى النفس بأن تتاح له فرصة مخاطبة القبائل فى حرية فى عكاظ ثم لهم بعد ذلك أن يقبلوا ما جاءهم به أو يرفضوه .

كان كل ما يريده أن يخلى قومه بينه وبين الناس وأن يمنحوه نفس الحق الذى يمنح لذوى الرأى والشعراء الجادين والماجنين ورواة الأخبار. فحرية القول مكفولة فى أشهر سوق عرفها العرب .

وفى صبح هلال ذى القعدة كان الناس على مراعيهم وراياتهم منحازين

فى المنازل يضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ، ويحكم بين الناس فى القضايا حكم تقر بسلطانه القبيلة . وكان لكل حي من أحياء قريش حكم ، فأبو طالب فى بني هاشم وأبو سفيان فى بني أمية والوليد بن المغيرة فى بني مخزوم والعاص بن وائل فى بنى سهم وعتبة بن ربيعة فى بني عبد شمس وعمر بن الخطاب فى بنى عدى ، وقد عزل ولا ريب عن الحكومة فى بنى تيم أبو بكر فما كان الكافرون يرتضون أن يفصل بينهم من عاب الآلهة وسفه الأحلام وسخر من معتقدات الآباء .

وتحت راية قريش كان الانقسام : فئة قليلة مؤمنة قد أسلمت وجهها لله ليس لها مطمع فى الحياة إلا أن تخرج البشرية من ظلمات الجهالة إلى نور الله ، وفئة كثيرة كافرة أبت كبرياؤها أن تلقى السمع إلى بشر يوحى إليه بل أعرض أكثرهم وقالوا :

— قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون .

وذهب الناس إلى العبلات يطوفون بها وينحرون عندها بينا راح محمد عليه السلام وصحبه يصلون لله رب العالمين وراء الرابية التى كانت تطل على السهل المنبسط الفسيح الذى كان يخفق بقبائل العرب .

وماجت السوق بالتجار والشعراء والنصارى واليهود والمجوس والمشركين وطلاب اللهو وتجار الرقيق وبائعي الخمر وبائعات الهوى من صاحبات الرايات الحمر والنخاسين والدلالين ، وضربت فى السوق حلقات كل حلقة منها بمثابة سوق قائمة بذاتها : حلقة لبيع الإماء والعبيد ، وحلقة للعطارين ، وحلقة للبزازين ، وحلقة للطرف الفارسية والسجاجيد ، وحلقة لحرير الشام ، وأخرى لمنسوجات منف ، وما

غابت سلعة عن السوق .

وضربت للنابغة الذبيانى قبة ، إنها حلقة الشعر التى يهرع إليها الناس ويصغون إلى النشيد منتشين فالبلاغة تعمل فى نفوسهم عمل السحر المبين ، وجلس سادات قريش الذين يجيزون تعليق جيد الشعر بالكعبة فى صدر المكان فقد بيتوا النية على أن يجعلوا من أيام عكاظ مهرجانا للشعر حتى يحولوا به الأنظار عن محمد بن عبد الله وقرآنه .

وقام شعراء القبائل يتنافسون ، يتنابذون بالألقاب ويتفاضلون بالحقائق ويتفاضلون بالأساطير ويتفاخرون ويتعاظمون ، وتقاطر الناس يسمعون فطاحل شعراء القبائل ويرهفون آذانهم للاستمتاع بشعر شعراء قريش الرقيق ، فقد حشدت قريش من الشعراء من يستطيعون أن يجذبوا الناس طوال أيام السوق العشرين .

وبينا الكافرون فى قمة النشوة جلس رسول الله ــ ﷺ ــ ومن حوله صحبه الأبرار وراح يتلو بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون * فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين * وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[1] .

---

(١) الأعراف ٥٩ ــ ٦٥ .

وجاء الناس إليه يستمعون ، ورأى كفار قريش إقبال الملأ من القبائل عليه فقاموا إليهم مسرعين ليفضوهم من حوله قبل أن يستولى على أفئدتهم بسحره المبين ، فلما بلغوهم اندسوا بينهم فقال النضر بن الحارث :

ـ ما هذا إلا أساطير الأولين .

وقال أبو لهب :

ـ إن هذا ابن أخى ، إنه لمجنون .

فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ إنما أنا نذير والله على كل شىء وكيل .

وتفرق بين الناس الأسود بن عبد يغوث وأمية بن خلف وأخوه أبىّ والحارث بن قيس والوليد بن المغيرة ومبه بن الحجاج وزهير بن أمية وأبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبى معيط وأهل عداوة رسول الله ليجادلوه ويخذلوه ، وجلس عتبة بن ربيعة بعيدا ينظر وهو يستشعر ضيقا فقد سبق له أن عرض على قومه أن يخلوا بين أبى القاسم وبين العرب فإن قتلوه فقد أراحوهم من عداوة بنى هاشم وطلبهم بثأره لو أن قرشيا قد قتله ، وإن ظهر فعره عزهم ومحده مجدهم ولكنهم رفضوا رأى الأريب .

وقال قائل منهم فى سخرية :

ـ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم .

ـ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا .

فسرت زمجرة بين الجموع ، ورأى كفار قريش أن يوقدوها نارا فقالوا :

ـ إنه يسب آلهتنا وآلهتكم ويسفه أحلامنا وأحلامكم .

ـ إلهكم إله واحد لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه .

— واللات والعزى ومناة ؟!

— أتدعون من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا .

— أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون !

— يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل .

فقال النضر بن الحارث :

— اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

— فليأتنا بآية كما أرسل الأولون .

— إنما الآيات من عند الله إنما أنا نذير مبين .

— لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .

— لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى .

وارتفعت الأصوات تطلب آية ، فراح رسول الله عليه الصلاة والسلام يتلو :

— ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون * ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾(١) .

---

(١) الأنعام ١٠٩ — ١١١ .

وأصغى الناس وخشى كفار قريش أن يسحرهم القرآن بحلاوتـه فراحوا يتصايحون :

ـ إن هذا إلا إفك افتراه .

ـ إنما أنذركم بالوحى .

ـ افتراه .. إنما أنت مفتر .

ـ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .

ـ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !

ـ إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم .

ـ أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذا لفى ضلال وسُعُر .

ـ يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين .

وتولوا وهو ينظر إليهم وقد ضاق صدره بما يقولون ، وما لبث أن همس فى جوفه هامس يتلو آيات ربه : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[1] ، فقال :

ـ حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

وجاء الليل ومدت الموائد فى السوق بعد أن طهيت الجزور ودار الشراب ، وراحت الفتيات يوزعن على الرجال الضحكات وكشفت

---

(١) الحجر ٩٧ ـ ٩٩ .

أضواء المشاعل خائنة الأعين ، ثم استجاب الناس إلى نفوسهم الأمارة بالسوء فإذا بسوق عكاظ تنقلب إلى مذبح للشهوات تقدم إليه الأجساد البضة دون حياء وتراق الفضيلة على أعين الناس ، وقد ذهب النسوة إلى أخدانهن فى خطا ثابتة فالأزواج كانوا على علم بالعلاقات المقيتة التى كانت بين أزواجهم وبين رفقائهن وما كان لهم أن يرفعوا صوت الاعتراض ، فذلك شىء تقره تقاليد الجاهلية !

وذهب نسوة للاستبضاع من شاعر نابه أو شريف ذى رأى أو فارس لا يشق له غبار أو حكيم من حكماء القبائل ، استجابة لأزواج يحبون أن يأتوا بذرية نابهة لها شأن ! وراح محمد — ﷺ — ينظر وهو حزين ، فقومه يتخبطون فى الظلمات ويرفضون يده التى يمدها إليهم ليخرجهم إلى النور ، وفاض أساه حتى بللت عينيه الدموع ، ثم راح يتلو قول الله تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .

وراح يذكر ربه فى نفسه تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول فى الغدو والآصال حتى لا يكون من الغافلين .

٦

انتهت أيام عكاظ وما خلى المشركون من قريش بين رسول الله ﷺ وبين القبائل ، إذا قام ليعظ الناس ويدعوهم إلى الإسلام أسرع أبو لهب ليقول للملأ الذين تأهبوا لسماعه : « هذا ابن أخى انفضوا عنه إنه لمجنون » . واندس أبو جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وأمية ابن خلف وأخوه أبىّ وشياطين قريش بين الناس يغرونهم على ألا ينصتوا إلى

من سب الآلهة وسفه عقول العرب أجمعين ، ويؤلبونهم على من جمع السفهاء حوله والعبيد ليقوض سلطان ذوى المكانة والشرف بعد أن يزعزع عقائد المؤمنين بآلهتهم الذين وجدوا آباءهم لها عابدين .

وانطلقت القوافل من سوق عكاظ إلى سوق ذى المجاز وقد سار رسول الله — ﷺ — وصحبه تحت راية قريش ، وكان رسول الله عليه السلام حزينا ، فهو يريد لقومه الهداية فأبوا إلا كفورا ، وعصوه واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وهو يرجو أن يبلغ رسالات ربه حتى يشرق الكون بنور اليقين ، فكان يضيق صدره بما يقولون ويكتنفه أسى عميق لإعراض الكافرين عن منابع النور .

كان الذين معه فئة قليلة ولكنها فئة من صفوة أحياء قريش ، فمن بنى هاشم جعفر وعلى ، ومن بنى أمية عثمان بن عفان وأم حبيبة بنت أبى سفيان زوجة أبى سلمى المخزومى ، ومن بنى تيم أبو بكر وطلحة ومن بنى أسد الزبير بن العوام ، ومن البطون الأخرى فتية آمنوا بربهم وازدادوا هدى .
ولكنه يريد أن ينتشل عمه الحبيب أبا طالب من أن يتردى فى نار جهنم وأن يشرح الله قلب عمه أبى لهب للإسلام وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، فهو لا يستطيع أن ينسى أن أبا لهب قد أعتق جاريته ثويبة لما بشرته بمولده .

وابن عمه أبو سفيان بن الحارث تربه وشبيهه ومن كان يألفه إلفا شديدا عاداه وهجره وهجا أصحابه وقام فى الأسواق يلقى أشعاره مستهزئا بما جاء به ، إنه يحب ابن عمه من كل قلبه ، يحب أن يلقى الله أنوار اليقين فى فؤاده ليسلك سبل ربه ويفوز بالهداية والفوز العظيم .

وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، وأبو سفيان بن حرب ، وابن خالته النضر بن الحارث ، وابن عمته المخزومى وزوج ابنته زينب ، وابن

أخت خديجة حكيم بن حزام ، والرجل القوى عمر بن الخطاب ، وفارس بنى مخزوم خالد بن الوليد ، والشاعر الذى يلقن الصبيان أناشيد هجوه عمرو بن العاص ، وطاغية بنى مخزوم أبو جهل ، وأمية وأبىّ ابنا خلف ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هشام ، والحكم بن أبى العاص : جيرانه الذين لم ينفكوا عن إيذائه ، لماذا أغلقوا جميعا قلوبهم دون دعوة الحق المبين ؟

إن الصراط مستقيم فلماذا لا يؤمنون ؟ ولماذا تضيق صدورهم حرجا بدعوته وما فيها إلا الهدى والرشاد ؟ إنه حزين حتى الموت يحز فى نفسه إصرار قومه على أن يتقاحموا فى النار وهو ينظر لا يملك أن يأخذ بحجزهم ، كلما حاول أن يحول بينهم وبين العذاب استهزءوا به ونحوه عن طريقهم ليندفعوا فى طريق الضلالة فى إصرار عجيب !

إنه كلما رأى إعراضهم كان يمتلئ أسفا عليهم وينزل بقلبه حزن ثقيل وألم ممض ، حتى أنزل الله عليه : ﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾(١) .

وبلغت قوافل العرب سوق ذى المجاز فحطت فيها الرحال ، وما وافت مطالع اليوم الأول من ذى الحجة حتى التجت السوق بالناس وقامت كل

---

(١) الشعراء ١ — ٦ .

قبيلة تصلى لإلهها وتدعوه أن يبارك لها فى تجارتها ، فما كانت الصلة بين الأرباب وعبادها إلا صلة منفعة عاجلة : إطالة الأعمار وبسط الرزق وملء خزائن السادة الذين نصبوا من أنفسهم حماة للأوثان والأصنام .

رأى رسول الله — ﷺ — الناس يسجدون لما لا ينفعهم ولا يضرهم ولما لا يملكون لأنفسهم شيئا فلم يستطع أن يسكت على ذلك الضلال ، فقام فى السوق فقال :

— يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تعقلون !

فذهب إليه ناس وقالوا :

— ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

— إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .

فارتفعت أصوات تعترض :

— لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء .. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟! لو ما أتيتنا بالملائكة إن كنت من الصادقين .

— إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا .

وهرع أبو لهب وشياطين قريش إلى حيث التف الناس بالرسول عليه السلام وراحوا يتصايحون :

— يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون .

— إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .

ثم راح يرتل : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم

تبصرون * قال ربي يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم * بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون * وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[١] .

وأنصتوا حتى كفار قريش ألقوا إليه سمعهم وما لبثوا أن أفاقوا لأنفسهم ، فذلك الإصغاء قد يجعل قلوب العرب تتعاطف مع أبى القاسم فقال قائل منهم :

— افتريته .

فقال رسول الله ﷺ فى هدوء :

— إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون .

— بل افترى على الله الكذب .

— إن افتريته فعلّى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون .

والتف وجوه الكفار حوله وقالوا :

— يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشترى فتربح ؟ وبالأرض التى يريدأن تجدب فترحل عنها إلى ما قد أخصب ؟

أف لهم ! أيقول لهم إن الذهب وتراب الأرض قد تساويا عنده ! أيقول لهم إن ما عند الله خير وأبقى وأن نظرة إلى وجه ربه الكريم بالدنيا وما فيها ؟! أوَ يفقه المتكالبون على الأموال واللذات المادية أنه زهد فى الحياة الدنيا وزينتها وأنه ما جاء إلا ليعيد للبشرية كرامتها وأن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ؟ وفيما هو يفكر إذ نزل عليه الوحى فراح يقرأ على الملأ :

---

(١) الأنبياء ١ — ٧ .

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾(١) .

وأعرضوا عنه ، وطلبوا منه آية فقال : إنما الآيات عند الله ، وطلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له فقال لهم : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم . ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾(٢) .

كانوا يعجبون أن جعل الآلهة إلها واحدا وأن الله بعث بشرا رسولا ، وكانوا ينتظرون أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربهم وما قدروا الله حق قدره وقد عجزوا عن أن يحرروا ذواتهم من ماديتهم الطاغية وأن ينزعوا بوجدانهم إلى منابع النور .

وتقضت أيام ذى المجاز الثمانية كما تقضت من قبل أيام مجنة وأيام عكاظ . رسول الله يعرض نفسه على القبائل ويتلو عليهم بعض آى الذكر الحكيم وشياطين قريش يجادلونه ويؤكدون للناس أنه ساحر ومجنون ، ويتحدونه أن يأتى بآية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله .

وانقلب الناس إلى الحرم ليؤدوا مناسك الحج فإذا بالعباس بن عبد المطلب قد وضع أحواض من الأدم فيها ماء قد بث فيه الزبيب تشبها بعبد

---

(١) الأعراف ١٨٨ .

(٢) الإسراء ٩٠ — ٩٤ .

المطلب ، وإذا بالدقيق واللحوم توزع على فقراء الحجاج ، وإذا بقريش قد نصبوا فى الحرم أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف وراحوا يسجدون لها ، فوقف النبى صلوات الله وسلامه عليه وقال :

— يا معشر قريش لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ولقد كانا على الإسلام .

فقالت قريش :

— يا محمد إنما نعبد هذه حبا لله ليقربونا إلى الله زلفى .

ودار الحوار بين رسول الله عليه السلام وقريش ، ورأى سيد منهم الحارث بن عبد العزى زوج حليمة السعدية وكان يعلم مقدار حب ابن عبد الله لأمه حليمة وأبيه الحارث وأخواته الشيماء ونفيسة وعبد الله ، فهو لا يفتأ يذكرهم بالخير ولا ينسى أيام رضاعته التى أمضاها فى بنى سعد ، فخطر له أن يستعين به فى إقناع أبى القاسم بالكف عما هو فيه ويقبل ما عرضه عليه قومه من أموال ونساء وسلطان ، فذهب إليه وقال له :

— أو تسمع يا حارث ما يقول ابنك ؟

— وما يقول ؟

— يزعم أن الله يبعث من فى القبور ، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه ويكرم فيهما من أطاعه ، فقد شتت أمرنا وفرق جماعتنا .

فانطلق الحارث إلى رسول الله — ﷺ — ، فلما رآه استقبله بالبشر والترحاب ودعاه أن يجلس وراح يسأله عن أمه حليمة وعن الشيماء ونفيسة وعبد الله بل وعن الجيران ، وبعد أن انتهيا من حديث بنى سعد قال الحارث :

ـــ أى بنى ، مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول إن الناس يبعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة ونار ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى رقة :

ـــ نعم أنا أقول ذلك . ولو كان ذلك اليوم يا أبت فلآخذن بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم .

واستمر الحارث يصغى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يعرض عليه القرآن ، ولكن الله لم يشرح قلبه للإسلام فقام وهو يرنو إلى ابنه فى إشفاق ومحمد عليه السلام يستشعر أعمق الأسى لأن الحارث لم يصدقه .

وكان الحمس من أهل مكة يقيمون فى قباب من أدم وقد صاموا عن أكل الدسم إجلالا للشهر الحرام ، فراح المسلمون يرقبونهم وهم بهم معجبون ، ثم قالوا لرسول الله عليه السلام :

ـــ نحن أحق بذلك منهم .

ولم ينبس عليه السلام برأى بل انتظر وحى الله فما ينطق عن الهوى . وراح الحمس يكرون للأغنياء الثياب الطاهرة فقد أذاعوا بين الناس أن الطواف بالحرم لا يجوز فى ثياب اقترفوا فيها الآثام ، فكان الأغنياء يلقون ثيابهم ويلبسون ثياب الحمس ، وكان الفقراء من رجال ونساء يطوفون عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهى عريانة فتعلق على سفلاها سيورا مثل السيور التى تكون على وجوه الحمر من الذباب .

ونزل عليه الوحى فراح يقرأ على المسلمين . وكتاب الوحى على بن أبى طالب وأبو بكر وعثمان والزبير بن العوّام يكتبون : ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين

آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(١) .

وتدفقت جموع الناس إلى عرفة ، وبقى أهل مكة فيها لا يغادرونها بحجة أنهم أهل الحرم ولا ينبغى لهم أن يتركوا الحرم إلى الحل ، بيد أن رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — والذين معه من المسلمين انطلقوا إلى عرفة فقد ألقى فى روع الرسول حتى قبل أن يبعث أن الحج عرفة ، وارتفعت أصوات المشركين بالتلبية :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وراح رسول الله يلبى والفئة القليلة من المسلمين يرددون تلبية التوحيد خلفه :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن النعمة والحمد لك والملك . لا شريك لك .

وضاعت تلبية التوحيد فى تلبية الإشراك التى تجاوبت بها جنبات عرفات ، ورسول الله — عليه الصلاة والسلام — ضيق الصدر بذلك الظلم العظيم . فكيف قبلت عقول البشر تلك الفكرة الظالمة التى جعلت مع الله إلها آخر ؟ وكيف تتحرك ألسنة الناس بذلك البهتان والزور ؟ وراح يقلب وجهه فى السماء كأنما يتطلع إلى ذلك اليوم الذى تتردد فيه تلبية

---

(١) الأعراف ٣١ — ٣٣ .

التوحيد وحدها خالصة لوجه الله الكريم فتتجاوب لها الجبال والوديان والصحارى والسهول . وإذا بآيات الله البينات تسرى فى ضميره : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا * تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[1] .

وغابت شمس يوم عرفة فى الأفق الغربى فراح كرب بن صفوان يدفع بالناس من عرفة . فقد ورث آل صفوان الإجازة بالناس فى الحج من صوفة . وجاء يوم النفر فأتى الناس لرمى الجمار وما كانوا يرمون قبل أن يرمى كرب بن صفوان ، فجاء ذوو الحاجات المتعجلون وقالوا له :

ــ قم فارم حتى نرمى معك .

ــ لا والله حتى تميل الشمس .

فراح ذوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له :

ــ ويلك ! قم فارم .

فأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه .

وفرغوا من رمى الجمار وأرادوا النفر من منى ، فأخذ آل صفوان بجانبى العقبة فحبسوا الناس وقالوا :

ــ أجيزوا آل صفوان .

فلم يجز أحد من الناس حتى يمروا ، فلما نفر آل صفوان ومضوا خُلّىَ

---

(١) الإسراء ٤٢ ــ ٤٤ .

سبيل الناس فانطلقوا بعدهم .

وانتهت أيام الموسم وقد حاول رسول الله — ﷺ — أن يعرض نفسه على القبائل وأن يشرح لهم ما جاء به فى هدوء ، ولكن عمه أبا لهب وكفار قريش بذلوا كل جهد ليفضوا الناس عنه ، وقد هزهم الفرح لما نجحوا فى صد القبائل عن دعوة الرسول عليه السلام ، ولم يخطر لهم على قلب أن ذكر النذير الذى يوحى إليه من السماء قد انتشر فى القبائل ، وأن أمره قد ذاع بين الناس ، فإن كانوا أفلحوا فى حصر الإسلام فى الدائرة الضيقة التى انتشر فيها طوال السنوات الطويلة التى مرت مذ نزل الوحى على محمد — عليه صلوات الله وسلامه ، فإن الفرصة أمام انتشار الإسلام لا تزال قائمة مادام محمد — عليه الصلاة والسلام — ، والذين معه مؤمنين بما أنزل إليهم من ربهم ، صابرين حتى يحكم الله بينهم وبين الكافرين ، معتصمين بحبل الله ، واثقين بتحقيق ما وعد الله المتقين .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى خديجة وهو حزين ، فما أمن رجل واحد طوال الموسم برسالته ، فراحت حاضنة الإسلام تمسح عن قلبه لوعة الأسى ، وتنفث فيه من روحها القوية ما يزيده إيمانا على إيمان وتهون عليه ما قاساه من عذاب واضطهاد ، وتزوده بثقة فى نفسه ، وتؤيده بكل ما تملك من قوة مادية وروحية ، فما يزال الطريق أمامه طويلا .. وما أكثر العقبات التى عليه أن يجتازها حتى يأخذ بيد البشرية إلى ينابيع النور .

٧

كانت منازل أهل مكة تحيط بالكعبة تقترب منها أو تبتعد عنها تبعا لما لكل أسرة وفخذ من أهمية ومقام ، فكان القرشيون أقرب أهل مكة إلى الكعبة وكان كل سبط يقيم فى أحد الأحياء : بنو هاشم فى حيهم وبنو أمية فى حيهم وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو سهم وبنو عدى وبنو عبد الدار وباقى بيوتات شرف قريش العشرة فى أحيائهم . وكانت دار الندوة تجمع صفوة هذه الأحياء للتشاور فيما يهمهم من أمر الدنيا والدين ، أما الحرم فقد كان مكان عبادتهم ومجمع نواديهم .

وكان التنافس على السيادة شديدا بين بنى هاشم وبنى أمية وبنى مخزوم ، وكان بنو هاشم أصحاب الكلمة فى قريش مذ استطاع هاشم بكرمه أن يأسر قومه وبعد أن وفق الله عبد المطلب إلى إعادة حفر بئر زمزم وجعله يحرص على حل كل مشاكل أهل مكة بالطرق السلمية ؛ طريق التحكيم طريق السلام .

وبعد موت عبد المطلب بدا لكل ذى عينين أن نفوذ بنى هاشم أوشك أن يأفل ، فأبو طالب سيد بنى هاشم كان جوادا وكان كثير العيال وقد ذابت جل أمواله فى الكرم وإعالة أهله . ولما كان المال هو صاحب الكلمة العليا فى مكة فلم يعد لأبى طالب إلا أمجاد آبائه وكلمته المسموعة فى آل عبد المطلب ، وفقد الهاشميون حجر الزاوية الذى قامت عليه قوتهم بموت الزبير ابن عبد المطلب فقد كان الزبير شاعرا هجاء تخشى القبائل لسانه . فإن كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد حمل لواء شعراء بنى هاشم

بعدها فما كان شعره ينزل الرعب فى قلوب منافسى بنى هاشم على السيادة كما كان يفعل شعر الزبير وهجاؤه .

وأثرى العباس بن عبد المطلب من التجارة ودخل دار الندوة ، ولكن العباس انطوى تحت ذراع أبى سفيان بن حرب فقد كان نديمه وقلما يفترق الرجلان ، وكان انضواء العباس تحت سلطان سيد بنى أمية تقوية للأمويين وتدعيما لسلطانهم .

وكان أبو لهب ألعوبة فى يد زوجه أم جميل ، ولما كانت أخت أبى سفيان ابن حرب فقد كان فى عواطفه مع بنى أمية يميل معهم حيث يميلون ، وقد تفرغ للشراب ولعب الميسر والانغماس فى اللذات .

وكان حمزة بن عبد المطلب فارسا يمضى أوقاته فى القنص والإصغاء إلى جيد الشعر والشراب ونجدة كل ملهوف يقصده ، وما كان يتطلع إلى سيادة قومه أو أن يكون من سادات دار الندوة .

وعرف بنو أمية وبنو مخزوم هذه الحقيقة فطمعوا فى أن تئول إليهم سيادة مكة ، ولا غرو فأبو سفيان سيد بنى أمية يذهب إلى الحيرة ويدخل على ملوكها ، وينطلق إلى فارس ويعقد محالفات مع أباطرتها ، ويرحل فى رحلة الصيف إلى الشام ويوطد الصداقات مع الغساسنة ، ويسير على رأس قوافل قريش فى رحلة الشتاء إلى اليمن فيرحب به الحميريون وساداتهم ووالى اليمن من قبل كسرى ؛ والوليد بن المغيرة كان يضرب بعزه المثل ؛ وعبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى كانت قريش تلقبه « العدل » لأن قريشا كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا بذلك أنه وحده عِدل لهم جميعا ، وكان لعبد الله بن أبى ربيعة عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن .

كان بنو أمية وبنو مخزوم ينافسون بنى هاشم على الزعامة فلما أوشكت أن تتحقق آمالهم بأفول نجم الهاشميين قام فى بنى هاشم محمد بن عبد الله — عليه الصلاة والسلام — يعلن على الملأ أنه رسول الله وأنه بشير ونذير وأن الوحى ينزل عليه من السماء ، فغاظ ذلك الأمويين والمخزوميين غيظا شديدا ، فقد أطعم الهاشميون فأطعموا وتصدق الهاشميون فتصدقوا وها هو ذا ابن عبد الله يزعم أنه رسول رب العالمين ، فمتى يكون لهم مثل هذا الشرف وهذا المقام ؟

وحارب الرجال والنساء فى مكة دعوة الإسلام والسلام ، وكان رجال بنى أمية ونساؤهم ورجال بنى مخزوم ونساؤهم أكثر الناس عداوة لأبى القاسم فما كانوا يرون فى دعوته إلا توطيد سلطان بنى هاشم فى الحرم ، وجعل السلطة فى أيديهم إلى الأبد .

كانت أم جميل زوجة أبى لهب أخت أبى سفيان بن حرب من ألد أعداء نبى الإسلام ، فهى وإن كانت قد تزوجت فى بنى هاشم إلا أن أمنيتها الغالية كانت أن يسود أخوها قومه ، وقد سخرت زوجها أبا لهب لتحقيق مأربها . وكانت أسماء بنت مخربة سيدة بنى مخزوم تمقت الدعوة الجديدة أشد المقت فهى تقف حائلا منيعا دون تحقيق أحلامها .

كانت أسماء عطارة يأتيها العطر من اليمن تزوجت أبا ربيعة المخزومى فأنجبت له عبد الله بن أبى ربيعة وعياش ، وقد تزوجها هشام بن المغيرة من بعده فولدت له أبا جهل والحارث ، فكانت تعيش على أمل أن يكون أحد أبنائها عبد الله أو عياش أو أبو جهل أو الحارث سيدا لقومه ، وقد أخرجت الحارث من دائرة أمانيها بعد أن عكف على الشراب والقمار وباع حريته لأبى لهب أثناء لعبهما الميسر فصار له عبدا .

وراحت أسماء بنت مخربة تحرض بنى مخزوم على رسول الله — ﷺ — حتى لا يبزغ نجمه فتتقوض كل آمالها ، فكان ابنها أبو جهل بن هشام ألد خصومه . وكانت أسماء ترقب الأحداث الدائرة فى مكة بين الفئة القليلة المؤمنة وبين الكافرين وهى ترجو أن يتمكن كفار قريش من إخماد ما كانت تحسبه فتنة عارضة ولكن مخاوفها زادت لما تسربت بعض آيات الذكر الحكيم إلى دارها ، فقد وجمت وخشيت أن يستولى ذلك السحر على أفئدة من ليست لهم أطماع فى السيادة ومن لا يخشون على زوال ما فى أيديهم .

واستولى عليها حنق شديد لما أكثر الوليد بن المغيرة شيخ بنى مخزوم من الجلوس إلى أبى القاسم والإصغاء إليه ، وربما حنقها لما ذاع فى مكة أن الوليد قد صبأ . فلو أن الوليد قد دخل فى الدين الجديد لكان ذلك إيذانا بزوال آمال بنى مخزوم فى السيادة ، ولكن غضبها لم يدم طويلا فقد عاتب أشياخ قريش شيخ بنى مخزوم على أن ألقى سمعه إلى من جاء يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ويفرق جماعتهم ، وقد أنكر الوليد إشراق قلبه بأنوار اليقين وإن أبدى إعجابه بحلاوة ما جاء به أبو القاسم .

وهدأت نفس أسماء بعد أن بلغها ثبات الوليد بن المغيرة على دينه ، وراحت تؤكد أن ما من عاقل رشيد فى بنى مخزوم يرضى أن يدخل فيما يدعو إليه محمد ، فدخوله فى ذلك الدين إقرار منه بزعامة بنى هاشم ، وما من مخزومى عنده بعض الوفاء لعشيرته يقبل ذلك الهوان .

كانت أسماء بنت مخربة تنظر إلى الإسلام الذى يدعو إليه رسول الله — ﷺ — نظرة كلها عصبية وجاهلية ، وقد عبر أبو جهل عن وجهة نظر أمه خير تعبير لما قال للأخنس بن شريق : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا

ما تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك متل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .

وحزنت أسماء لما أعلن أبو سلمة المخزومى إسلامه وراحت تعزى نفسها أن أمه برة بنت عبد المطلب هاشمية ، فسواء عليه أكانت الزعامة فى بنى مخزوم أم كانت فى بنى هاشم ، وعجبت فى نفسها كيف انقادت أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب إلى زوجها وآمنت بالدين الذى جاء به ابن عبد الله لينتزع الزعامة من براثن أبيها !

كانت أسماء لا ترى فى الإسلام أكثر من أنه وسيلة لتثبت زعامة بنى هاشم على مكة ، وكانت فى قرارة نفسها تعجب من الهاشميين والمطلبيين الذين يناوئون أبا القاسم فى سبيل آلهتهم أو غضبا لتسفيه أحلام آبائهم ، فلو أن الذى نزل عليه الذكر ابن من أبنائها لأيدته فى دعوته بكل ما تملك ، ولحملت بنى مخزوم على تأييده .

وأحست سيدة بنى مخزوم ، وإن لم تكن مخزومية الأصل ، غضبا مزمجرا فى جوفها يكاد أن ينثرها أشلاء لما سمعت أن الوليد بن الوليد وابنها عياش بن أبى ربيعة قد آمنا بما جاء به محمد ؛ فقد رأت فى انضوائهما تحت لواء سليل بنى هاشم تقويضا لكل آمالها وأحلامها ، بل كانت تعد ما أقدما عليه خيانة لقضية العشيرة المتطلعة بحق إلى زعامة قريش .

واندلعت نار الثورة فى بنى مخزوم على الصابئين اللذين خذلا قومهما ، فراح خالد بن الوليد يؤنب أخاه أشد تأنيب ويهدده بعذاب الهون ، والوليد ثابت الجنان مطمئن البال قد تهلل فؤاده بالفرح بعد أن أشرق بنور ربه وعرف الحرية الحقة ، حرية التحرر من كل شر وحرية التحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل وحرية السمو فوق الأهواء وحرية عبادة الله وحده بإرادة مطلقة .

واندفعت أسماء بنت مخربة فى ثورة عارمة تسب ابنها عياشا وتنذره بالويل والثبور وتهدده أحيانا وتتوسل إليه أحيانا أن يعود إلى دين آبائه وأن يهجر ما جاء به محمد ليفرق بين الأم وابنها والمرء وزوجه والصاحب وصاحبه ، فيقول لها عياش إن محمد — عليه صلوات الله وسلامه — قد جاءنا بخير الدنيا وهناءة الأبد ، ثم يروح يدعوها إلى الإسلام وهى تحذره غضبها وعذابها . فيجلس ويقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * ألم * تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم * خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم * خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ .

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم

تعملون ﴾[1] :

كانت أسماء تغدو وتروح وتصيح فيه أن يكف عن تلاوته وإلا دعت أحابيش أبيه وأمرتهم بتعذيبه عذابا لم يعذبه أحد من العالمين . واستمرت تهدده بأنها ستخلى بينه وبين قومه ليقتلوه ، وأن بنى مخزوم لن يمنعوه كما منعت بنو هاشم محمد بن عبد الله فشتان بين من يحاول أن يرفع عشيرته فوق العشائر كلها وبين من جلب لرهطه العار والهوان المبين .

وجاء رجال من بنى مخزوم إلى هشام بن الوليد ليأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا منهم الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة ، فقالوا له :

ـــ إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذى أحدثوا .

كانوا يرون تعذيبهم ليخوفوا غيرهم ، فإن كان أبناء بنى مخزوم يضطهدون للدخول فى دين الله فلماذا ينزل بغيرهم إذا ما صبأوا ، فأخذ هشام بن الوليد أخاه الوليد وقدمه إليهم وهو يقول :

ـــ هذا فعليكم به فعاتبوه وإياكم ونفسه ، وأنشأ يقول :

ألا يُقتلن أخى عُبيس فيبقى بيننا أبدا تلاحى

احذروا على نفسه ، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا .

فقالوا وقد تقاصرت أنفسهم :

ـــ اللهم العنه من يغرر بهذا الحديث ، فوالله لو أصيب فى أيدينا لقُتل أشرفنا رجلا .

فتركوه ونزعوا عنه .

---

(١) لقمان ١٢ ـــ ١٥ .

إن الله يدافع عن الذين آمنوا وأسلموا له وجوههم وخرجوا على معتقدات العشيرة ، فللّه الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

٨

راح رسول الله — ﷺ — يفكر فى أمر رسالته بعد أن مضت بضع سنين مذ نزل عليه الوحى أول مرة فى غار حراء ، إنه دعا أهل بيته إلى الإسلام فلبوا الدعوة مستبشرين ، واستمر يدعو صحابته سرا إلى أن أمره الله أن ينذر عشيرته الأقربين فصدع بما أمر وشبت العداوات بينه وبين سادات قومه المتكبرين . وقد كان أشد الناس عداوة له عمه أبو لهب وابن خالته النضر بن الحارث وسادات بنى مخزوم وعقبة بن أبى معيط .

ومضت سنون و لم يدخل فى الدين القويم أكثر من أربعين من المؤمنين والمؤمنات الذين أضاء الله قلوبهم بأنوار اليقين ، وكان رسول الله — ﷺ — ينتظر الموسم بصبر نافد ليعرض نفسه على القبائل الوافدة للتجارة والحج وهو يرجو أن يصغى الناس لدعوته إصغاءهم إلى الشعراء وأصحاب المجون ، ولكن الموسم انقضى وما خلى قومه بينه وبين الناس بل بذلوا كل الجهود لينفروا الناس منه ويفضوهم من حوله .

وراح الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — يرى بخياله ما كان يفعله عمر بن الخطاب فى الأسواق . إنه كان يتيه بقوته الجسمانية ويستعرض بأسه ، فكان يصارع الرجال ويصرع الأبطال وما صُرِع مرة واحدة . وكان هدفه من المصارعة أن يلفت أنظار الغوانى والنساء وأن يثير

إعجابهن ، وكان دائما يحقق هدفه فقد كان النسوة يهرعن إليه ويستجبن لرغباته ويشتركن معه فى معاقرة الخمر ، وكان يشرب القدح الكبير بينا يشرب سائر السمار بالقدح الصغير .

وكان ينزل ألوان العذاب بالمستضعفين من المسلمين ، وما كان يلقى السمع إلى القرآن كما كان يفعل الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبو سفيان ابن حرب والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وأبو الحكم بن هشام ، بل كان يصم أذنيه عما جاء به ابن عبد الله فإنه متعصب لدينه على الرغم من حياة المجون التى يحياها ، وما كان بقادر على السكوت عن أن يسفه فرد أيا كان ذلك الفرد عقائد الآباء التى وقرت فى النفوس .

إن عمه زيد بن عمرو بن نفيل عاب دين الآباء فاضطهده الخطاب واضطره إلى الالتجاء إلى شعاب الجبال ، وقد خاف الخطاب أن يصبأ ابنه ذات يوم كما صبأ عمه من قبل ، فراح يلقنه محبة آلهته والتعصب لها ، ويغرس فيه الولاء للأصنام والغضب لها والبطش بكل من ينالها بسوء .

وما كان دين قريش ينهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فكان عمر ككل شباب مكة يعتز بشبابه ويزهو بقوته ويتيه على أقرانه بقدرته على عب قداح الخمر عبا وافتتان النساء به ، وكان فى الحق جبارا ينزل الرهبة بقلوب أشد الفتية قوة وجرأة .

وكان عمر يحس أن كل مواهبه فى قوته الجسمانية الخارقة ، ولكن رسول الله ــ ﷺ ــ كان يرى بثاقب بصره نفاسة معدنه ويتمنى لو أن عمر يجلس إليه كما يجلس وجوه قريش ويعيره سمعه بعض الوقت يعرض عليه الإسلام ويقرأ عليه القرآن . ولكن عمر كان يعرض عن رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ويبطش بطشا شديدا بالصابئين الذين تركوا

دين الآباء وكفروا بالآلهة .

وكان رسول الله عليه السلام على ثقة من أن عمر لو أصغى دون عصبية إلى القرآن فإن الله سيشرح صدره للإسلام ، فهو على الرغم من تعصبه الأعمى لدينه يملك نفسا نزاعة إلى جوهر الحقيقة ، ولكن أحدا ما كان بقادر على أن يسمعه ما يكره فإن رؤية مسلم كانت تجعل دماءه تثور فى عروقه ويده ترتفع لتنزل بالبطش والأذى .

وراح رسول الله عليه السلام يعجم رجال قريش ، فوجد أن أبا الحكم ابن هشام (أبا جهل) أعزهم نفرا ، فلو أن الوليد بن المغيرة كان سيد بنى مخزوم ، ولو أن ابنه خالد بن الوليد قائد فرسان قريش ، فإن نفوذ أبى الحكم فى بنى مخزوم وفى قريش أعظم من نفوذ أى من سادات دار الندوة ، فهو يحارب الإسلام فى ضراوة ويؤلب بيوت شرف قريش العشرة على المسلمين ، وما أكثر الراغبين فى الدخول فى دين الله لولا خشيتهم من بطش أبى الحكم وسطوته ، فلو شرح الله صدره للإسلام لكان فى إسلامه عزة للمستضعفين الذين آمنوا بالله وأصبحوا هدفا للاضطهاد والعـذاب والتنكيل .

كان إسلام عمر أو إسلام أبى الحكم بن هشام أمنية تراود نفس الرسول عليه السلام ، فلما أفاق من تفكيره راح يدعو ربه :

ــ اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب .

وخرج رسول الله ــ ﷺ ــ إلى الحرم فطاف به سبعا ، ثم راح يعرض على أهل مكة الإسلام و لم يكونوا على مذهب واحد وإن كان الغالب عليهم الفطرة والطبع ، وعلى الرغم من تشتت معتقداتهم فقد كان

البيت العتيق قبلتهم ومستقر آلهتهم ومحور آمالهم وأمانيهم .

وكان عباد الكواكب منهم يزعمون أن بيت الله الحرام إنما هو بيت زحل بناه البانى الأول على طوالع معلومة واتصالات مقبولة وسماه بيت زحل ، فاقترن الدوام به والتعظيم له لأن زحل يدل على البقاء وطول العمر أكثر مما يدل عليه سائر الكواكب ؛ بينا كان الحنفاء والوثنيون يقولون إنه بيت أبيهم إبراهيم ، وكان الحنفاء يعتقدون أنه بنى على أيدى أصحاب الوحى ، أما الوثنيون فقد طال عليهم العهد وقست قلوبهم و لم يبق للحرم فى نفوسهم إلا التوقير والتعظيم .

وكان رسول الله يحاور منهم أصنافا ، والقرآن يدحض معتقداتهم ويرد عليهم ، فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ﴿ وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون * وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار

ومالكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها وهم لا يستعتبون ﴾[١] .

وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[٢] .

وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة . وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا ، وهم الدهماء من العرب : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾[٣] .

﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾[٤] .

ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة ويعبدهم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين

---

(١) الجاثية ٢٤ — ٣٥ .
(٢) يس ٧٨ — ٨٣ .
(٣) الفرقان — ٧ .
(٤) الفرقان ٢٠ .

هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون * وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون * أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾[١] .

ومنهم من كان يصبو إلى الكواكب ويعبدها : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾[٢] .

وكانت عبادة كوكب الشعرى قد انتشرت فى بعض قبائل العرب بعد أن دعا أبو كبشة أحد أجداد الرسول عليه السلام من جهة أمه إلى الانسلاخ عن عبادة الأصنام وعبادة الكواكب ، فكان محمد — صلوات الله وسلامه عليه — ينهى قومه عن هذه العبادة ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾[٣] .

ومنهم من كان يصبو إلى الجن فيعبدهم ، ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد

---

(١) الزخرف ٢٠ — ٢٤ . (٢) فصلت ٣٧ — ٣٨ .

(٣) النجم ٤٩ .

ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾(١) .

ومنهم من كان يميل إلى اليهودية ومنهم من كان يميل إلى النصرانية ، ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنواء اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ، وكان رسول الله — ﷺ — يناقش كل هؤلاء الذين تباينت مذاهبهم ويلزمهم الحجة ويدعوهم إلى الله وحده ويتلو عليهم : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ * وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون * اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين *ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل * ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾(٢) .

٩

كانوا فى عجب من أمره ، إنه يقص عليهم نبأ نوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ويحدثهم عن عاد وثمود ، فإن كان النضر بن الحارث يزعم أن ما يرويه إن هو إلا أساطير الأولين كأحاديث

---

(١) الأنعام ١٠٠ — ١٠٣ .   (٢) الأنعام ١٠٤ — ١٠٨ .

رستم واسفنديار التى يقصها عليهم فقد كانوا فى حيرة من آيات قرآنه البينات . وراحوا يتساءلون من أين جاءت ابن عبد الله هذه الحكمة وقد مكث فيهم من قبل عمرا وما عرف عنه الانكباب على تحصيل المعارف أو مجاورة حلقات الدارسين للديانات والتاريخ ، وما كان فى مكة كلها من يعرف عن التاريخ أكثر من تلك القشبور التى يحصلها تجار قريش فى أثناء تجوالهم فى أرض فارس أو أرض الروم .

كان النضر بن الحارث ووالده الحارث بن كلدة طبيب قريش يتيهان على رجال عصرهما غرورا لأنهما قد عرفا أجزاء الحكمة وما كان ما يعرفانه يزيد على بعض أساطير فارس وعلومها . وكان أمية بن أبى الصلت يقرأ فى الكتب وكان يحسب أن اطلاعه على التوراة والإنجيل وديانات الأقدمين يؤهله للرسالة التى أرهصت بها البشارات قبل مبعث النبى الأمى الذى بشر به الأنبياء فلبس مسوح الرهبان ترصدا للنبوة المرتقبة ، فلو أن النضر قد زعم أنه رسول رب العالمين فما أيسر أن تدحض دعوته وأن يقال إنه تلقى فى بلاط الحيرة ما يقصه ، ولو أن الحارث بن كلدة قال إنه بشير ونذير لقيل إنه قد أتى إليهم بما التقطه من بلاط فارس ، ولو أن أمية بن أبى الصلت ادعى أنه يكلم من السماء لكذب بحجة أنه قد أخذ عن التوراة والإنجيل وتعلم من رهبان الصوامع الذين ينزل بهم ويخاطبهم الليالى والأيام ، أما محمد بن عبد الله فمن أين جاءه هذا العلم وهذه الحكمة ؟

كانوا في حيرة من أمره فهو يحاور عبدة الأصنام وعبدة الكواكب والنجوم وعبدة الملائكة وعبدة الجن ومنكرى الخالق ومنكرى البعث والحساب فيلزمهم جميعا الحجة الدامغة ، وكانت حجج الشعراء والذين يجادلونه من أصحاب الآراء داحضة أمام بيانه ، فمن أين لحليف الوحدة

ذلك البيان المبين ؟ واستمروا فى حيرة من أمره . ولو شاء الله لهم الهداية لجعلهم يلقون أسماعهم إلى قوله الكريم : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[1] . إلا أن الله ختم على قلوبهم فهم لا يفقهون .

آمنت بما جاءهم به من عند الله فئة قليلة مستضعفة ، بينا كان أشراف قومه يصدون الناس عنه فى الأسواق وهم يحسبون أنهم بذبهم القبائل عن الإصغاء إليه يخنقون دعوته فى مهدها ، وما دار بخلدهم أن حجاج البيت سيروون بعد عودتهم ما كان من أمر أبى القاسم وأهله وأن ذكره سينتشر فى القبائل .

وانتشر أمر رسول الله — ﷺ — فى الأوس والخزرج وراح الناس يتحدثون بما بين ابن عبد الله وقريش من اختلاف ، وبلغ أبا قيس بن الأسلت ما فعلت قريش برسول الله — ﷺ — وكان أبو قيس يحب قريشا وكان لهم صهرا ، كانت عنده أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى وكان يقيم عندهم السنين بامرأته ، فخشى أن تقع العداوة بين المؤمنين والكافرين وأن تنقلب مكة إلى مسرح للقتال كما هو الحال فى يثرب ، فبعث إلى قريش بقصيدة يعظم فيها الحرمة وينهى قريشا فيها عن الحرب ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله — ﷺ — ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل

(١) الشورى ٥٢ — ٥٣ .

وكيده فقال :

يا راكبا إمَّا عرضت فبلغَّن
مغلغلة عني لؤى بن غالب
رسول امرئ قد راعه ذات بينكم
على النأى محزون بذلك ناصب[١]
وقد كان عندى للهموم معرَّسٌ[٢]
فلم أقض منها حاجتى ومآربى
نبيتكم شرجين[٣] كل قبيلة
لها أزمل من بين مذك وحاطب
أعيذكم بالله من شر صُنعكم
وشرٍّ تباغيكم ودس العقارب
وأظهار أخلاق ونجوى سقيمة
كوخز الأشافى[٤] وقعها حق صائب
فذكرهم بالله أول وهلة
وإحلال أحرام الظباء الشواذب[٥]

(١) الناصب : المعيى التعب .

(٢) معرس : المكان ينزل فيه المسافرون فى آخر الليل يقعون فيه وقعة الاستراحة ثم يرحلون .

(٣) شرجين : نوعين . أزمل : الصوت المختلط .

(٤) الأشافى : جمع أشفى وهى التى يخرز بها .

(٥) الشواذب : الضامرة البطون .

متـى تبعثوهـا تبعثوهـا ذميمـة
هـى الغـول لـلأقصَين أو للأقـارب
تقطّـع أرحامـا وتهلكُ أمّـةً
وتبرى السديـف مـن سَنـام وغـارب
وتستبدلوهـا بالأتحميّـة بعدهـا
شليـلا وأصداء[1] ثيـاب المحارب
وبـالمسك والكافـور غيرا سوابغـا
كـأن قـتيريها[2] عيـون الجنـادب
فإيـاكم والحربَ لا تعلقنكـم
وحـوضا وخيم الماء مـرّ المشارب
تُزيّـن للأقـوام ثم يـرونها
بعاقبـة إذ بيـنت ، أم صاحب[3]
تحرق لا تُشوى ضعيفـا وتنتحـى
ذوى العز منكـم بالحتـوف الصوائب
ألم تعلموا ما كان فى حـرب داحس
فتعتبروا أو كان فى حـرب حـاطب
وكم قـد أصابت مـن شريـف مسوّد
طويـل العمـاد ضيفُـه غير خـائب

(١) الشليل : درع قصير .
(٢) القتير : حلق الدرع .
(٣) أى عجوز .

عظيم رماد النار يحمد أمره
وذى شيمة محض كريم المضارب

وماء هريق فى الضلال كأنما
أذاعت به ريح الصبا والجنائب

يخبركم عنها امرؤ حق عالم
بأيامها والعلم علم التجارب

فبيعوا الحراب للمحارب واذكروا
حسابكم والله خير محاسب

ولِىُّ امرئ فاختار دينا فلا يكن
عليكم رقيبا غير رب الثواقب

أقيموا لنا دينا حنيفا فأنتم
لنا غايةٌ قد يهتدى بالذوائب(١)

وأنتم لهذا الناس نورٌ وعصمة
تؤمّون ، والأحلام غير عوازب

وأنتم إذا ما حصّل الناس جوهرٌ
لكم سُرَّة البطحاء وشم الأرانب

تصونون أجسادا كراما عتيقةٌ
مهذبة الأنساب غيرَ أشائب

ترى طالب الحاجات نحو بيوتكم
عصائب هلكى تهتدى بعصائب

---

(١) الأعالى .

لقـد علـم الأقـوام أن سراتكـم
على كل حال خير أهل الجبـاجب[١]
وأفضلـه رأيـا وأعـلاه سنـة
وأقولـه للحـق وسط المواكب
فقومـوا فصلـوا ربكـم وتمسحـوا
بأركان هذا البيت بين الأخـاشب[٢]
فعنـدكم منـه بـلاء ومصدق
غـداة أبي يـكسوم هـادى الكتـائب
كتيبتـه بالسهـل تمسى ورَجْلـه
على القاذفـات[٣] فى رءوس المنـاقب
فلمـا أتـاكم نصر ذى العرش ردهـم
جنـود المليـك بين ساف وحـاصب
فولـوا سراعـا هـاربين ولم يـؤب
إلى أهلـه مِلْحـبش[٤] غير عصائب
فـإن يهلكـوا نَهلِك وتهلك مـواسم
يعـاش بها ، قـول امـرئ غير كاذب

وأطرق وجوه قريش يفكرون ، فأبو قيس بن الأسلت يحذرهم الحرب

---

(١) الجباجب : المنازل .

(٢)أراد الأخشبين وهما جبلا مكة ، فجمعهما مع ما حولهما .

(٣) القاذفات : أعالى الجبال . والمناقب : الطرق فى أعالى الجبال .

(٤) من الحبش .

ويخوفهم الفرقة التى وقعت بين الأوس والخزرج ويذكرهم بأيام داحس وحرب حاطب ، فداحس كان فرسا لقيس بن زهير أجراه مع فرس لحذيفة بن بدر يقال لها الغبراء ، فدس حذيفة قوما وأمرهم أن يضربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقا ، فجاء داحس سابقا فضربوا وجهه ، وجاءت الغبراء ، فلما جاء فارس داحس أخبر قيسا الخبر ، فوثب أخوه مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء ، فقام حمل بن بدر فلطم مالكا . ثم إن أبا الجنيدب العبسى لقى عوف بن حذيفة فقتله ، ثم لقى رجل من بنى فزارة مالكا فقتله ، فكانت حرب داحس بين الحيين .

وتذكروا حرب حاطب فقد قتل حاطب الأوسى يهوديا كان جارا للخزرج ، فخرج إليه ابن فَسْحم الخزرجي ليلا فى نفر من بنى الحارث بن الخزرج فقتلوه ، فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالا شديدا . وإن أبا قيس بن الأسلت يخوفهم أن تنقلب عداوتهم لسليل بنى هاشم إلى حروب فى الحرم الذى يأمن فيه الطير ، وقد كان لقصيدة من كان لهم صهرا وقع شديد فى نفوسهم جعلتهم يديرون قداح الرأى بينهم ويفكرون فى هدوء فى ابن عبد الله ودعوته .

وقام حكيم بن أمية بن حارثة السلمى حليف بنىأمية ، وقد أسلم ، يصرف قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله — ﷺ ، وكان فيهم شريفا مطاعا :

هل قائل قولا هو الحق قاعد
عليه وهل غضبانُ للرشد سامع
وهل سيد ترجو العشيرة نفعه
لأقصى الموالى والأقارب جامع

تبرأت إلا وجـه مـن يملك الصبـا
وأهجركم مـا دام مـدل ونـازع
وأسلـم وجهـى للإلـه ومنطقـى
ولـو راعنـى مـن الصديـق روائـع

وحركت قصيدة أبى قيس وقصيدة حكيم بن أمية جانب التعقل فى نفوس الكافرين ، فراحوا يفكرون فيما يتلوه عليهم الأمين ، فإذا بهم يستشعرون أن صليل القرآن فى أعماق نفوسهم له سحر مبين ، وحتى إن ابن خالته النضر بن الحارث ألد الخصوم وقال :

ـــ يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا ما رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر لقد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ؛ وقلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وراحوا يفكرون ، أينطلقون إلى محمد عليه السلام ويعلنون إسلامهم ويدخلون فى دين الله أفواجا فتصبح مكة منارة التوحيد ويعود إليها الوئام والسلام ؟ أيبعثون إليه ويستأنفون جداله حتى يزدادوا توثقا مما جاءهم به ؟ ولكن ما فائدة ذلك الجدال وما قام أحد منهم له ولا قعد فى مناقشة فحجته دامغة ، وما من حوار بينه وبينهم إلا كان النصر فيه حليفه .

وخشى المتكبرون والحاسدون أن تنقاد مكة لدين الله فتصبح كلمة أبى القاسم هى العليا فى أم القرى فقالوا :

— نبعث رسلنا إلى أحبار اليهود فى يثرب نسألهم عنه .

وأعجب ذلك الرأى المترددين فقرروا أن يبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بيثرب وقالوا لهما :

— اسألاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا .

وانطلق النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى يثرب وبعض آيات القرآن البينات ترن فى أغوارهما فتهزهما من الأعماق وتثير دهشتهما . وكان النضر أكبر الرجلين حيرة فهو يزعم أنه على علم وأنه أوتى الحكمة ، إلا أنه إذا ما فكر صادقا فيما جاء به كان يستشعر تضاؤلا . فشتان بين الأساطير التى يرويها وليس له فضل إنشائها وبين ذلك القول الحكيم الذى يتلوه أبو القاسم ، فمن أين جاء ابن خالته ذلك العلم الغزير وما اختلف إلى الرهبان والأحبار وما جلس إلى حكماء فارس وفلاسفة الإغريق ؟

وراح الرجلان يفكران فى سفارتهما وقد غابا فى نفسيهما عن الركب ، ولم يعودا يسمعان صوت الحادى الذى ارتفع ليحث الإبل على الإسراع بعد أن شم من فى القافلة عبير الواحة ، ورأوا فى الأفق البعيد أشباح النخيل .

أحسا أن سفارتهما أخطر سفارة خرجت من مكة ، طالما خرج منها سفراء إلى اليمن والحبشة وإلى الحيرة وفارس وإلى الشام والقسطنطينية وروما وإلى منف لخطب ود أقيالها ونجاشييها وملوكها وأكاسرتها وقياصرتها وأباطرتها وفراعينها طمعا فى توطيد أواصر الصداقة وعقد معاهدات

حسن الجوار لاستتباب الأمن والسلام لفتح الطرق أمام قوافل التجارة كسبا للأموال ؛ أما سفارتهما فهى بعيدة عن اللهو والتجارة ، إنها تتعلق بعقائدهم مصدر طمأنينة النفوس وراحة القلوب ، وما أهون الماديات إن كان الأمر يتعلق بالدين .

اختارت قريش رجلين من أشد الرجال عداوة لرسول الله ﷺ ، لا لضمان الحيدة فما كانوا فى حاجة إلى رسل محايدين . بل كانوا فى حاجة إلى رسل معاندين لكيلا يكون هناك ظل من شك فى ممالأتهما لأبى القاسم . ترى ماذا يكون موقف كفار قريش المتشددين فى اختيار سفيريهما لو جاء إليهم الرجلان بما لا تهوى أنفسهم ؟

وحطت القافلة فى يثرب فهرع شبابها وشيوخها المجان إلى سقيفة البغايا وكان يديرها يهود يثرب أهل العلم والكتاب الأول ، وانطلق النضر وعقبة إلى أحبار اليهود الذين أطلقوا لحاهم البيضاء وغطوا رءوسهم بعمائمهم السود وجلسوا للفتيا ليسألاهم عن محمد بن عبد الله وعما يعرفونه عنه إن كانت صفته قد جاءت فى التوراة ، ولو كانا يعلمان الغيب أو أراد الله لقومهم الهداية لخلفا صوامع الأحبار وراءهما ووليا وجهيهما شطر الحائط الذى يعمل به عبد من عباد الله الصالحين، عبد يتلهف على النور الذى سيغمر العالمين ، فقد كان سلمان الفارسى على بعد خطوات منهما يتنسم أخبار النبى العربى فى أرض هجرته .

كان سلمان قد خرج من أصفهان بحثا عن الحقيقة ، وجاب الأرض حتى نزل بعمورية من أرض الروم وفيها أرشد إلى أرض العرب مبعث النبى الأمى ، فشد الرحال ليكون فى منبع النور ، ولكن سوء طالعه أوقعه فى الأسر فبيع بضاعة واشتراه يهودى حمله إلى يثرب وصار من رقيق الأرض ،

وما كان يعيش إلا على أمل واحد أن يلقى رسول رب العالمين وأن يؤمن به ويصدقه وأن يتبعه كظله حتى يأخذ بيده إلى جنات النعيم ، فلو أن النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط جاءا إليه وسألاه عن بن عبد الله لخر ساجدا لله ولضمهما إلى صدره وهو يذرف الدموع ، ولحدثهما عن النبى الذى أنفق زهرة شبابه فى البحث عنه حديث صدق ، ولروى لهما حديث الأمل الذى يحيا من أجله . ولكنهما قصدا من عندهم قشور العلم ولب الغرور .

ودخلا على أحبار اليهود وقد لفتهما رهبة ما أحسا مثلها من قبل وقد دخلا على ملوك الأرض ، فقد أصبح دينهما وما عبد الآباء معلقا بكلمات تخرج من بين شفاه هؤلاء الأحبار . فلو قالوا إن محمد بن عبد الله رسول الله وأن الوحى ينزل عليه من السماء بآيات الله البينات فسيصبح النضر سخرية القوم بعد أن كان من المستهزئين بابن الخالة وقرآنه ، بينا سيستريح عقبة من ذلك التهديد الذى هدده به محمد عليه السلام يوم أن داس على عنقه لما وجده ساجدا فى الحرم ، فتوعده بالقتل إذا ما التقى به خارج مكة .

وقال النضر وهو يقلب بصره فى أهل الكتاب الأول :

ـــ أتينا لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم يقول قولا عظيما يزعم أنه رسول الله .

ـــ صفا لنا صفته .

فراح النضر وعقبة يصفان رسول الله عليه السلام ، ولو أراد الله لهما الرشد لجعلهما ينطقان نبوءة أشعيا : أثر سلطانه على كتفيه . ولأسهبا فى وصف خاتم نبوته ، ولكنهما وصفاه وصفا مجردا وقرآ بعض ما أنزل الله من

القرآن ، فقال حبر من الأحبار :

— فمن يتبعه منكم ؟

— سفلتنا .

فراح الأحبار ينظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا :

— سلوه عن ثلاث ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول .

— سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى ، فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى .

ورجع النضر وعقبة إلى قريش وقالا لهم :

— لقد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد .

وأخبراهم الخبر ، فجاءوا إلى النبى — ﷺ — فقالوا :

— يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ماهى .

فقال لهم رسول الله — ﷺ — :

— أخبركم بما سألتم غدا .

ولم يقل « إن شاء الله » ، فانصرفوا عنه ، وراح النبى عليه الصلاة والسلام يترقب الوحى والله لا يحدث إليه فى ذلك وحيا ، ومرت ليلة ثم ليلة ولم يخبرهم محمد عليه السلام بما سألوا ، فراح الناس يسخرون منه ويستهزئون بصحابته الذين صدقوه ، وراحت أم جميل زوجة عمه أبى

لهب تدور على البيوت وتقول :

ـــ أبطأ عليه شيطانه .

و لم تكتف بذلك بل انطلقت إلى دار النبى عليه الصلاة و السلام وقالت له فى سخرية :

ـــ قلاك ربك .

ورمقت خديجة بنظرات شماتة فشق ذلك على رسول الله ـــ ﷺ ، فقامت إليه خديجة تواسيه وتشجعه حتى نهض وخرج يتجول فى جبال مكة لعل الوحى يأتيه بما سألوه عنه .

وراحت الأيام تمر وسخرية الكافرين تزداد على الأيام . وأحزان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وصحبه مكث الوحى عنه وشق عليه ما يرجف به أهل مكة ، وفيما هو فى قمة حزنه جاءه جبريل فقال له الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا .

فقال له جبريل :

ـــ ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾[1] .

ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال :

ـــ ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا * فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلم أى

---

(١) مريم ٦٤ .

الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا * نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا * وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا * وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا * وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا * وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا * وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾(١) .

وانطلق رسول الله — ﷺ — إلى الحرم ونادى معاشر قريش وجاء صحبه ليلقوا أسماعهم إلى وحى الله وقد تهللت وجوههم بالبشر ، فلما اجتمع الناس راح عليه السلام يتلو ما أوحى إليه :

---

(١) الكهف ٩ — ٢١ .

ـــ ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا * ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا * إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا * ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا * قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا * واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾[١] .

﴿ ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا * إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا * فأتبع سببا * حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا * ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا * كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا * ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا * قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا * قال ما مكنى فيه ربى خيرا فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما * آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال

---

(١) الكهف ٢٢ ـــ ٢٧ ملتحدا : ملجأ .

آتونى أفرغ عليه قطرا * فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا * قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾(١) .

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾(٢) .

وماج بعضهم فى بعض ، قال ناس أخبرنا عما سألناه ، وقال آخرون إنه متقول لم يخبرنا عما سألناه ، لم يقل لنا ماهى الروح . وحال الحسد من وجوه قريش له بينهم وبين أتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمره ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم :

— ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

وراح أبو جهل يهزأ برسول الله — ﷺ — وما جاء به من الحق فقال :

— يا معشر قريش ، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فأنزل الله تعالى على رسوله فى ذلك من قوله : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا

---

(١) الكهف ٨٣ — ٩٨ زبر الحديد : قطع الحديد .

(٢) الإسراء ٨٥ .

هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر ﴾[1] .

وعادت العداوة بين الكافرين والمؤمنين أشد ضراوة مما كانت ، وقامت القبائل على من أسلم فيهم يعذبونهم ليفتنوهم عن دينهم .

١٠

خمس سنوات انقضت منذ نزل الوحى على رسول الله عليه السلام أول مرة فى غار حراء ولم تخمد عداوة وجوه قريش لأبى القاسم ومن دخل فى دين الله ، بل كان الاضطهاد يزداد على مر الأيام ، وكان النبى — صلوات الله وسلامه عليه — بين شر جارين : أبى لهب وعقبة بن أبى معيط ، فكان أبو لهب يطرح القذر على بابه . وذات يوم مر حمزة رضى الله تعالى عنه فرأى أبا لهب يطرح القذر كما اعتاد أن يفعل كل يوم ، فأخذه وطرحه على رأس أخيه ، فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول :

— صابئ .. أحمق .

وكان عقبة يشترك مع أبى لهب فى إيذاء الرسول عليه السلام ، كانا يأتيان بالفروث فيطرحانها على بابه ، وكان إذا خرج بصق عقبة احتقارا ، وما كان يكتفى بالبزق بل كان يسمعه ما يكره . وكان رسول الله يصبر على إيذائهما وما كان يحزنه إلا أن السنين مضت وهو لا يكل ولا يتعب من دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومع ذلك لم يدخل فى دين الله إلا قلة صابرة على العذاب تنتظر نصر الله واليسر بعد العسر .

---

(١) المدثر ٣١ .

وخرج رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يحف به صحابته فانطلقوا إلى الحرم ، فلما رآهم الأسود بن عبد يغوث ابن خال النبى قال مستهزئا :

ـ قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر .

كان صحابة الرسول متقشفين ثيابهم رثة وعيشهم خشن ، فكان المستهزئون يسخرون من رقة حالهم ، فراح العاص بن وائل يقول :

ـ غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث .

وتقدم الأسود بن عبد يغوث من ابن عمته وقال ساخرا :

ـ أما كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟!

وأراد نبيه ومنبه ابنا الحجاج أن يشتركا مع الكافرين فى سخريتهم فقالا لرسول الله ـ صلوات الله عليه :

ـ أما وجد الله من يبعثه غيرك ؟ إن ههنا من هو أسن منك وأيسر ، فإن كنت صادقا فأتنا بملك يشهد لك ويكون معك .

وراح الأسود بن عبد المطلب هو وأصحابه يتغامزون بالنبى ـ ﷺ ـ وأصحابه ويصفرون ، وسار الحكم بن العاص خلف أبى القاسم يخلج بفمه وأنفه يسخر بالنبى ـ ﷺ ـ فنزل الوحي على الرسول ، فالتفت عليه السلام إلى الحكم فقرأ :

ـ ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عُتلّ بعد ذلك زنيم * أن كان ذا مال وبنين ﴾[1] .

---

(١) القلم ١٠ ـ ١٤ .

فساد الصمت لحظات ، فقام رسول الله — ﷺ — يصلى وخلفه صحابته ، فلما سجد سجدوا . وكان سادات قريش قد ذهب عنهم الروع الذى نزل بهم لما سمعوا ما نزل فى الحكم فذهبوا إلى الساجدين ووقفوا على رءوسهم يصفقون ويصفرون ويسخرون، حتى إذا ما أتم عليه السلام الصلاة التفت إليهم وبان الغضب فى وجهه ، فإذا بهم ينسحبون إلى مجالسهم يستشعرون بالرعب فى أفئدتهم .

وجلس رسول الله ومن حوله أبو بكر وعلى وعثمان والزبير وبلال وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبو سلمة المخزومى وعامر بن ربيعة ومن أسلم من المستضعفين ، فراح يفقههم فى الدين ، وإذا برجل يقف على نادى قريش فيقول :

— يا معشر قريش ، من يعيننى على أبى الحكم بن هشام ؟

— وماذا فعل أبو الحكم بك ؟

فقال الإراشى :

— ابتاع منى جمالا فمطلنى بأثمانها .

والتفت بعضهم إلى بعض وكأنما فهم كل منهم ما يريدون ، فارتسمت على وجوههم ابتسامات ساخرة فقالوا له :

— أترى ذلك الرجل ؟ اذهب إليه فهو يعينك عليه .

وأشاروا إلى حيث جلس رسول الله — عليه الصلاة والسلام — استهزاء برسول الله ، لعلمهم بأنه لا قدرة له على أبى جهل ، فجاء إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا أبا عبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله وأنا غريب وابن سبيل . وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لى بحقى منه

فأشاروا إليك ، فخذ حقى منه يرحمك الله .

فخرج النبى مع الرجل إلى أبى جهل ، وأرسل المستهزئون رجلا ممن كان معهم خلف النبى — ﷺ — وقالوا له :

— انظر ماذا يصنع .

وراحوا يرقبون عودة الرجل ليضحكوا ملء الأشداق على ما سيفعله أبو جهل بابن عبد الله ، ومر الوقت وعاد إليهم الرجل فقالوا له :

— ماذا رأيت ؟

— رأيت عجبا من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه . فقال : أعط هذا حقه ، فقال : نعم ، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه .

وأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال وهو ينظر إلى حيث عاد رسول الله — ﷺ — إلى أصحابه :

— جزاه الله خيرا ! فقد والله أخذ لى بحقى .

وجاء أبو جهل فقالوا له :

— ويلك ! ما رأينا مثل ما صنعت .

— ويحكم ! والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبا .

قام رسول الله — ﷺ — فقام صحابته لينصرفوا إلى دورهم ، وفيما كان عامر بن ربيعة منطلقا فى طرقات مكة الضيقة إذا به يلمح شابا طويلا يعلو فوق رءوس كل الناس ، فخفق قلبه رهبة . إنه عمر بن الخطاب صاحب الشراب والنساء عدو المسلمين الجبار من يزهو بقوته وبطشه ، ولا جرم فقد صارع أبطال القبائل فى حلقات المصارعة فى أسواق مجنة

وعكاظ وذى المجاز فهزمهم جميعا .

كان عمر يبطش بعامر بن ربيعة وزوجته ليلى كلما وقع بصره عليهما ، فهو جارهما وما كان يطيق أن يسمع همهمتهما كلما قاما للصلاة أو راحا يتلوان القرآن ، فكان يصرخ فيهما أن يكفا عن رفع صوتهما قبل أن يكتم أنفاسهما . فكانا يخافتان بصلاتهما خوفا من قسوته ، فإذا وقعا فى يده بعد ذلك أنزل بهما العذاب ألوانا .

وما كان عامر وزوجته يحسان طمأنينة وأمنا إلا إذا خرج عمر فى تجارته ، وكانا يرجوان أن تطول غيبته حتى يستريحا من أذاه وحتى يرحم الله المسلمين من بطشه وقسوته ، فقد كانت فيه غلظة تكونت فى نفسه من قسوة أبيه عليه مذ كان يرعى له إبله .

وكان معتدا بنفسه حتى خيل إليه أنه قد وكل إليه أمر المحافظة على وحدة وطنه ، فكان حاقدا على النبى صلوات الله وسلامه عليه لأنه فرق الجماعة ، ولولا خشيته من ثورة بنى هاشم لو قُتل أبو القاسم ونشوب القتال بين أحياء قريش لما أحجم لحظة واحدة عن قتله . وقد دفعته تقته بقضيته أن يصم أذنيه عن سماع قرآن محمد ، فإن كان الوليد بن المغيرة وأبو الحكم بن هشام وعقبة بن أبى معيط وأمية وأبى ابنا خلف وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث والأخنس بن شريق وشيوخ قريش قد استمعوا إلى القرآن وقالوا رأيهم فيه ، فإن عمر قد سد كل المسالك الموصلة إلى عقله وقلبه فى وجه ما جاء به من فرق شمل قومه .

واتسل عامر بن ربيعة من جوار عمر وهو يرجو أن يمر بسلام ، ولكن عمر رآه فجذبه من كتفه وطفق يسخر منه ويؤذيه بلسانه ويده وعامر يحتمل أذاه فى ضيق . وما زاد فى ألم نفسه أنه أعجز من أن يردّ أذى ذلك

الجبار .

والتقى سفهاء بنى أمية بعثمان بن عفان وهو فى طريقه إلى داره فجعلوا يسخرون منه ويؤذونه ، والتف به الصبيان ينشدون بعض قصائد الهجو التى نظمها عمرو بن العاص وشعراء قريش الهازلين الساخرين بالرسول عليه السلام وصحبه ، فإذا بوجه عثمان الجميل ينتقع ويظهر فيه الأسى والحزن فيدفعهم فى صدورهم ليشق لنفسه طريقا بينهم ، فيستقبلونه بأقذع الشتائم والسباب والأذى . وسرعان ما خف شيوخ قريش إلى المكان لا ليفضوا عنه أسافلهم بل ليشاركوهم فى اضطهاده والنيل منه ومن أبى زوجه رقية ، من سفه أحلام الآباء وسخر من الآلهة على أعين الناس وقال : إن إلهكم لواحد .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ فى طريقه إلى داره وفى رفقته بلال وعمار وصهيب وخباب والمستضعفين من المؤمنين ، من كانوا يلوذون بالنبى عليه السلام ، ويمضون الليل والنهار معه فى دار خديجة الطاهرة سيدة نساء قريش ، وإذا بقرشى قوى شديد البأس بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدمه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه ، يعترض طريق رسول الله ـ ﷺ ـ ويقول له :

ـ يا محمد ، إن صرعتنى آمنت بك .

إنه يدعو النبى إلى المصارعة كأنما الدعوة قوة بدنية ، وراح المؤمنون ينظر بعضهم إلى بعض فى دهش ، ولكن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قبل التحدى فهو فارس لا يشق له غبار يجيد الرماية ، وقد دأب على تدريب الفتى على بن أبى طالب ليكون فارس الإسلام . وكان على الرغم من وداعته ومسالمته يحسن المصارعة ويحض شباب المسلمين على

ممارستها ، فهو يرى أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف .

وانطلق أبو القاسم والرجل إلى حيث يتصارعان، والتف الناس ينظرون، واحتبست أنفاس المؤمنين وطاف بهم طائف من خوف، وهجم الرسول ــ عليه السلام ــ على من غرته قوته فحمله فجلد به الأرض، وفى مثل لمح البصر صرعه النبى فتهللت أسارير المسلمين وانتظروا أن يقوم الرجل ليعلن على الملأ إيمانه، ولكنه قام يتحدى ويصر على أن يصارعه أبو القاسم مرة ثانية، وقبل الرسول ــ عليه السلام ــ ذلك التحدى وبدأت المصارعة فراح الرجل يدور حول محمد عليه السلام فى حذر، ولكن النبى انقض عليه انقضاض النسر وسرعان ما صرعه. وقام الرجل يتحدى مرة ثالثة فصرعه الرسول ــ عليه السلام ــ مرارا فقال له المسلمون:

ــ قل لا إله إلا الله .

فاستكبر وأعرض عنهم ثم انصرف يجر أذيال الهزيمة وهو أسيف ، فما دار بخلده أن يصرعه أبو القاسم الذى يبدو فى وداعة الحمامة !

واستمر كفار قريش يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، وكانوا يستعينون بيهود يثرب وبالمجوس من أهل فارس ، فلما حرم الإسلام أكل الميتة بعثوا إلى أوليائهم الفرس يسألونهم فى ذلك فكتبوا إليهم : (إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال وما ذبح الله فهو حرام) . فانطلق وجوه قريش إلى محمد عليه السلام وكان مع ناس من المسلمين فقالوا :

ــ يا محمد ، أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟

ــ الله قتلها .

ــ فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الكلب والصقر

حلال وما قتله الله حرام ؟

فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شىء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾(١) .

وانسل الحارث بن عثمان بن عبد مناف إلى حيث كان الرسول عليه السلام فقال له :

ــ إنا لنعلم أن الذى تقول حق ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾(٢) .

وكان النضر بن الحارث فى ضيق من ذلك القرآن الذى يدحض حججهم كلما جادلوا الرسول ، وفى عجب من الرعب الذى ينزل بقلب أبى الحكم بن هشام كلما هم بايذاء ابن عبد الله ، وفى دهشة من صبرهم ذلك الصبر المهين على من سخر منهم ومن آلهتهم ، وفيما هو فى تجواله رأى النبى ــ ﷺ ــ منفردا أسفل ثنية الحجون فقال :

ــ لا أجده أبدا أخلى منه الساعة فأغتاله .

ومشى النضر وقد وضع يده على مقبض سيفه ، إن هى إلا ضربة واحدة وينتهى ذلك الجدل الذى فصم وحدة الأمة ، ويقتل الخطر الذى يهدد كل سلطان إلا سلطان ابن أبى كبشة بالزوال . فدنا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ ليغتاله ، فإذا برعب شديد يهزه من الرأس إلى القدم ، وإذا به

---

(١) الأنعام ١٢١ .   (٢) القصص ٥٧ .

يستشعر كأنما سيموت من الخوف ، وإذا به ينكص على عقبيه مفزوعا ، حتى إذا ما أفرخ روعه لقى أبا جهل فراح يقص عليه أمر ذلك الذى اعتراه وما يدرى له سببا ، فقال أبو جهل :

ـ هذا بعض سحره .

وما كان فى الأمر سحر ، بل لقد أوقع الله الرعب فى أفئدة كل من وسوست لهم نفوسهم أن يقتلوا رسول الله عليه السلام، تحقيقا لوعد كتبه الله على نفسه لما أنزل : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾(١) .

١١

كان المسلمون فى كرب عظيم ، فكفار قريش لا ينفكون ينزلون بهم صنوف العذاب ، وما كان رسول الله عليه السلام بقادر على إنقاذهم مما هم فيه من البلاء المبين . وجاء إليه عثمان بن عفان وزوجه رقية يشكوان مما يقاسيان من الكافرين ، ويقرران أنهما قد ضاقا باضطهاد قومهما وأذاهم وبما يسكبون فى آذانهما من قذع السباب وفحش الأقوال ، فتغير وجه الرسول الكريم ، وراح يرنو إلى ابنته وزوجها فى إشفاق ورثاء وقلق . وسرعان ما جاء عامر بن ربيعة وزوجته ليلى يشكوان إلى نبيهما الكريم ما يلاقيان من اضطهاد ابن الخطاب وبطشه الشديد . وجاء أبو سلمة

---

(١) المائدة ٦٧ .

وزوجه أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة وفى أعينهما الدموع مما قاسيا من الكرب العظيم على أيدى بنى مخزوم . وتوافد المسلمون : أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى ، وسهيل بن وهب بن ربيعة ، وراحوا يقصون على الرسول ما نالهم من أذى على أيدى الكافرين ، والرسول عليه السلام يصغى إليهم وقد بان الألم فى وجهه ، وخديجة أم المؤمنين ترنو إليه تنتظر أن تتحرك شفتاه بما يخفف عن هؤلاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ما هم فيه من الكرب والبلاء .

وأطرق النبى عليه السلام هنيهة ، ثم رفع رأسه وقال :

— من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجب له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم خليل الله ونبيه محمد .

وصمت قليلا ثم قال :

— تفرقوا فى الأرض فإن الله تعالى سيجمعكم .

قالوا فى حيرة :

— إلى أين نذهب ؟

— اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

والتفتت خديجة إلى ابنتها رقية وهى تتجلد وإن كانت الدموع تبلل روحها ، إنها ضحت بأموالها وراحتها فى سبيل الله وإعلاء كلمته وهى على استعداد لأن تجود بكل شىء لكى تكون كلمة الله هى العليا ويشرق نوره على الوجود ، ففراق الأحبة يهون مرضاة لوجهه الكريم . وما أخف لوعة

بعاد فلذات الأكباد إذا ما قيست بلذة القرب من الحق المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت الواحد القهار ذى الجلال والإكرام .

وراح بصرها يتنقل بين رقية وعثمان لتتزود منهما بآخر النظرات قبل الرحيل ، كانت رقية ذات جمال بارع ، وكان عثمان حسن الصورة ، فإذا بما كان يتغنى به النساء يهمس فى وجدانها :

أحسن شيء قد يرى إنسان رقيـــة وبعدهـــا عثمان

فخفق قلبها رهبة : فماذا يستطيع عثمان والفئة القليلة من المؤمنين الذين معه أن يصنعوا فى أرض الغربة لو أدار حسن رقية البارع رءوس بعض الأحباش ؟! واستولى عليها خوف وهمس فى جوفها هامس أن تطلب من رسول الله عليه السلام أن يثنى رقية عن الهجرة ، ولكن متى كان الرسول يضن بنفسه أو بأولاده عن التضحية فى سبيل ربه وهو أول المعذبين وإمام المجاهدين ؟ وقد بلغ ما أنزل إليه من ربه فى شجاعة منقطعة النظير دون أن يفكر فى عواقبه وما قد يناله من أذى مبين .

قال لأبى لهب على الملأ : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾(١) وهو على يقين من أن ذلك القول سيدمر زواج ابنتيه الحبيبتين رقية وأم كلثوم . إنه صادق مع ربه ، صادق مع قومه ، صادق مع نفسه ، فلن يخطر له على قلب أن يضن بابنته ويدع بنات المسلمين يهاجرن ، ولن يقبل إلا أن تكون ابنته رقية أول المهاجرات إلى ربها فى الإسلام ، كما كانت سارة أول المهاجرات إلى ربها أيام إبراهيم الخليل .

ورأت خديجة أن تنطلق أم أيمن مع الخارجين لترعى رقية العزيزة ،

---

(١) المسد ١ .

فرحبت السيدة التى كانت تحب أهل البيت بالخروج ، فقد تعلمت فى مدرسة الرسول عليه السلام لذة الذل وحلاوة التضحية ونشوة ابتغاء الوسيلة إلى ربها ورجاء رحمته .

وساد كل من فى الدار وجوم ، كان على بن أبى طالب باسر الوجه وإن كان على ثقة من أن الله تعالى سيجمع المسلمين تارة أخرى ما دام ابن عمه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد قال ما قال . وكان زيد بن حارثة شارد اللب يتألم لألم رسول الله ، فهو عليه السلام إن كان يبدو ثابت الجنان إلا أن قلبه الكبير كان يفيض بالأحزان لاضطرار المسلمين لهجرة الأهل والخلان والأوطان .

وكان هند بن أبى هالة ابن الطاهرة سيدة نساء قريش مشتت العواطف ، فدموعه تريد أن تنهمر لفراق أخته رقية بينا كان يغالبها حتى لا يحرك أشجان أمه الوالهة ، وأحس رغبة عارمة فى أن يرتمى فى أحضان أبيه العظيم ليطفئ النار التى تتلظى فى جوفه ولكنه كبح عواطفه حتى لا تنفجر المشاعر المكبوتة التى ران عليها وجوم .

أما فاطمة الزهراء فلم تستطع أن تتحكم فى عواطفها فانسلت إلى غرفتها فألفت أم كلثوم تبكى فى صمت ، فسالت عبراتها ثم أجهشت بالبكاء .

وفى تلك اللحظات المفعمة بالأسى لم ينس عليه السلام سننه ، إنه يقول لصحابته على الدوام إذا خرج ثلاثة فليؤمروا أحدهم . وها هم أولاء صفوة المسلمين الأوائل يتأهبون لأول هجرة فى تاريخ الإسلام ، فليؤمر عليهم أميرا يرجعون إليه فى شئونهم ويكون قوله الفصل إذا ما تحزبت الأمور ، فأمر عليهم عثمان بن مظعون .

وراح المسلمون يتأهبون للفرار بدينهم إلى الحبشة خوفا من الفتنة ، و لم يفكر أبو بكر فى الخروج فهو يتحمل الأذى راضيا ما دام يسعد بلقاء صاحبه الذى ينزل عليه الوحى من السماء .

وانطلق عثمان بن عفان وعامر بن ربيعة وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة المخزومى والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وباقى الرجال الذين عقدوا العزم على الرحيل ليصفوا أعمالهم ، ويعطوا أصحاب الحقوق حقوقهم ، ويغسلوا ضمائرهم لتكون هجرتهم خالصة لوجه الله الكريم .

وراح النسوة يجمعن ما سيحمله المهاجرون معهم ، وإذا بهمس يسرى فى مكة بأن بعض أتباع محمد سيغادرون البلاد إلى الحبشة ، وبلغ الهمس مسامع عمر بن الخطاب فانطلق يوسع من خطوه إلى دار عامر بن ربيعة ، فرأى امرأته ليلى على باب الدار وقد تجهزت للرحيل تنتظر أوبة زوجها ، فإذا بغضبه يسكن وإذا برقة تلفه فيقول لها فى إشفاق :

ــ إلى أين يا أم عبد الله ؟

ــ قد آذيتمونا فى ديننا ، نذهب فى أرض الله حيث لا تؤذى .

فقال عمر وقد أطرق برأسه :

ــ صحبكم الله .

ثم ذهب وليلى ترمقه فى دهش ، فجاء زوجها عامر فأخبرته بما رأت من رقة عمر فقال :

ــ ترجين أن يسلم عمر ! والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب .

وودع رسول الله عثمان ورقية ، ووقفت خديجة ومن فى الدار ينظرون إليهما وهما يركبان بعيرهما وفى العيون دموع وفى القلوب لوعة وفى الصدور حنق على غلاظ الأكباد الذين اضطروا الأحبة إلى الخروج من

الديار فرارا من الاضطهاد ، وفى سكون الليل انطلق عثمان بن عفان ورقية بنت محمد عليه السلام إلى شاطئ البحر وهما يرجوان أن يصلا إلى مرسى سفن مكة بسلام .

ومن دور بنى مخزوم خرج أبو سلمة وزوجه وأخوه أبو سبرة فقد كانت أمهما برة بنت عبد المطلب عمة رسول الله عليه السلام ؛ وخرج من بنى عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة معه امرأته سهلة وحاطب بن عمرو ؛ ومن بنى أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام ؛ ومن بنى عبد الدار مصعب ابن عمير بن هاشم ؛ ومن بنى زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ؛ ومن بنى جمح عثمان بن مظعون ؛ ومن بنى الحارث بن فهر سهيل بن وهب ابن ربيعة .

كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ؛ خرجوا متسللين حتى انتهوا إلى الشعيبة مرسى سفن مكة منهم الراكب والماشى ، فألفوا سفينتين للتجار حملوهم فيها بنصف دينار . وأقلعت السفينتان وكان القمر بدرا فقد كان مخرجهم فى نصف رجب من السنة الخامسة من حين تنبأ رسول الله — ﷺ — ، وكان الهمس قد بلغ مسامع قريش فخرجوا فى آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوهم .

وذهب عمر بن الخطاب إلى حيث يجتمع برجال من قريش فلم يجد من جلسائه أحدا فقال : لو أنى جئت الخمار لعلى أجد عنده خمرا فأشرب منها .

فخرج إليه وهو يفكر فى قتل محمد لينقذ أهله منه . فلولاه ما رحل بنو قومه عن وطنهم ، ولولاه ما وقعت الفرقة بين الرجل وزوجه والأخ وأخيه والصاحب وصاحبته . حتى إذا بلغ الخمار لم يجده فقال : فلو أنى جئت

الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجاء المسجد فطاف به ولكن ثورته لم تهدأ ، فتوشح سيفه وذهب يريد رسول الله ورهطا من صحابته . وفيما هو فى طريقه لقيه نعيم بن عبد الله فقال له :

— أين تريد ؟

— أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله .

— والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ! ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

— وأى أهل بيتى ؟

— ختنك(١) وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وكان عندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة يقرئهما فيها ، فلما سمعوا حس عمر اختفى خباب فى مخدع لهم وأخفت فاطمة الصحيفة . ودنا عمر من البيت وقد سمع قراءة خباب فقال حين دخل :

— ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

قالت فاطمة :

— ما سمعت شيئا .

— بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .

---

(١) الختن : كل ما كان من قبل المرأة .

وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت فاطمة لتفكه عن زوجها فضربها فشجها . فلما رأت الدم قالت :

ــ يابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل ، فقد أسلمت .

فدخل عمر وجلس على السرير ، فنظر فإذا بالصحيفة فى ناحية من البيت فقال :

ــ ما هذا الكتاب ؟ أعطينيه .

ــ لا أعطيكه . لست من أهله .

فنظر إليها فى دهش فقالت فى ثبات :

ــ يا أخى إنك نجس على شركك ، فإنه لا يمسه إلا المطهرون .

فقام عمر واغتسل ثم قال :

ــ أعطينى الصحيفة .

ــ إنا نخشاك عليها .

ــ واللات والعزى لأردنها إذا قرأتها .

وطمعت فى إسلامه فدفعتها له ، فراح يقرأ بعينيه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فذعر ورمى بالصحيفة من يده ، ثم رجع لنفسه فأخذها فإذا فيها : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى ﴾[1] . فذعر ورمى بالصحيفة من يده ، ثم رجع لنفسه فأخذها وراح يقرأ : ﴿ الرحمن على العرش استوى * له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء

---

(١) طه ١ ــ ٤ .

الحسنى * وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما أتاها نودى يا موسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾[1] .

واغرورقت عينا عمر بالدموع وطافت به رقة ، وأحس كأن فؤاده قد أشرق بنور اليقين فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فخرج خباب من مخدعه يكبر ، وكبرت فاطمة ، وكبر سعيد بن زيد استبشارا بما سمعوا منه وحمدوا الله . وقال خباب :

— يابن الخطاب أبشر ، فإن رسول الله دعا فقال : « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبى الحكم عمرو بن هشام وعمر ابن الخطاب » .

والتفت عمر إليهم وقال :

— أخبرونى بمكان رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعرفوا منه الصدق فقالوا :

— هو فى بيت بأسفل الصفا .

ووصفوا له دار الأرقم فانطلق إليه ، فلما قرع الباب قال بلال :

— من هذا ؟

---

(١) طه ٤ — ١٦ .

— ابن الخطاب .

فما اجترأ أحد أن يفتح له الباب لما عرفوه من شدته على رسول الله ، وراح بلال يقول وهو فى فزع :

— يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا سيفه نعوذ بالله من شره .

فقال حمزة بن عبد المطلب :

— فأذن له فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله عليه السلام :

— ائذن له .

فأذن له بلال ، ونهض إليه رسول الله عليه السلام حتى لقيه فى صحن الدار فأخذ بحجزته وجذبه جذبة شديدة وقال :

— ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر فى رقة :

— يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

فكبر رسول الله — ﷺ — تكبيرة سمعها أهل المسجد ، فقد كان سروره عظيما لأن الله استجاب دعوته وأعز الإسلام بعمر بن الخطاب أحب الرجلين إليه .

وراح عمر يفكر فى أى أهل مكة أشد لرسول الله — ﷺ — عداوة حتى يأتيه فيخبره أنه قد أسلم ، فتذكر أبا جهل فانطلق إليه فدق عليه

الباب ، فقال :

ـــ من بالباب ؟

ـــ عمر بن الخطاب .

فخرج إليه فقال :

ـــ الرُّحبا وأهلا بابن أختى ، ما جاء بك ؟

ـــ جئت لأبشرك ببشارة .

ـــ وما هي يابن أختى ؟

ـــ إنى قد آمنت بالله ورسوله محمد ـــ ﷺ ـــ ، وصدقت ما جاء به .

فضرب الباب فى وجهه وقال :

ـــ قبحك الله وقبح ما جئت به .

وجاء رجل آخر من عظماء قريش وأعلم ابن الخطاب أنه صبأ فلم يصبه منه شيء ، فقال له رجل :

ـــ تحب أن يعلم إسلامك ؟

ـــ نعم .

ـــ إذا جلس الناس فى الحجر واجتمعوا فأت جميل بن معمر فقل له فيما بينك وبينه إنى قد صبوت .

كان جميل لا يكتم السر ، فلما اجتمعت قريش فى الحجر جاءه عمر فدنا منه وأخبره بإسلامه ، فرفع جميل صوته بأعلاه فقال :

ـــ ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

فما زال الناس يضربون عمر ويضربهم ، فقام خاله أبو جهل على الحجر فأشار بكمه وقال :

ـــ ألا إنى أجرت ابن أختى .

فانكشف الناس عنه ومرت الأيام وصار عمر يرى المسلمين يضربون وهو لا يضرب فحز ذلك فى نفسه وقال : ما هذابشىء حتى يصيبنى ما يصيب المسلمين .

فتريث حتى جلس الناس فى الحجر ووصل إلى خاله فقال له :

— جوارك عليك رد .

فقال أبو جهل :

— لا تفعل يابن أختى .

— بل هو ذاك .

فقام الناس إليه يضربونه ، ووثب عليه عتبة بن ربيعة فألقاه عمر إلى الأرض وبرك عليه وجعل يضربه وأدخل إصبعيه فى عينيه فجعل عتبة يصيح ، واستمر القوم يقاتلونه ويقاتلهم حتى أقبل العاص بن وائل عليه حلة حبرة وقميص موشى ووقف عليهم فقال :

— ويلكم ما شأنكم ؟

— صبأ عمر .

— فمه ! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب مسلمين لكم صاحبكم هكذا ؟ خلوا عن الرجل .

فانفرجوا عنه كأنه ثوب كشط عنه .

وضاق الكافرون بإسلامه وبصموده برد عدوان المعتدين فقرروا قتله ، فتدفقوا إلى داره يتصايحون ، فبينا هو فى داره خائفا إذ جاءه العاص ابن وائل فقال له :

— مالك ؟

— زعم قومك أنهم سيقتلونى .

— أمنت . لا سبيل إليك .

فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى فقال :

— أين تريدون ؟

— نريد هذا عمر بن الخطاب الذى صبأ .

— لا سبيل إليه فأنا له جار .

كان المسلمون لا يستطيعون أن يصلوا بالكعبة آمنين حتى أسلم عمر ، فقال لرسول الله — ﷺ — :

— يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

— بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم .

— ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف . والذى بعثك بالحق لنخرجن . والله لا يعبد الله سرا بعد اليوم .

وخرج المسلمون فى صفين : حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر ، فثار الغبار من الأرض لشدة وطء أقدام المسلمين ، وقد شهر عمر سيفه وراح ينادى :

— لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

حتى دخل المسجد ، ثم صاح مسمعا قريش :

— كل من تحرك منكم لأمكنن سيفى منه .

ثم تقدم أمام رسول الله — ﷺ — وهو يطوف والمسلمون ، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، وراح المسلمون يصلون مطمئنين . ثم رجع النبى عليه السلام ومن معه إلى دار الأرقم ، فنظر إلى عمر الذى فرق الله به بين الحق والباطل وقال فى رضا واستبشار :

— الفاروق .

١٢

كان هوى قريش مع الفرس فالبلاط الفارسى يفتح أبوابه للعرب ، وكانت الحيرة ملتقى شعراء العرب وأشرافهم ، ومن الحيرة كان أصحاب الأطماع يشدون الرحال إلى المدائن ، وقد نجح سادات الحرم فى عقد أواصر الصداقة مع الأكاسرة .

ولم تكتف بعض قبائل العرب بصداقة الفرس ، بل دخلت قبيلة تميم فى دينها وعبدت النار وقدمت الصلوات لأهورا مزدا إله النور ، وقد بعث كسرى مهندسيه لبناء بعض الحصون فى أرض العرب حماية للقبائل التى أظهرت له ولاء ومحبة .

وقد اتفق العرب والفرس فى الرمز إلى آلهتهم بأصنام وأوثان ، وكانت الآلهة فى الديانتين غالبا من المجموعة الشمسية فقد كنت آلهة الفرس الشمس والقمر والكواكب السيارة بعد أن طال على الناس العهد وفسد دين التوحيد الذى جاءهم به زرادشت ، وكانت آلهة العرب الشمس والكواكب والنجوم : فاللات الشمس وأم الآلهة ، والعزى كوكب الصباح وقد عبدت بعض القبائل كوكب الشعرى .

وكان العرب يعتقدون فى تعدد الآلهة مثلهم فى ذلك مثل الفرس ، وكانوا يجدون فى عبادة الدولة العظمى للأصنام دليلا على صحة معتقداتهم ، بل كانوا يرون تماثيل السيد المسيح والسيدة العذراء فى الدولة الرومانية والدول التى تدور فى فلكها فكانوا يزدادون يقينا فى صدق عبادتهم لآلهتهم ، فالدنيا بأسرها تسجد لأصنام الآلهة . فلما جاء محمد ـــ

ﷺ — ودعاهم إلى عبادة إله واحد قهار قالوا « أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ! وقاوموا دعوته واعتبروا التوحيد بدعة ينبغى مقاومتها .

وكان هوى النبى — ﷺ — مع الروم فهم أهل كتاب يؤمنون بالله ورسله وملائكته ، ويعترفون بالوحى وإرسال الله رسلا من البشر مبشرين ومنذرين يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق . وقد كان رسول الله عليه السلام وصحبه يتحاورون كثيرا فيما يجرى بين الروم والفرس من أحداث فكان المسلمون يستبشرون بنصر الروم ، وكان يشق على الكافرين أن ينزل بالفرس أية هزيمة أو تطوف بهم ضائقة أو ينتاب سلطانهم وهن أو ضعف ، فقد كان كل فريق منهما يرى صورة مستقبله فى واقع حياة الإمبراطورية التى يتحمس لها . فالمسلمون والكافرون كانوا يعتبرون ما بين الروم والفرس مرآة صادقة تتنبأ بما سيتمخض عنه الصراع الدائر فى مكة بين الإيمان والكفر ، بين القائلين أن لا إله إلا الله والقائلين بتعدد الأرباب .

* * *

كان كسرى الثانى يسير فى قصره العظيم إلى قاعة العرش لاستقبال سفراء الدول الأجنبية ، وكان القصر غارقا فى الصمت وإن كان به ثلاثة آلاف امرأة ، غير ألوف من الجوارى اتخذهن للخدمة والغناء . وثلاثة آلاف رجل يقومون بخدمته ، وثمانية آلاف وخمسمائة دابة لمركبه ، وسبعمائة وستين فيلا واثنى عشر ألف بغل لنقله . وكان كسرى قد وضع التاج فوق رأسه ، وهو تاج عال يتدلى منه رباطان من اللؤلؤ ، وفى قمته عمود عليه جناحا نسر يحمل هلالا فوق كرة الشمس .

وكانت ملابس الملك تتكون من ثوب ذى أكمام يتدلى إلى ما تحت الركبتين ، وسروال واسع ومشنى ، وكلاهما مرصعان بالجواهر . وأطراف الثوب وحمالة السيف وغمده وكذلك السروال مزينة بصفوف كثيرة من اللؤلؤ وقد زين الملك رقبته بعقود من اللؤلؤ ، وقد تهدل شعره من تحت التاج فى أربع ضفائر على صدره وكتفيه .

ودخل كسرى تحت طاق الديس أى التخت الذى يشبه القبة . وهو سرير من العاج والساج وصفائحه ودرابزيناته من الفضة والذهب ، وطوله مائة وثمانون ذراعا وعرضه مائة وثلاثون ذراعا وارتفاعه خمس عشرة ذراعا ، وفى مراقيه سرر من السيز والأبنوس مضببة بالذهب ، وعليه طاق من الذهب واللازورد .

وفى السقف الذى يشبه القبة وضع تمثال كسرى على عرش كأنه فى السماء وحوله الشمس والقمر والنجوم آلهة الفرس ، وقد جلس من حوله رسله وفى أيديهم الصوالجة ، وقد وضعت آلات لتنزل الماء رذاذا كأنه المطر وتأتى بصوت كأنه الرعد .

واتجه كسرى إلى عرشه فإذا برجال الدولة وكبار القواد يخرون له سجدا ، وما استوى الملك على إيوانه حتى فتحت الأبواب ليدخل سفراء الدول .

وعلم كسرى أن فوكاس قد قتل موريق إمبراطور الروم فاربد وجهه ، فالإمبراطور المقتول قد أعانه على استرداد عرش آبائه ، بعث إليه بثيادوس أخيه ومعه ستون ألف مقاتل . ولم يكتف بذلك بل زوجه مريم ابنته وحملها إليه ، فلولا معاونة موريق ما دخل المدائن ولما جلس على عرش فارس .

وجمع كسرى برويز (المظفر) مجلس حربه وراح يتشاور مع قائده شهر براز ، وما انتهى الاجتماع حتى كان كسرى قد أعلن الحرب على الدولة البيزنطية انتقاما للرجل الذى عاونه على استرداد ملكه وزوجه ابنته .

وخرج كسرى من قصر دستكرد ليلقى نظرة على جيوشه المتأهبة للخروج لغزو الروم ، وكان القصر يقع على الطريق الحربى الواسع الذى يذهب من المدائن إلى همدان ، فكسرى قد هجر المدائن لأن المنجمين والعافة نبئوه بأنها شؤم عليه .

كان كسرى ممتطيا جوادا وقد لبس لباس الحرب . فوضع فوق رأسه خوذة علاها التاج المجنح والكرة والهلال ، وكان عليه درع من حلق الحديد يصل حتى الخوذة ويخفى وجه الملك ويغطى فى مرونة جسده حتى الفخذين ، وظهرت من تحته الملابس الحريرية التى رسم عليها الهيوكامب (سمكة على شكل فرس) ، ومد بيمينه الحربة التى استندت إلى كتفه وأمسك فى يساره حلقة مستديرة ، وشد حزاما مزينا وجعبة مملوءة بالسهام ، وما إن وقف الملك أمام جيشه حتى أخرج الدرافس كاويان راية الفرس العظيمة التى كانوا يخرجونها للأمر العظيم .

وانطلقت هتافات الشعب لتبلغ عنان السماء ، وتقدم الجيش للقتال وهو يحيى كسرى العظيم . وما غاب الجيش عن العيون حتى عاد كسرى إلى القصر ليلعب الشطرنج مع ندمائه وكان من الياقوت الأحمر وقصب الزمرد ، وليمضى ليله فى أحضان النساء اللاتى بلغ عددهن ثلاثة آلاف امرأة من بلاده وبلاد الروم .

كانت الأنباء قد جاءت قبل أن يتحرك الجيش بأن هرقل طرد فوكاس

وأنه توج إمبراطورا على الدولة الرومانية ، فلم يعد هناك مبرر لانطلاق الجيوش الفارسية إلى الغرب بعد أن تم الانتقام لموريق. ولكن كسرى كان يريد حرب بيزنطة ، وما كان مقتل موريق إلا ذريعة لذلك ، فراح يؤكد أن هرقل اشترك فى دم صديقه وحليفه ، وأن جيوشه ستقوم بتأديب كل من اشترك فى المؤامرة التى أطاحت بموريق وانتهت بسفك دمه الغالى البرىء .

وتقدمت الجيوش الفارسية لتخوض معارك رهيبة مع جيوش الروم المرابطة فى الشام ؛ وبعد قتال مرير سقطت الرها وأنطاكية ودمشق ، وراحت جيوش كسرى المظفرة تتقدم إلى أرض فلسطين . وسرعان ما ضربت حصارا على بيت المقدس ، فأخذ أسقفها ومن كان فيها من القسيسين وسائر النصارى الصليب المقدس ، وكان قد وضع فى تابوت من ذهب ، وطمروه فى بستان وزرعوا فوقه مبقلة .

واشتد الكرب على سكان بيت المقدس، وزاد فى ضيقهم أن اغتنم يهود القدس الفرصة للانتقام من النصارى فأشعلوا النار فى الكنائس واغتالوا من استطاعوا قتلهم فى غفلة منهم ، ولم يكتفوا بذلك بل دلوا الفرس على عورات أعدائهم ، فما نسى اليهود ما نزل بهم من اضطهاد الروم وما حاق بهم من عذاب لما قال المنجمون إن دولة الروم ستزول على أيدى شعب مختون .

وتدفقت الجيوش الفارسية على القدس ، وهرع القائد إلى كنيسة القيامة لينتزع منها الصليب المقدس ولكنه لم يجده فجاء بأسقفها ومن كان فيها من القسيسين وراح يعذبهم عذابا رهيبا حتى دلوه على موضعه ، فاحتفر عنه بيده واستخرجه وبعث به إلى كسرى وهو يكاد يطير فرحا

فقد استولى على قدس أقداس المسيحيين .

وراحت جيوش فارس تتقدم إلى مصر وما لبثت أن حاصرت الإسكندرية .. فحاول البيزنطيون أن ينقذوا نفائس المملكة فجمعوا خزائنهم وذخائرهم فى سفن كثيرة ، فلما لججت فى البحر عصفت الرياح فسيرتها إلى صفوف الفرس حتى ظفر بها شهربراز وقبض عليها كلها وبعثها إلى المدائن ، فعجب منها كسرى وسر بها وسميت كنج بادآ ورد (فئ الريح) .

واستولى الفرس على مصر والإسكندرية وبلاد النوبة ، وبعث شهربراز إلى كسرى بمفاتيح مدينة الإسكندرية فهز الفرح كسرى فسمى نفسه : « الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل » .

وتقدم شهربراز ليغزو القسطنطينية فإذا بجيوش الروم تحاول أن تصده ولكنه انتصر عليها ، واستمر فى تقدمه حتى أناخ على ضفة الخليج القريب منها وخيم هنالك بعد أن خرب جنود فارس بلاد الروم وقتلوا مقاتليهم وسبوا ذراريهم وأموالهم ، وقد عجز شهربراز عن أن ينقل عسكره إلى الساحل الأوربى للبسفور فلم يكن يملك الوسائل ، فاستقر فى مكانه مكتفيا بتهديد بيزنطة .

وبلغت أنباء انتصارات الفرس مكة فشق ذلك على النبى — ﷺ — وأصحابه ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب الرسول عليه السلام فقالوا :

— إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا

لنظهرن عليكم .

وجاء أصحاب النبى — ﷺ — إلى رسول الله عليه السلام ، فراح يقرأ عليهم ما أنزل عليه من القرآن : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

فخرج أبو بكر إلى الكفار فقال :

— أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يقرن الله عليكم أعينكم ، فوالله ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا .

فقام إليه أبىّ بن خلف الجمحى فقال :

— كذبت يا أبا فضيل .

— أنت أكذب يا عدو الله .

— أنا حبك (أراهنك) عشر قلائص منى وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين .

وقبل أبو بكر الرهان ، قبل أن يدفع عشرة من الإبل إذا لم تغلب الروم والفرس فى ثلاث سنين ، وجاء أبو بكر إلى النبى — ﷺ — فأخبره بما كان بينه وبين أبىّ بن خلف ، فقال عليه السلام :

— ما هكذا ذكرت . إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده فى

(١) الروم : ١ — ٦ .

الخطر وماده فى الأحبل .

فخرج أبو بكر إلى مجلس قريش فلقى أبيا فقال :

ــ لعلك ندمت .

فقال أبو بكر :

ــ لا . تعال أزايدك فى الخطر وأمادك فى الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين .

فقال أبىّ بن خلف فى زهو :

ــ قد فعلت .

ترى أين يكون أبىّ بن خلف وأمية بن خلف وأبو جهل والمستهزئون بابن أبى قحافة يوم يأتى البشير بانتصار الروم على الفرس وتحقيق ما وعد الله به المؤمنين ؟!

١٣

كان النجاشي جالسا على عرشه يحكم بين الناس وكان راضى النفس مطمئن البال ، فقد كان له ولد أريب سيرث ملكه ذات يوم ويحكم بالعدل بين الناس بعد بذله كل جهد فى تأديب وريثه ليكون من أفضل حكام الأرض .

وفى جنبات القصر كان همس وتدبير وحوار ، قال قائل :

ــ لو أنا قتلنا الملك ، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وملكنا أخاه وإن له من صلبه اثنى عشر رجلا فتوارثوا ملكه من بعده ، بقيت الحبشة بعده دهرا .

واطمأن المتآمرون إلى ذلك المنطق الحائر ، كانوا يخشون أن يموت الملك و لم يكن له إلا ولد واحد يرثه ، فإن مات أو قتل قامت الثورات فى البلاد طمعا فى العرش بعد أن انقطع نسل أهل بيت مملكة الحبشة .

وغدا المتآمرون على الملك فقتلوه وملكوا أخاه فمكثوا على ذلك حينا ، ونشأ الفتى الأريب مع عمه وراح يشب لبيبا حازما من الرجال فغلب على أمر عمه ونزل منه منزلة . فلما رأى المتآمرون مكانه منه قالوا فيما بينهم :

— والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه وإنا لنتخوف أن يملكه علينا وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين ، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه .

فمشوا إلى عمه فقالوا :

— إما أن تقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإنا قد خفناه على أنفسنا .

— ويلكم ! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجه من بلادكم .

فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم فقذفه فى سفينة فانطلق به ، حتى إذا كان العشى من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج الملك يستمطر تحتها فأصابته صاعقة ، ففزع رجال القصر إلى ولده فإذا هو محمق ليس فى ولده خير .

وثارت القلاقل فى البلاد وساد القلق واختلط الأمر وكثر الطامعون فى العرش وأطلت الفتن بخطمها ، وراح عقلاء المملكة يتشاورون فقالوا :

— تعلمون والله أن ملككم الذى لا يقيم أمركم غيره للذى بعتم غدوة ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه الآن .

وانطلق الرسل فى طلبه وطلب الرجل الذى باعوه منه حتى أدركوه فأخذوه منه ثم جاءوا به ، وفى كنيسة يكسوم عقدوا عليه التاج وأجراس الكنائس تدق وقلوب الناس تخفق فرحا ، فقد عاد الرجل الحكيم ليجلس

على سرير ملكه ويقضى على القلاقل والفتن ويسود أرض الحبشة السلام .

وجاء التاجر الذى كانوا باعوه منه فقال للمتآمرين :

— إما أن تعطونى مالى وإما أن أكلمه فى ذلك .

وكان المتآمرون فى ضيق فقالوا :

— لا نعطيك شيئا .

— إذا والله أكلمه .

— فدونك وإياه .

فدخل عليه التاجر فسجد وقبل الأرض بين يديه ، فلما أمره أن يرفع رأسه قال :

— أيها الملك ، ابتعت غلاما من قوم بالسوق بستمائة درهم فأسلموا إلى غلامى وأخذوا دراهمى ، حتى إذا سرت بغلامى أدركونى فأخذوا غلامى ومنعونى دراهمى .

فنظر إليهم النجاشى وقال :

— لتُعطنَّه دراهمه أو ليضعنَّ غلامه يده فى يده فليذهبنَّ به حيث شاء .

ونظر بعضهم لبعض يتلاومون فهم يعرفون صلابته فى دينه وعدله فى حكمه وإنه لن يحجم عن أن يضع يده فى يد التاجر ليذهب به حيث يشاء ، فقالوا :

— بل نعطيه دراهمه .

وجاء إلى الحبشة أول المهاجرين إليها من المسلمين ودخلوا على النجاشى ، فقام عثمان بن مظعون يقص اضطهاد قومهم لهم لإيمانهم بعبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام مما دفعهم إلى الهجرة إليه ، فقد قال لهم نبيهم

عليه السلام :

— اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

فأكرم النجاشي وفادتهم وكان يستقبل كل من هاجر إليه بالترحاب ، وقد تقاطر المسلمون الذين فروا بدينهم إلى الحبشة حتى بلغوا ثلاثة وثلاثين رجلا كانوا فى خير جوار ، يؤدون شعائر دينهم فى أمن وسلام .

كانت رقية فى شوق إلى أبيها عليه السلام وإلى أمها الطاهرة سيدة نساء قريش ، وكان المسلمون جميعا يحنون إلى مكة ، فعشائرهم وإن جاروا أحب إليهم من هؤلاء الغرباء الذين يعيشون بينهم ، فالنجاشي رجل كريم على خلق ودين ، أما من فى القصر من سادات الأحباش فقد كانوا يمدون أعينهم إلى رقية مأخوذين بجمالها الباهر ، وكان ذلك يؤذيها ويجعلها تتلهف إلى العودة إلى أهلها .

وجاء من مكة أحد صحاب الرسول فاجتمع به المسلمون وألقوا إليه أسماعهم ، فراح يقص عليهم نبأ إسلام عمر وكيف أن الله أعز به الإسلام وكيف أنه قاتل الكافرين حتى تركوهم يصلون بالكعبة ظاهرين ويجهرون بقراءة القرآن ، وكيف أسماه رسول الله ﷺ « الفاروق » لأنه فرق بين الحق والباطل لما دخل على رأس المسلمين إلى الحرم شاهرا سيفه مهددا بقتل كل من تسول له نفسه الإساءة إلى المسلمين .

واستبشروا بإسلام عمر وعاودهم الحنين إلى الوطن الغالى فقالوا :

— عشائرنا أحب إلينا .

وخرجوا راجعين إلى مكة وقلوبهم تخفق بالأمل والرجاء قد هفت نفوسهم إلى مراتع الصبا ومدارج الشباب ومهوى الفؤاد ، إلى الأهل

والخلان والصحاب ، إلى أم القرى والحرم والصفا والمروة والحجون وأخشبى مكة وعرفة والمزدلفة ومنى وجبل ثبير وأسواق الحجاز .

واغرورقت العيون بالدموع ومارت الصدور بلوعة الهوى واحتلت الرءوس صور الأحبة ، فودوا لو أن المراكب تطير بأجنحة الشوق إلى الأرض المباركة ، إلى أول بيت وضع للناس ليسعدوا بالطواف به، ويشكروا رب البيت على أن شرح صدورهم للإيمان .

وتعلقت أفئدة العائدين جميعا ببيت نبيهم عليه الصلاة والسلام ، فقد كانوا يرون بأخيلتهم أنفسهم وهم يهرعون إليه ليقرئوه السلام ويعيرون سمعهم ليسمعوا فى استبشار ما أنزل الله عليه من محكم آياته فيرن فى ضمائرهم صدى صوته العميق الذى حرموا عذب ترجيعه ثلاثة أشهر ، ففاضت أفئدتهم رقة وبللت العبرات مآقيهم .

وراحت المراكب تدنو من مرفأ مكة فخفقت القلوب رهبة وطاف برءوس العائدين أطياف أبى جهل وأبىّ بن خلف وأخيه أمية وأبى سفيان ابن حرب والوليد بن المغيرة وشيبة وعتبة ابنى ربيعة والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط والأخنس بن شريق والعاص بن وائل وشياطين قريش ، فإذا بسؤال يتراقص على أطراف ألسنتهم : ترى كيف الحال الآن بين إخوانهم المسلمين وبين قريش ؟

كانوا يتلهفون على سلام بين من شرح الله صدورهم لأنوار اليقين وبين قومهم ، ولكنهم فى ذلك الوقت الذى كانوا يحلمون فيه بوئام بين إخوانهم وبين الكافرين كانت فاطمة الزهراء تمر بأبى جهل فيرميها الرجل بنظرة قاسية ثم يلطمها لطمة قوية يودعها كل بغضه لأبيها ، فتتألم فاطمة ألما شديدا وتريد أن تصرخ إلا أنها تغالب دموعها وما تقاسى من ألم حتى لا

تشفى غليل عدوهم الموتور . ورأت فاطمة أبا سفيان وكان حاكما فى قريش فشكت إليه ما فعل أبو جهل ، فإذا به يرجع بفاطمة إلى حيث يجلس أبو جهل ويقول لها :

— الطميه قبحه الله .

وتلطم فاطمة أبا جهل كما لطمها وتقتص لنفسها ، ثم تذهب إلى رسول الله — ﷺ — وتقص عليه ما كان فيقول عليه السلام :

— اللهم لا تنسها لأبى سفيان .

ورست المراكب عند السبيعية مرفأ مكة فنزلوا إلى أحب أرض الله إليهم ، وسرعان ما خروا ساجدين شكرا لله يبللون الثرى بدموعهم ، ثم أغذوا فى السير إلى الوادى المقدس حتى إذا كانوا دون مكة ساعة من نهار لقوا ركبا فسألوهم عن قريش فقالوا :

— ازدادت العداوة بين قريش والمسلمين ضراما .

فأتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة ولكن من ذا الذى يطاوعه قلبه على العودة وعلى بعد ساعة من نهار الأهل والخلان والأحباب ؟ لا ، لن تكون عودة قبل أن تطفأ نيران الأشواق المضطرمة بين الضلوع فقالوا :

— قد بلغنا مكة فندخل ننظر ما فيه قريش ، ويحدث عهدا من أراد بأهله ثم نرجع .

ودخلوا مستخفين يترقبون خشية أن يراهم الناس ، وانطلق كل منهم إلى الأحباب . ومشى عثمان ورقية والزبير وأم أيمن إلى دار الطاهرة سيدة نساء قريش ودقوا الباب ، فما إن فتح حتى ندت من بين شفتى الجارية التى فتحت صرخة فرح تجاوبت فى جنبات الدار بأجمل بشرى :

— مولاى عثمان .. ومولاتى رقية .. سيدى الزبير .. أم أيمن .

وراح كل من فى الدار يستبقون إلى الباب لاستقبال العائدين وبين الضلوع وجيب أفئدة واجفة مستبشرة زاد فى انفعالها وقع المفاجأة .

والتصقت الصدور بالصدور وامتزجت الدموع بالعبرات وتبادل الجميع أنبل القبلات وتدفقت من كنوز الأفئدة أرق المشاعر وأطيب الإحساسات .

وفى هجعة الليل كان النبى عليه السلام وخديجة أم المؤمنين وعلى بن أبى طالب وفاطمة الزهراء وزيد بن حارثة وأهل البيت يصغون فى اهتمام إلى ما كان بين المسلمين ونجاشى الحبشة من كريم الحفاوة وحسن الاستقبال .

وذهب عثمان بن مظعون إلى دار الوليد بن المغيرة ليجيره ، فأخذه الوليد من يده وانطلق به إلى الحرم فأعلن على الملأ أن عثمان بن مظعون فى جواره . ومرت الأيام والأذى ينزل بالمسلمين ، ولقى العائدون المشركين أشد ما عهدوا . ولما رأى عثمان بن مظعون ما يلحق بالمسلمين من أذى قال :

— والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقص كبير .

فمشى إلى الوليد فقال :

— يا أبا عبد شمس وفت ذمتك ، رددت إليك جوارك .

— يابن أخى لعله آذاك أحد قومى وأنت فى ذمتى فأكفيك ذلك .

— والله ما اعترض لى أحد ولا آذانى ، ولكن أرضى بجوار الله عز وجل وأريد ألا أستجير بغيره .

— انطلق إلى المسجد فاردد جوارى علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، قال الوليد :

— هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى .

— صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكن لا أستجير بغير الله عز وجل . قد رددت عليه جواره .

— أشهدكم أنى برىء من جواره إلا أن يشاء .

ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة بن مالك فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس عثمان معهم فقال لبيد :

— ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

فقال عثمان :

— صدقت ..

فقال لبيد :

— وكل نعيم لا محالة زائل .

فقال عثمان :

— كذبت ، نعيم الجنة لا يزول .

فقال لبيد فى حنق :

— يا معشر قريش ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟!

فقال رجل من القوم :

— إن هذا سفيه ، فمن سفاهته فارق ديننا فلا تجدن فى نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان ، فقام ذلك الرجل فلطم عينه والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :

— أما والله يابن أخى كانت عينك عما أصابها لغنية ، ولقد كنت فى ذمة منيعة فخرجت منها وكنت عن الذى لقيت غنيا .

— بل كنت إلى الذى لقيت فقيرا . والله إن عينى الصحيحة التى لم تلطم لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله عز وجل ، ولى فيمن هو أحب إلى منكم أسوة . وإنى لفى جوار من هو أعز منك .

١٤

اجتمع كفار قريش فى الكعبة وجوههم باسرة وعيونهم حائرة وألبابهم مشتتة وقلوبهم تنزف حقدا وغضبا ، فأمر ابن عبد الله يشتد وأتباعه يزيدون ولا ينقصون ، وينزل بهم أقصى ألوان العذاب فيتحملونه فى صبر عجيب ، وإن ذلك الصبر على الاضطهاد حتى الموت يفتن شباب مكة ويجعل أفئدتهم تهوى إلى ذلك الدين الذى تهون فى سبيله الروح .

أسلم حمزة ثم عمر بن الخطاب فقوى بهما المسلمون وأصبحوا يصلون فى الحرم جهارا على أعين الناس متحدين شعور السادة الذين يغص بهم البيت ولم يؤمنوا بذلك الدين ، بل راحوا يقرءون القرآن معلنين فى وجوه الأصنام التى تملأ جوف الكعبة ونصبت من حولها أن لا إله إلا الله وحده ، فكانت تنشب بين الفريقين مشادات لا تضع حدا لذلك التحدى السافر من قلة شقت عصا الطاعة وخرجت على الجماعة ، وعبدت ما لم يعبد آباؤهم الأولون .

وأطار عقول وجوه الكافرين أن بعض هؤلاء المسلمين تمكنوا من أن ينسلوا إلى الحبشة وأن ينزلوا بلدا أصابوا به أمنا ، فمن يدريهم أن يهاجروا مرة أخرى إلى قوم يؤمنون بما جاء به محمد فيشتد بهم ساعد المسلمين فيصبحون خطرا يهدد الحرم ويقوض قداسة مكة ، فتذهب ريحهم التى

استقرت فى الوادى المقدس مذ أقام أبوهم إبراهيم قواعد أول بيت وضع للناس وجعله الله لهم مثابة وأمنا ؟

كانوا يرتجفون فرقا كلما خطر على قلوبهم زوال مجد البيت يوما ، ولو أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد قرأ عليهم : ﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾[1] . فذلك لم ينزل السكينة على قلوبهم . فقد استقر فى وجدانهم أن البيت وما فيه من أصنام شىء واحد لا يمكن الفصل بينهما ، فما كانوا قادرين على أن يتصوروا بيتا مقدسا قد خلا من الآلهة .

وراح رءوس الكفر يتشاورون فرأوا أن هناك حلا واحدا لا بديل له لإخماد هذه الفتنة ، أن يقتل محمد . وجاء الرأى من النضر بن الحارث وأيده عقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام وأعداء محمد عليه السلام جميعا . ولكن من ذا الذى يقتله ليصبح هدفا لسهام بنى هاشم وبنى المطلب وسيوفهم ؟ فلو أن رجلا أقدم على قتله فلن يمشى فى الأرض بعدها ساعة من نهار ، سينقض عليه رجال بنى هاشم وبنى المطلب من آمن منهم بمحمد ومن لم يصدقه . فلم يعد الأمر مسألة رجل أفسد عليهم أبناءهم ونساءهم ، بل أصبح ثأرا يحمل الهاشميون والمطلبيون عاره حتى يسفكوا دم قاتله .

ورأوا أن يمشوا إلى قومه يحدثونهم فى أمره ، فانطلقوا إلى بنى هاشم ومعهم أبو لهب عمه . وفيما هم فى طريقهم لقى أبو لهب هند بنت عتبة

---

(١) قريش ١ — ٤ .

فقال :

— يا بنت عتبة ، هلا نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟

فقالت هند مشجعة أبا لهب على المضى فى عداوة ابن أخيه ، لا نصرا للات والعزى بل لتقضى على محمد عليه السلام ؛ ليخلو لزوجها أبى سفيان زعامة قومه :

— نعم ، فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة .

وانطلق الرجل الأحمق مع كفار قومه حتى أتوا بنى هاشم وبنى المطلب فقالوا :

— خذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحون أنفسكم .

فثار الهاشميون والمطلبيون على ذلك العرض المهين ، وكان أبو طالب أكثرهم ثورة فهو وإن كان لم يؤمن بما جاء به ابن أخيه لأنه يعتقد أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا إلا أن أبناءه قد دخلوا فى دين ابن عمهم وآزروه ونصروه ، ولم يحاول أبو طالب أن يثنى أبناءه عن الإيمان والتصديق فقد دعاهم محمد الحبيب إلى خير ، دعاهم إلى مكارم الأخلاق والخلق العظيم .

وعاد كفار قريش إلى مجالسهم يتشاورون وفيهم أبو لهب قد فارق قومه وظاهر عليهم قريشا . وانتشر فى بيوت مكة ما كان بين سادات قريش وبين بنى هاشم وبنى المطلب فانقسم الناس فى الدور بين مؤيدين لرفض بنى هاشم وبنى المطلب تسليم محمد عليه السلام ومعارضين لذلك الرفض الذى سيوسع شقة الخلاف فى مكة ، فلم يعد الأمر أمر محمد وفئة قليلة

مستضعفة آمنت به ، بل صارت المنابذة بين بنى هاشم وبنى المطلب أجمعين وبين أعداء الرسول عليه السلام من أمويين ومخزوميين وجمحيين وتيميين وبيوت شرف قريش العشرة ومن دار فى فلكهم .

وبلغ خديجة أم المؤمنين ما أجمع عليه كفار قريش من قتل زوجها الحبيب فنز قلبها أسى ، وهى تعجب من قوم يفكرون فى سفك دم من جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور . و لم تجزع فقد كانت على يقين من أن نور الإسلام سينتشر ويغمر العالمين مذ رأت رؤياها الصادقة قبل أن تتزوج الرسول الكريم ، يوم رأت الشمس تهبط لتستقر فى سقف دارها وترسل ضياءها إلى الكون كله ، فهى منذ تلك الرؤيا لم يخالجها أدنى شك أن النصر للمؤمنين وأن كل ما ينزل بهم من أذى إن هو إلا شحذ لهمم المسلمين .

وطافت بها سحابة من حزن لما فكرت فى ابن أخيها حكيم بن حزام فهى تحب له الرشد والصراط المستقيم ، ولكنه تنكب الطريق وسلك سبل الضلال على الرغم من معدنه النفيس ، وقد شجعه على السير فى الظلمات أنه صاحب دار الندوة وأنه مرموق فى قومه غرته العاجلة ففضلها على الآجلة وما أعد للمتقين .

لم يشترك حكيم بن حزام فى إيذاء المسلمين إكراما لعمته الطاهرة وسيدة نساء قريش ، ولكنه ما كان يعارض قراراتهم الظالمة خشية أن يقال إنه صبأ واتبع ما جاء به زوج عمته الأمين . وكان يتألم أحيانا لذلك الظلم الذى ينزل بالمستضعفين ولكنه كان يكتم ما فى نفسه لكيلا يغضب شيوخ دار الندوة .

وعاد كفار قريش يتحاورون وقد أهمهم قيام بنى هاشم دون الرسول ﷺ ، وإن لم يكونوا جميعا على دينه، فاقترح النضر بن الحارث منابذة

بنى هاشم وبنى المطلب وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب والتضييق عليهم بمنع حضور الأسواق ، وأن لا يناكحوهم ، وأن لا يقبلوا لهم صلحا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — للقتل ، وارتفعت الأصوات مؤيدة مرددة ما قاله النضر كأنما قد وضع كلامه فى أفواههم :

— لا تناكحوهم ولا تنكحوا إليهم .

— ولا تبيعوهم شيئا ولا تبتاعوا منهم شيئا .

— ولا تقبلوا منهم صلحا .

كانوا مجتمعين فى خيف بنى كنانة بالأبطح بأعلى مكة عند المقابر ، وقد اتفقوا على أن يكتبوا بذلك صحيفة ويعلقوها فى الكعبة توكيدا على أنفسهم وأنهم قد قطعوا أواصر بنى هاشم وبنى المطلب بعد المودة والقربى ، فانطلقوا إلى دار خالة أبى جهل وراح النضر بن الحارث يكتب الصحيفة الظالمة .

كانت عداوة النضر لابن خالته مريرة يؤججها نار الحسد التى ترعى بين ضلوعه ، فكيف يؤتى محمد عليه السلام الحكمة وما جلس إلى الحكماء وهو الذى طاف بالأرض لم يعد إلا بأجزاء الحكمة ! إنه يستجلب حربا عوانا على كل من آمن برسول الله عليه الصلاة والسلام أو قام لنصرته ولن يهدأ له بال حتى يرى ابن خالته مسفوك الدماء .

وذهب الذين اتبعوا أمر الوشاة إلى الكعبة وعلقوا الصحيفة فيها ، فرأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على قومه ، فجمع بنى هاشم والمطلب مؤمنهم وكافرهم وأمرهم أن يدخلوا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — الشعب ويمنعوه ، فانطلقوا جميعا إلى الشعب ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيهم ،

وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ، فقال أبو طالب فى قصيدته التى عاتب فيها من استمعوا إلى الوشاة ، ومن انخذلوا عنه :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا

عقد به شرعا عاجلا غير آجل

وكان دخول النبى عليه السلام والذين معه الشعب هلال المحرم سنة سبع من النبوة ، فضرب كفار قريش حول شعب أبى طالب نطاقا من الحراس يمنعون من فيه من الخروج كما يمنعون الناس من الدخول أو الاتصال بمن قبلوا الدخول لحماية رسول الله عليه السلام تطوعا . ومرت الأيام ودار الحول فانقضت سنة وبنو هاشم والمطلب فى ضيق ، فقد نفد ما كان عندهم وخوت بطونهم وزاغت عيونهم وتفككت أوصالهم وأنت نساؤهم وبكى صغارهم وراحوا يصرخون يطلبون الطعام ، فكانت دموع النساء تنهمر وأكباد الرجال تتفتت .

وجاءت الأشهر الحرم وقامت الأسواق ، فاستطاع بعض المسلمين الفرار من الحراس وورود السوق ، وقد عرفهم أبو لهب ، فكان إذا ذهب أحدهم ليشترى شيئا من الطعام يقتاته يقوم أبو لهب فيقول :

— يا معشر التجار غالوا محمدا وأصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئا معكم فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى .

فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع الرجل إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يده شىء يعللهم به .

وراح الجوع يطارد بنى هاشم والمطلب ، مؤمنهم وكافرهم ، ولكن لم ينل ذلك منهم بل ازدادوا إصرارا على مناصرة محمد عليه السلام ! وعدم تسليمه لأعدائه ، وراحوا يربطون حجارة يشدونها على بطونهم تخفيفا

لآلام الجوع ، وانقضت سنة ثانية أكلوا فيها أوراق الشجر وقد استبد بهم الجوع وأضناهم وعذبهم وأضعف أبدانهم وغير ألوانهم . وقد زاد فى أسى رسول الله — ﷺ — أن العيون جميعا تعلقت به كأنما تسأله أن يدعو ربه أن يرحمهم مما هم فيه من ضنى وعذاب .

كان هشام بن عمرو بن ربيعة ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف ، وكان هشام لبنى هاشم واصلا ، وكان ذا شرف فى قومه فأتى ببعير ليلا وقد أوقره طعاما ، حتى إذا أقبله فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فدخل الشعب يعدو نحو الذين نال منهم الجوع حتى استلقوا على الأرض من شدة الجهد .

وهمس الريح فى آذان القوم بصوت كصوت البعير ففتح الجائعون أعينهم الواهنة ، فإذا بهم يلمحون فى الظلام بعيرا محملا بأحمال قادما نحوهم فانجفلوا جميعا إليه حتى بلغوه ، فساقوه مستبشرين إلى رسول الله عليه السلام ، فأناخه فألفاه محملا بطعام طيب ، فراح النبى يعطى كلا طعامه فأكلوا وشبعوا وتيقنوا من أن فى قريش أناسا يعطفون عليهم ويرجون لهم النجاة ، فاستراحت نفوسهم وقرت أعينهم .

وعاد الجوع ليجمع فلوله ويستعد لشن هجوم آخر أقسى وأوجع ، ولكن رجالا من قريش كانوا يرون أن قرارهم الذى اتخذوه قرار جائر وأنهم ظلموا أرحامهم فكانوا يبعثون إلى المحصورين بالطعام فى غفلة من الحراس ، وذات يوم لقى أبو جهل حكيم بن حزام معه غلاما يحمل قمحا يريد به عمته خديجة أم المؤمنين ، فتعلق به وقال :

— أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

فجاءه أبو البخترى بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال :

— مالك وله ؟

فقال أبو جهل فى غضب :

— يحمل الطعام إلى بنى هاشم .

فقال له أبو البخترى :

— طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ! خل سبيل الرجل .

فأبى أبو جهل فقامت مشادة بينه وبين حكيم عند مداخل الشعب ، فنال أحدهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البخترى لحى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئا شديدا ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — وأصحابه فيشمتوا بهم ، وقد كان الخلاف بين أبى جهل وبين حكيم بن حزام وأبى البخترى إيذانا بتمزق كلمة وجوه الكافرين .

ودارت عجلة الزمن وجاءت الأشهر الحرم التى يأمن فيها الناس والطير ، وأقبل الحجيج إلى مكة من كل فج عميق ليطوفوا بالكعبة ، فخرج النبى — ﷺ — من الشعب يعرض نفسه على القبائل ويقول :

— إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين ما بعثنى به .

وظهر خلفه عمه أبو لهب أحول له غديرتان عليه حلة عدنية فقال :

— إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له .

وانفض الناس من حوله فسار مطرق الرأس وفى قلبه أسى وفى فمه مرارة ، وخرج بنو هاشم والمطلب إلى السوق وحاولوا أن يبتاعوا طعاما للأيام العجاف ولكنهم لم يجدوا من يبيعهم شيئا . وانقضت الأشهر الحرم وعاد الهاشميون والمطلبيون إلى الشعب واستؤنف الحصار ورجعت أيام الشدة والضيق ، وطفق النبى ينظر إلى فاطمة الزهراء وإلى على بن أبى طالب وإلى زيد بن حارثة وإلى هند بن أبى هالة وإلى أم أيمن وإلى شيوخ بنى هاشم وبنى المطلب وهم يتضورون جوعا فيستشعر نياط قلبه تتمزق ، وحزنا ثقيلا ينزل بفؤاده ، فكل هؤلاء الشيوخ والرجال والنساء والصبيان من كان منهم على دينه ومن لم يؤمن برسالته يتحملون العذاب بسبب دعوته ، وهو لا يستطيع أن يفعل إلا أن يمتثل لأمر ربه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وذات يوم نظر العباس بن عبد المطلب إلى زوجه أم الفضل وهى تتلوى من الألم فاربد وجهه وانتقع لونه ، كانت تضع ابنها فى خيمة من خيام المحصورين فى شعب أبى طالب وهو الرجل الغنى الذى ينهض بسقاية الحجيج ورفادتهم وتجوب قوافله التجارية اليمن وغزة وبصرى ويغص داره بالطرف الغالية وفاخر الرياش والسرر المجلوبة من فارس والشام ومصر . ولم يطل شروده فقد هرع إلى حيث كان أخوه أبو طالب ، فإذا برسول الله ﷺ عنده فاستبشر فقال :

— إن أم الفضل تضع ما فى بطنها .

فهرعت فاطمة بنت أسد وخديجة أم المؤمنين وأم عمارة زوج حمزة بن عبد المطلب إلى حيث كانت أم الفضل ،وجلسن لاستقبال الوليد ، وجاء رسول الله — ﷺ — إلى خيمة امرأة عمه التى كانت ثانى امرأة آمنت

برسالته بعد الطاهرة لينتظر مع عمه العباس ما تضع السيدة البارة الفاضلة .

وارتفع صراخ الوليد فى بطن جبل من جبال شعب أبى طالب ، فمسح عويله ما كان العباس يستشعر من أسى ، وراح ينظر فى قلق ولهفة ناحية مدخل الخيمة فإذا بجارية تطل منها وتعلن المترقبين أن أم الفضل قد جاءت بولد ، ومر بعض الوقت ثم أذن للعباس ولرسول الله عليه السلام بالدخول ، فلما تقدما من أم الفضل أشرق وجه العباس بابتسامة راضية وتألق فى عينى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بريق سرور ، ورفعت النسوة المولود إلى العباس فتناوله على كفيه وقد تحرك حنانه فمال عليه وقبله ثم ناوله لابن أخيه ، فضمه محمد عليه السلام إلى صدره فى عطف سابغ ثم راح يلثمه ويدعو له ، وكل من فى الخيمة يرنو إليه وقد تحركت فى الصدور أنبل العواطف وأرق الإحساسات .

ومشى رسول الله — ﷺ — بالمولود هونا ثم وضعه إلى جوار أمه ، فالتفتت إلى النبى وقالت فى إيمان عميق :

— سمه يا رسول الله .

ولم تظهر الدهشة فى وجه العباس ، كان على علم بأن زوجه على دين ابن أخيه وكانت كل عواطفه مع ذلك الدين ، وما أحر الحوار الذى كان ينشب بينه وبين نديمه أبى سفيان بن حرب حول ما جاء به ابن أخيه ، فقد كان يدافع عن الأمين ويحاول أن يكسر على شاطئ لباقته وحسن منطقه موجات الغضب الهادرة التى تحركها قريش بين الحين والحين ، آمن قلب العباس وإن لم يتحرك بالشهادة لسانه .

وتعلقت أعين خديجة وفاطمة بنت أسد وأم الفضل والعباس بالرسول

الكريم ، فلما تحركت شفتاه عليه السلام باسم الوليد وقال :

ـــ عبد الله .

طاف بخديجة طائف من حزن ، تذكرت ابنها الذى ذهب ولما يتم رضاعه مخلفا اللوعة والحسرة والأسى ، وسرعان ما أفاقت من إطراقها وطردت ما همز الشيطان فى وجدانها فابتسمت أم المؤمنين وحاضنة الإسلام ابتسامة مشرقة من قلب سليم .

وذاع فى قريش أن عبد الله بن عباس قد ولد فى شعب أبى طالب ، ففرح أناس لذلك الهوان الذى نزل بالعباس صاحب السقاية والرفادة والصيت العريض ، وشق ذلك على من كان هواهم مع بنى هاشم والمطلب فأطرقوا يفكرون فى الظلم الذى نزل بأحفاد هاشم العظيم ؛ وعبد المطلب بذل نفسه لخير قريش والحرم .

ومشى أبو طالب إلى ابن أخيه وقد هده الجوع وتغير لونه ، فلما رآه النبى ـــ ﷺ ـــ أحس رثاء لحاله وشفقة تملأ جوانحه ، وقبل أن تتحرك شفتا شيخ بنى هاشم بكلمة قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ يا عم ، إن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة فلم تدع فيها إلا اسما هو « الله » ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان .

فقال أبو طالب وهو يرنو إليه بعينين واهنتين :

ـــ أربك أخبرك بهذا ؟

ـــ نعم .

وراح أبو طالب وبعض شيوخ بنى هاشم يتأهبون للانطلاق إلى قريش . وفى ذلك الوقت كان هشام بن عمرو بن ربيعة يمشى إلى زهير بن أمية بن المغيرة المخزومى وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال :

— يا زهير وقد رضيت أنا نأكل الطعام ونلبس الثياب وننكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ، ألا إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام (أبو جهل) ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا .

— ويحك يا هشام فما أصنع ؟ أنا رجل واحد . والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها .

— قد وجدت رجلا .

— من هو ؟

— أنا .

— ابغنا ثالثا .

فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له :

— يا مطعم ، أوَ قد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك ؟ موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا .

— ويحك فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد .

— قد وجدت ثانيا .

— من هو ؟

— أنا .

— ابغنا ثالثا .

— لقد فعلت .

— من هو ؟

— زهير .

ـــ ابغنا رابعا .

فذهب إلى أبي البخترى بن هشام فقال له نحوا مما قال لمطعم فقال :

ـــ وهل من أحد يعين على هذا ؟

ـــ نعم .

ـــ فمن هو ؟

ـــ زهير والمطعم وأنا معك .

ـــ ابغنا خامسا .

فذهب إلى أبي زمعة بن الأسود فاتعدوا خطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها .

وانطلق أبو طالب وبعض رجال بنى هاشم إلى الحرم ليخبر قريش عما أنبأه رسول الله ، فإذا بزهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال :

ـــ يأهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يتاعون ولا يتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

فقال أبو جهل وكان فى ناحية المسجد وقد جلس إليه أبو طالب وبعض رجال بنى هاشم :

ـــ كذبت ، والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود :

ـــ أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

وقال أبو البخترى :

ـــ صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقره .

قال المطعم :

— صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها وما كتب فيها .

فقال أبو جهل :

— هذا أمر قضى بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان .

ورأى أبو طالب أن يحسم الأمر فقال :

— إن ابن أخى قد أخبرنى — و لم يكذبنى قط — أن الله سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم وبقى فيها ما ذكر به الله ، فإن كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم وإن كان كاذبا دفعته إليكم قتلتموه أو استحييتموه .

— قد أنصفتنا .

وانطلق النضر بن الحارث مستبشرا ليأتى بالصحيفة ، فقد حانت ساعة أن يدفع بنو هاشم والمطلب إليهم من يمتلئ قلبه بالحقد عليه ليقتلوه ولن يستحيوه أبدا ، وعاد بها وهو متفرح فقد كان على يقين أن ما يزعم ابن عبد الله إن هو إلا وهم من أوهامه .

وامتدت العيون إلى الصحيفة واشرأبت الأعناق وفتحت فى حرص شديد ، فإذا بالأرضة قد لحست ما كان فيها من جور وظلم و لم يبق فيها إلا اسم الله ، فسقط فى أيديهم ونكسوا على رءوسهم وسرى همس بين الكافرين قائلين :

— هذا سحر مبين .

وقال أبو طالب :

— علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر ؟

ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة ، فقال :

— اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا .

وانطلق أناس فيهم مطعم بن عدى وعدى بن قيس وزمعة بن الأسود وأبو البخترى وزهير بن أمية ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى شعب أبى طالب ليقولوا للمحاصرين إنهم فى حمايتهم ، ودخل أبو طالب الشعب وقال :

— مزقت الصحيفة .

وهرع المسلمون إلى رسول الله — ﷺ — ، وهم يكبرون : « الله أكبر .. الله أكبر » . وخرج بنو هاشم وبنو المطلب إلى مساكنهم فى حماية زهير والذين معه وخر المسلمون ساجدين لله رب العالمين .

١٥

كان القلق مخيما على مكة ، على المسلمين والكافرين على السواء ، فقد انقضت سبع سنوات على نزول الوحي أول مرة على رسول الله — ﷺ — فى غار حراء ، وعلى دعوة الناس إلى دين الله سرا وجهرا ، ولم يؤمن برسالته إلا فئة قليلة ممن شرح الله صدورهم لأنوار اليقين . وكان النبى عليه السلام حزينا لتكذيب قومه لدعوته ، وكان ما يزيد فى أساه أن عمه الحبيب أبا طالب لم يؤمن به وإن قام مدافعا عنه ، وأن أبا العاص بن الربيع زوج ابنته زينب ظل على دين قومه وإن عرف عنه أمانته وحسن خلقه ورجاحة عقله ، وأن عمه أبا لهب قد ذهب فى عداوته شوطا بعيدا حتى إنه

ظاهر أعداء المسلمين على بنى هاشم والمطلب ، وأن ابن خالته النضر بن الحارث يؤلب عليه قريش ويحثهم على قتله لإخماد نيران الفتنة فى زعمه، ولو استفتى قلبه بعيدا عن أحقاده وحسده وهواه لأفتاه أن أبا القاسم ما بعث إلا بالحق ليجدد شباب البشرية ويفجر ينابيع الخير فى الإنسان .

وظل رسول الله — ﷺ — يتألم طوال تلك السنين لما ينزل بالمسلمين من عذاب ، وهو لا يستطيع أن يدفع عنهم اضطهاد وجوه الكفار الذين قست قلوبهم فأنزلوا نقمتهم وسوء العذاب بإخوانهم وأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم الذين اختاروا الهدى والرشاد . وقد شق على رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يعانى المسلمون من شدة ، وإن كانت تلك الشدة هى النيران التى تنصهر فيها أنفسهم لتتهيأ لنفوذ سر الله إليهم وحمل أعباء رسالة السماء .

وكانت خديجة أم المؤمنين تكابد ألوانا من الأسى لأن سادات بنى أسد لم يسارعوا إلى رحمة من ربهم ويعتنقوا دين الله ، فحكيم بن حزام يدور فى فلك رءوس الكفر أبى جهل وأبى بن خلف وأخيه أمية وعقبة بن أبى معيط وسادات دار الندوة ، فهو وإن كان لا يقسو على المسلمين فهو معرض عن الحق ، فعمته تجادله ليفتح نوافذ قلبه لنور الله وهو يغلق كل مسالك الخير المؤدية إلى نفسه فى وجه دعوتها . مؤكدا فى إصرار أنه سيظل وفيا لذين آبائه عابدا لما كانوا يعبدون .

ونوفل بن خويلد وأبو البخترى وأبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد وسادات بنى أسد ، لماذا وضعوا أصابعهم فى آذانهم و لم يلقوا أسماعهم إلى رسول الله عليه السلام ولجوا فى الخصام ؟ مع أن ما جاءهم به المصطفى عليه السلام يرضى الفطرة السليمة وكل نفس نقية من التعصب الأعمى

لأحجار ما أنزل الله بها من سلطان . إنهم أبوا أن يقتبسوا من نور الله ، وفتنوا أنفسهم وتربصوا وارتابوا وغرتهم الأمانى ، والطاهرة سيدة نساء قريش تريد بكل عواطفها أن يهديهم الله قبل أن يأتى أمره ويجعلهم أحاديث ، فقلبها الكبير يتمنى لهم الفوز العظيم وإن أضمروا العداوة والبغضاء لمن عمرت قلوبهم بالإيمان .

وكان أصحاب الرسول فى قلق وإن كانوا على نور من ربهم وإن كان القرآن الذى ينزل على رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — يزيدهم إيمانا على إيمانهم ، فاضطهاد قريش لهم كان فوق طاقة البشر ، فجلودهم تتمزق من وقع السياط وأنفاسهم تضيق وعيونهم تذرف الدموع من عذاب الدخان وأناتهم ترتفع إلى السماء من وقع النار وأرزاقهم تصادر حتى يتضور عيالهم جوعا وهم ينظرون ، ونفوسهم تتعذب من الأناشيد البذيئة التى ينشدها وراءهم الصبيان ، ومن الصفق والصفير واللغو إذا ما قاموا للصلاة ، ومن هزء الجاهلين وسخرية المستهزئين . ويزيد فى أساهم أنهم يرون أحباءهم يتقاحمون فى النار دون أن يستطيعوا أن يأخذوا بحجزهم أو أن ينتشلوهم من وادى الضلال .

وكان كفار قريش فى قلق ، فأبو جهل قد بذل كل طاقته لإخماد دعوة سليل بنى هاشم ، ولكنه باء بالإخفاق فقد زاد الاضطهاد المسلمين إيمانا وتسليما . ولم يعرف اليأس سبيله إلى قلبه فراح يجاهد حتى أقنع بيوت قريش بمقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب حتى يسلموا محمدا ويكفوا عن نصرته والمطالبة بدمه ، وقد كادت المقاطعة أن تؤتى ثمارها لولا أن قام هشام بن عمرو بن ربيعة وزهير بن أمية وزمعة بن الأسود والمطعم بن عدى وأبو البخترى يعارضون المقاطعة ويؤمنون بنى هاشم وبنى المطلب على

حياتهم .

إن ما قام به هؤلاء النفر نذير التصدع فى صفوف المشركين ، وزاد ما قاموا به فى قلق سادات قريش ، كان أقسى على قلوبهم من إسلام أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو وأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب وفراس بن النضر ابن الحارث وخالد بن سعيد بن العاص الذى هجر أباه ليعيش فى كنف أبى القاسم ، وأبنائهم وبناتهم وإخوانهم الذين بهرهم الدين الجديد فدخلوا فيه وآمنوا به وقلوبهم تطمئن بذكر الله .

وزاد فى قلق المشركين أن عمر بن الخطاب راح يدعو إلى الإسلام فى ناحية ، وراح أبو بكر يدعو فى ناحية وعثمان فى ناحية والزبير بن العوام فى ناحية وعبيد الله بن طلحة فى ناحية وجعفر بن أبى طالب فى ناحية وكل مسلم يدعو إلى دين الله كل من يصادفه أو يحاوره أو يناظره . فلو سكت سادات قريش على ذلك فسرعان ما تعم الفتنة مكة كلها ويحتويها الإسلام بين جناحيه بل يلتهمها التهاما ، فاجتمع رءوس الكفر فى الحرم واتفقوا على خنق دعوة ابن عبد الله قبل أن يستفحل أمرها .

وراح الكافرون يعذبون المسلمين فى ضراوة حتى ضاقت عليهم مكة فذهبوا إلى رسول الله — ﷺ — يستأذنونه فى الهجرة إلى الحبشة ، فأذن لهم . فقال عثمان بن عفان :

— يا رسول الله ، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشى ، ولست معنا .

فقال — ﷺ — :

— أنتم مهاجرون إلى الله وإلىّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعا .

قال عثمان :

ــ فحسبنا يا رسول الله .

فهاجر من بني هاشم جعفر بن أبي طالب مع امرأته أسماء بنت عميس ، ومن بني أمية عثمان بن عفان معه امرأته رقية ابنة رسول الله وعمرو بن سعيد ابن العاص معه امرأته فاطمة بنت صفوان وأخوه خالد بن سعيد بن العاص معه امرأته أمينة بنت خلف ، ومن حلفائهم من بني أسد بن خزيمة عبد الله ابن جحش وأخوه عبيد الله بن جحش معه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ومن بني عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومن بني أسد ابن عبد العزى الزبير بن العوام والأسود بن نوفل ويزيد بن زمعة وعمرو ابن أمية ، ومن بني عبد الدار مصعب بن عمير وفراس بن النضر بن الحارث ابن كلدة ، ومن بني زهرة عبد الرحمن بن عوف وعامر بن أبي وقاص وأبو وقاص مالك بن أهيب خال حمزة بن عبد المطلب ، ومن حلفائهم من هذيل عبد الله بن مسعود وأخوه عتبة بن مسعود ، ومن بهراء المقداد بن عمرو ، ومن بني تيم الحارث بن خالد ، ومن بني مخزوم أبو سلمة ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة . ومن بني جمح عثمان بن مظعون ، ومن بني سهم هشام بن العاص بن وائل ، ومن بني الحارث بن فهر أبو عبيدة بن الجراح .

كان الذين خرجوا إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلا فيهم أبناء ألد أعداء محمد ــ ﷺ : أبي سفيان بن حرب والنضر بن الحارث والعاص بن وائل وسعيد بن العاص وسهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة وزهرة شباب بني مخزوم رهط أبي جهل ، فإن لم يكن ما جاء به محمد ــ ﷺ ــ هو الحق من ربه أكان ورثة مجد قريش يتركون آباءهم سادات قومهم ويتحملون أقسى ألوان العذاب في سبيل وهم ؟ أكانوا يتركـون المجد والسؤدد

والسلطان ليهيموا على وجوههم فى الأرض ؟!

وضاقت على أبى بكر مكة وأصابه فيها ما أصابه من الأذى فاستأذن رسول الله — ﷺ — فى الهجرة ، فأذن له وإن كان فى النفس لوعة فهو صديق الصبا وصديق الشباب وصاحبه الذى لم يتردد لحظة لما عرض عليه الإسلام ، فما كان فراق أبى بكر لنبيه ورسوله شيئا هينا على نفس الصديقين ، ولكن محمدا عليه السلام رأى فى هجرة صاحبه الأمن له فأذن له لعله ينعم بالسلام إلى أن يأتى الفرج .

وودع أبو بكر زوجه أم رومان وأولاده عبد الرحمن وعبد الله وأسماء وعائشة وانطلق ليهاجر إلى الله ، ليفر بدينه من الاضطهاد ، وقد هان عليه الوطن والأهل والخلان والأموال فقد تجاوز فى نموه الروحى زخرف الدنيا وتعلق فؤاده بملكوت الله .

وخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما لقيهابن الدغنة سيد الأحابيش ، فقد تحالف بنو الحارث بن بكر والهون بن خزيمة وبنو المصطلق من خزاعة عند جبل يقال له حبشى فسموا الأحابيش للحلف ، فقال :

— أين تريد يا أبا بكر ؟

— أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا على .

— ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، وارجع وأنت فى جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش ، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلا يعرضن له أحد إلا بخير .

فكفوا عنه . وسار أبو بكر يجوس خلال مكة آمنا وكان له مسجد على باب داره فى بنى جمح ، فراح يصلى فيه ويقرأ القرآن فتنهمر من عينيه الدموع ، ووقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يصغون ويعجبون لما يرون من هيئته . ورأى بعض كفار بنى جمح تزاحم الناس على دار أبى بكر إذا ما صلى أو جلس يقرأ القرآن فخاف أن تميل القلوب إلى ذلك الدين الذى يستعبر من يؤمن به إذا مارتل القرآن ترتيلا أو وقف بين يدى ربه خاشعا للصلاة ، فاندفع إلى أندية قريش يقص عليهم مخاوفه .

ومشى من قريش إلى ابن الدغنة رجال فقالوا :

— إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا . إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ، ونحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأنه فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء .

فمشى ابن الدغنة إليه فقال :

— يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

— أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

— فاردد على جوارى .

— قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى فشأنكم بصاحبكم :

١٦

هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة فوجدوا الأمن والاستقرار وحمدوا جوار النجاشي وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحدا ، وكانوا صفوة شباب قريش فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله . وراح شعراؤهم يبعثون إلى قريش بقصائد تعبر عن صدق إحساساتهم ، فبعث عبد الله بن الحارث قصيدة تلو قصيدة يقول فى إحداها إنهم وجدوا بلاد الله واسعة تنجى من الذل والخزى والهوان ، ويذكر فى أخرى نفى قريش إياهم من بلادهم ويعاتب بعض قومه ، وقال فى ثالثة :

وتلك قريش تجحد الله حقه
كما جحدت عادٌ ومدينٌ والحجر
فإن أنا لم أُبرِق[1] فلا يسعنني
من الأرض بَرٌّ ذو فضاء ولا بحر
بأرض بها عبد الإلهَ محمدٌ
أُبيِّن ما فى النفس إذ بلغ النَّقْر[2]

فسمى عبد الله بن الحارث المُبْرِق .

وراح عثمان بن مظعون يفكر فى ابن عمه أمية بن خلف فيتذكر إيذاءه إياه أيام أن كان فى مكة ، فقد هاجر عثمان الهجرتين إلى الحبشة فرارا من ضراوة عداوة ابن عمه وشراسته ، فقال يعاتب أمية :

---

(١) أبرق : أهدد . (٢) النقر : البحث من الشيء .

أثيم بن عمرو للذى جاء بغضة
ومن دونه الشرمان والبَرْك أكتع[1]
أأخرجتنى من بطن مكة آمنا
وأسكنتنى فى صرح بيضاء[2] تقذع
تريش نبالا لا يواتيك ريشها
وتبرى نبالا ريشها لك أجمع
وحاربت أقواما كراما أعزة
وأهلكت أقواما بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوما ملمة
وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

ورأت قريش أن أصحاب رسول الله — ﷺ — قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا دارا وقرارا ، فائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلْدين إلى النجاشي فيردهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها ، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته وقالوا لهما :

— ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

ورأى أبو طالب كيد قريش لمن هاجروا إلى الحبشة فاستبد به القلق ، إنه هنا فى مكة يسبل حمايته على ابن أخيه محمد عليه السلام ، فمن ذا الذى سيحمى ابنه جعفرا من عداوة عمرو ؟ فبعث إلى النجاشي أبياتا يحضه على

---

(١) الشرمان : موضع .. والبرك : جماعة الأبل للباركة . (٢) يقصد الحبشة

حسن جوار من لا ذوا به والدفع عنهم ، قال :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر
وعمرو وأعداء العدو الأقارب
وهل نالت افعال النجاشي جعفرا
وأصحابه أو عاق ذلك شاغب
تعلَّم ، أبيت اللعن ، أنك ماجدٌ
كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلَّم بأن الله زادك بسطةً
وأسباب خير كلها بك لاذب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة
ينال الأعادى نفعها والأقارب

وركب عمرو بن العاص وامرأته وعمارة بن الوليد السفينة وحملوا الهدايا ، وكانت فرسا وجبة وأدما ، وكان عمرو قصيرا دميما وكان عمارة رجلا جميلا فكانت امرأة عمرو تراه طوال النهار وطرفا الليل ففتنت به وهوته ، واحتسى عمارة ذات ليلة خمرا لعبت برأسه فقال لعمرو :

— مر امرأتك فلتقبلنى .

فنظر إليه عمرو فى دهش وقال :

— ألا تستحى ؟

فأخذ عمارة عمرا ورمى به فى البحر .

فجعل عمرو يصيح وينادى أصحاب السفينة ويناشد عمارة حتى أدخله السفينة ، فقال لامرأته :

— قبلى ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه .

وأصرها عمرو فى نفسه وراح يتحين الفرص ليمكر بمن أرغمه على أن يسمح له بأن يقبل امرأته وهو ينظر .

ونزلا أرض الحبشة فانطلقا إلى بطارقة النجاشى، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم:

— إنه قد ضوى إلى بلد الملك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم و لم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم .

فقالوا :

— نعم .

كان أعداء النجاشى قد باعوه لرجل من العرب فمكث عنده مدة تعلم فيها من لسان العرب ، ثم لما مرج أمر الحبشة وضاق عليهم ما هم فيه خرجوا فى طلبه وأتوا به من عند سيده ووضعوا التاج على رأسه . وكان أعلم النصارى بما أنزل على عيسى ، وكان قيصر يرسل إليه علماء النصارى لتأخذ عنه العلم ، وكانت الصلات بينه وبين هرقل طيبة فقد كان هرقل يرى أن لا خير فى الإمبراطورية الرومانية إلا إذا عادت إلى الله وعبدته حق عبادته .

وكان النجاشى يألف عثمان بن عفان وكثيرا ما كان يبعث فى طلبه ليحاوره ، وكان يعجب من غزارة علم ذلك الوافد من أرض الأصنام وما كان يدرى منبع الحكمة التى نهل منها ، فما حدثه عثمان عن الإسلام خشية أن يوغر صدر الرجل الذى أكرمهم وأحسن استقبالهم .

وانطلق عمارة بن الوليد بن المغيرة فى طرقات قصر النجاشى فإذا

بالصلبان قد ارتفعت فى كل مكان ، وإذا بالحراس ينتشرون فى ممراته ، حتى إذا ما بلغا قاعة العرش صاح صائح :

— إن عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد سفيرى قريش بالباب .

فأمر النجاشي بدخولهما عليه ، فما إن دلفا إلى قاعة العرش حتى خرا ساجدين للملك ، فأمرهما النجاشى أن يرفعا رأسيهما . ثم أقعد عمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن شماله ، وقدما إلى النجاشى فرسا وجبة ديباج فقبل هديتهما فقالا :

— إن نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك فرغبوا عنا وعن آلهتنا و لم يدخلوا فى دينكم ، بل جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قريش لتردوهم إليهم .

فقال الملك :

— وأين هم ؟

— بأرضك فأرسل فى طلبهم .

ورمق عمرو بن العاص عظماء الحبشة الذين قدم إليهم الهدايا بنظرة فقالوا :

— ادفعهم إليهما فهما أعرف بحالهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فأسلمهم لهما فليرداهم إلى بلادهم وخدمتهم .

فقال النجاشى فى غضب :

— لا والله حتى أعلم أى شىء هم . ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعتهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

وأرسل إلى أصحاب النبى — ﷺ — فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض :

— ما تقولون للرجل إذا أجبتموه ؟

— نقول والله ما علمنا وأمرنا نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن .

وانطلقوا إلى قصر النجاشى ، وفيما هم يمشون فى ممرات القصر قال جعفر بن أبى طالب :

— أنا خطيبكم اليوم .

وبلغوا باب قاعة العرش فصاح جعفر :

— جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

وبلغ صوت جعفر مسامع النجاشى فقال :

— نعم ، يدخل بأمان الله وذمته .

وأحس عمرو طلائع الهزيمة ، فهمس فى أذن عمارة بن الوليد :

— ألا ترى كيف يكتنون بحزب الله وما أجابهم به ؟

وتقدم المسلمون ودخلوا قاعة العرش مرفوعى الرءوس دون أن يسجدوا للملك ، بل ألقوا عليه السلام .

فرأى عمرو أن يوغر صدر النجاشى عليهم فقال :

— ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون و لم يحيوك بتحيتك ؟

فقال النجاشى غاضبا :

— ما منعكم أن تسجدوا وتحيونى بتحيتى التى أُحيَّا بها ؟

فقال جعفر فى ثبات :

— إنا لا نسجد إلا لله عز وجل ، أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار

ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقـذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي لجعفر :

— هل عندك مما جاء به شيء ؟

— نعم .

— فاقرأه على .

— بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون * ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها

آية للعالمين * وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون * وإن تكذبوا فقد كذّب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين * أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير * يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون * وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾(١) .

وبان التأثر العميق فى وجوه عثمان بن عفان ورقية ابنة رسول الله ـــ ﷺ ـــ والزبير وأبى سلمة وأم سلمة وأم حبيبة بنت أبى سفيان وكل المسلمين . بينا كان عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة شاردا فقد أمضى ليله يعب الخمر المعتقة فى دير من أديرة النصارى ، فقد وطد عبيد الله

---

(١) العنكبوت ١٢ ـــ ٢٧ .

صداقة متينة مع الرهبان وقد يسر له الأمر أنه كان اعتنق النصرانية أيام أن خرج مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل للبحث عن دين الحنيفية القويم ، وفاضت أعين النجاشي وأعين أصحابه بالدمع وقال النجاشي :

— هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وقال :

— انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون .

وأو لم النجاشي لسفيرى قريش وليمة فاخرة ، فهو وإن كان قد رفض سفارتهما إلا أنه يحب أن تظل أواصر الصداقة بينه وبين سادات الحرم الذى يحج إليه العرب جميعا موصولة ، وحضرت الوليمة الملكة فراعها حسن عمارة بن الوليد فراحت تختلس إليه النظرات . وفطن عمرو بن العاص إلى ما فى أعين المرأة من إعجاب بسليل بنى مخزوم فقد سبق له أن رأى مثل ذلك البريق الذى يشع من عينى الملكة يتألق فى عينى امرأته ، فوطن النفس على أن يثأر لكرامته من عمارة الذى طعن كبرياءه أمام بحارة السفينة أجمعين .

وانتهت حفلة التكريم ، ولما انصرف عمرو بن العاص وزوجه وعمارة قال عمرو :

— والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم . والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا عليه من الغد فقال :

— يأيها الملك ! إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون .

فأرسل إليهم رسوله ، وعلموا من الرسول أن عمرو بن العاص أنبأ النجاشي بما يقولون فى عيسى عليه السلام ، فأحسوا ضيقا لم ينزل بهم

مثله ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض :

— ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟

— نقول والله كما قال الله وما جاءنا به نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن .

وسار المسلمون جميعا فى ردهات القصر بين حراس من الأحباش فى أيديهم الرماح ، كانوا ثلاثة وثمانين بين رجل وامرأة وقد أنزل الله على قلوبهم السكينة ، حتى إذا ما بلغوا باب قاعة العرش صاح جعفر بن أبى طالب :

— جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

وبلغ صوته مسامع النجاشى فأذن له ، فدخل المسلمون وأخذوا أماكنهم وقد أطرقت رقية ابنة رسول الله — ﷺ — برأسها ، فجمالها الآسر كان يجذب إليها الأبصار وكانت نظرات الرجال تؤذيها .

واتخذ المسلمون مجالسهم فالتفت إليهم النجاشى وقال :

— ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن أبى طالب :

— نقول فيه الذى جاءنا به نبينا .

واعتدل جعفر ثم راح يقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا * قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو على هين وقد

خلقتك من قبل و لم تك شيئا * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبرا بوالديه و لم يكن جبارا عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا * واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا * فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشر و لم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى و لم يجعلنى جبارا شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾[١] .

---

(١) مريم ١ ـــ ٣٣ .

وتعلقت أعين المسلمين بشفتى جعفر ، أيصمت جعفر وينتهى من قراءته أم يستمر فى التلاوة ويوغر صدور الرهبان الذين جلسوا يصغون وقد فتحوا كتبهم أمامهم كأنما كانوا يقارنون ما فيها بما يرتله ابن عم النبى الأمى الذى قال فى المسيح قولا عظيما ، واستمر جعفر فى التلاوة فبانت الراحة فى وجوه عثمان بن عفان ورقية والزبير والمسلمين جميعا إلا عبيد الله ابن جحش فقد نظر إلى زوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان نظرة كلها ضيق بجعفر وبما يقرأه . كان وجهه باسرا كوجوه قسيسى الحبشة : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون * وإن ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[1] .

فضرب النجاشى بيده إلى الأرض ثم أخذ منها عودا ثم قال :

— ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود .

فراح الأساقفة يتحدثون بلغتهم فى غضب ، وراح عبيد الله بن جحش يحدث من حوله منهم كأنما كان يعطف عليهم وعلى قضيتهم ، ونهر النجاشى أساقفته ثم التفت إلى المسلمين وقال :

— والله أنتم آمنون بأرضى . من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم . وما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم .

---

(١) مريم ٣٤ — ٤٠ .

والتفت إلى كاتم سره ومن عنده من خدمه وقال :

ـــ ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ ملكى فآخذ الرشوة فيها ، وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه .

فخرجا من عنده مقبوحَين مردودا عليهما ما جاءا به ، فالتفت عمرو إلى عمارة وقال له :

ـــ أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال ، فتعرض لزوجة النجاشى لعلها أن تشفع لنا عنده .

وملأ ذلك القول عمارة غرورا فراح يتغنى بشعر خولة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت الذى قالته فيه :

يا خليلى نابنى سُهدى	لم تنم عينى ولم تَكَدِ
فشرابى ما أُسيغ وما	أشتكى ما بى إلى أحد
كيف تلحونى على رجل	آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته	ليس بالزميلة النكد
من بنى آل المغيرة لا	خامل نِكس ولا جَحد
نظرتُ يوما فلا نظرت	بعده عينى إلى أحد

ثم راح يترنم بشعره الذى قاله فيها :

تناهى فيكم وجدى	وصدَّع حبُّكم كبدى
فقلبى مسعرٌ حزنا	بنات الخال فى الخد
فما لاق أخو عشق	عشير العشر فى جَهدى

وانسل عمارة إلى حيث كانت زوجة النجاشى ، ولعب بعقل الملكة الرجل الجميل الذى أرادت قريش يوما دفعه إلى أبى طالب بدلا عن النبى

عليه السلام إذا قتلوه ، وتكرر تردده عليها حتى أهدت إليه من عطرها وذات يوم دخل عندها فانسل عمرو بن العاص إلى النجاشي فقال له :

— إن صاحبي هذا صاحب نساء ، وإنه يريد أهلك وهو عندها الآن .

فاربد وجه النجاشي وتدفقت الدماء حارة فى عروقه و لم يستطع صبرا ، فانطلق كعاصفة مزمجرة إلى جناح زوجه فألفى ألوان الحراس تغيض والجوارى يرتجفن من هول المفاجاة وقد عقدت الدهشة ألسنتهن . وفتح باب مخدع الملكة فى ثورة فإذا بعمارة عندها ، فأمر بإلقاء القبض عليه وهم بقتله لولا خشية أن تلوك ألسنة الشعب قصة الخيانة البشعة فقال :

— لولا أنه جارى لقتلته ، ولكنى سأفعل به ما هو شر من القتل .

وأمر بحمله ليلقى فى البرارى يهيم على وجهه بين الوحوش يرد معها إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت ، يغالب الموت والموت يغلبه حتى آخر الأنفاس .

وعاد عمرو بن العاص وزوجه إلى مكة بعد أن أخفقت سفارته وانتقم ممن أهدر كرامته على أعين الناس شر انتقام ، وبقى المسلمون فى خير جوار وفى خير دار يعملون فى التجارة آمنين ويقيمون شعائر دينهم فى سلام .

وبلغ أبا موسى الأشعرى أن نبيا قام فى مكة يدعو إلى الله ، واستمع هو ونفر من اليمن إلى ما أنزل إليه من القرآن فانشرحت صدورهم للإيمان ، فخرج هو ونحو خمسين رجلا فى سفينة مهاجرين إليه — ﷺ — ، فألقتهم السفينة إلى أرض الحبشة فوجدوا جعفرا وأصحابه ، فأمرهم جعفر بالإقامة فاشتد بهم ساعد المسلمين فى أرض الهجرة .

وضاق رجال الدين فى الحبشة بما قرأ جعفر بن أبى طالب وزاد فى

ضيقهم موافقة النجاشي على أن المسيح رسول الله ، فراحوا يؤلبون الناس عليه حتى مشى الناس إلى القصر وقالوا للنجاشي :

— إنك فارقت ديننا .

وخرجوا عليه . ونشب القتال بين النجاشي ومن ثاروا عليه فانضم المسلمون إلى الرجل الذى أكرم مثواهم ، وقد حزنوا حزنا شديدا تخوفا أن يظهر الرجل الذى يقود الثورة على النجاشي فلا يعرف من حقهم ما كان النجاشي يعرف منه .

وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل بعد أن هيأ لجعفر وأصحابه سفنا وقال :

— اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هزمت فامضوا إلى حيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا .

ودارت المعركة بين الفريقين والمسلمون فى سفنهم يرقبون القتال الناشب وقلوبهم واجفة ، يدعون الله فى حرارة أن يؤيد النجاشي بنصره ، وماج الجنود بعضهم فى بعض فلم يعد من اليسير تمييز قوات النجاشي ، فقال أصحاب رسول الله — ﷺ — :

— من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

فقال الزبير بن العوام :

— أنا .

— فأنت .

فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . وراح أصحاب رسول الله — ﷺ — يبتهلون إلى الله تعالى أن يظهر النجاشي على عدوه

والتمكين له فى بلاده .

وبينا هم يمدون أبصارهم ناحية المعركة متوقعين لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى فيحرك ثوبه ليروه وهو يقول :

— ألا أبشروا ، فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده .

وتهللت أسارير أصحاب رسول الله — ﷺ — وغمر الفرح أفئدتهم واستبشروا بنصر الله للنجاشى ، ورجع النجاشى إلى عرشه وقد أهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة ، فكان أصحاب رسول الله — ﷺ — عنده فى خير منزل .

ومرت الأيام والمسلمون جميعا يمارسون شعائر دينهم راضين مستبشرين إلا عبيد الله بن جحش فقد كان يختلف إلى الرهبان ويمارس معهم صلواتهم ، فقد كان حديث عهد بالنصرانية قبل أن يدخل فى الإسلام ، وكانت فكرة تجسيد الآلهة تستهويه أكثر من فكرة الإله المجرد الذى ليس كمثله شيء ، وكانت خمور الكنائس المعتقة تبعث النشوة فى نفسه .

ودخلت أم حبيبة بنت أبى سفيان ونامت فإذا بها ترى عبيد الله بن جحش زوجها بأسوأ حال ، وقد راعها تغير صورته حتى إنها أنكرته ، وهبت من نومها مفزوعة تعوذ بالله من الشيطان ، واستمر قلبها كجناح حمامة بين جنبيها من شدة الخوف ، وظلت الرؤيا تلح عليها حتى أشرق الصباح .

وراحت تنظر إليه وهى فى قلق ، وهمت بأن تقص عليه رؤياها فإذا به يقول :

— يا أم حبيبة إنى نظرت فى هذا الدين فلم أر دينا خيرا من دين النصرانية ، وقد كنت دنت بها ثم دخلت فى دين محمد ثم خرجت إلى دين النصرانية .

فقالت أم حبيبة فى قلق وخوف :

— والله ما خير لك .

واستمرت تقص عليه ما رأت فى منامها وتحاول أن تثنيه فلم يحفل بذلك ، وأكب على الخمر يشربها حتى مات . وبقيت أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب على دينها ، بل جعلتها ردة زوجها تجتهد فى العبادة والتقرب إلى ربها وتمضية وقتها فى قراءة القرآن ، وذات ليلة بينا كانت غارقة فى نومها رأت فى المنام كأن آتيا يقول لها :

— يا أم المؤمنين .

ففزعت وراحت تفكر فى ذلك الهاتف : أيتزوجها رسول الله ﷺ ؟ إنها لن تكون أما للمؤمنين إلا إذا تزوجها عليه السلام . ترى أتتحقق رؤياها ذات يوم ؟

١٧

كان أصحاب رسول الله — ﷺ — الذين هاجروا إلى الحبشة يشتغلون بالتجارة ، فكانوا ينطلقون إلى اليمن يحضرون أسواقها ثم يعودون إلى الحبشة بما اشتروا من أسواق صنعاء ونجران من سلع يبيعونها فى أكسوم عاصمة أرض النجاشى أو فيما جاورها من البلاد .

وكان خروجهم إلى اليمن فى الشتاء ليلتقوا بالخارجين من قريش

ليتنسموا أخبار نبيهم عليه الصلاة والسلام ، أو ليختلوا ببعض المسلمين الذين خرجوا فى قافلة قومهم ليسمعوا منهم ما أنزل على الرسول — ﷺ — من آيات الله البينات حتى يحفظوه فى صدورهم فيتلوه على إخوانهم المتعطشين إلى قرآن الله فى أرض الغربة والحنين والأشواق .

وكان اجتماعهم بأهل الحرم يحرك فيهم الشوق إلى أول بيت وضع للناس ، فكانوا يقرعون غالبا فى صلواتهم التى كانوا يقومون بها عند شروق الشمس وعند الغروب : ﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾(١) . كانت تلك السورة تثير فى نفوسهم أعمق الآلام ، فقريش الذين منَّ الله عليهم بحرم آمن يأمن فيه الطير بينا يتخطف الناس من حولهم ، قد اضطهدوهم حتى فروا بدينهم من سوء العذاب .

وكانوا يمرون بكنيسة أبرهة التى بناها أفخم ما يكون البناء وجلب لها الرخام من أرض الروم والصناع المهرة من كل مكان ، والتى كنت يوم أن بناها لنجاشى الحبشة : « إنى قد بنيت لك كنيسة لم ين مثلها أحد ، ولست تاركا العرب حتى أصرف حجهم عن الكعبة إليها » فكانوا يستشعرون عزا ، بل كانت تسرى فيهم قوة روحية تزيدهم إيمانا وصبرا على احتمال ما هم فيه من تشريد . فأبرهة قد ساق الفيلة والجيوش ليدك الحرم ، ولكن الله صان بيته لأنه كان سبحانه وتعالى يعده لتشرق منه رسالة النور لتغمر العالمين .

كانوا يمدون أعينهم إلى كنيسة أبرهة ويتلون : ﴿ ألم تر كيف فعل

---

(١) قريش ١ — ٤ .

ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول ﴾(١) .
فكانت أفئدتهم تشرق بالأمل واليقين والإيمان بأن نصر الله قريب .

إن نجاشى الحبشة الذى بنى أبرهة كنيسته كسبا لوده ، والذى قرر أن يسير بجيشه شمالا باسمه حتى تلتقى جيوش نصارى الجنوب بجيوش نصارى الشمال ، مقوضا مراكز عبادة العرب جميعا وهو فى طريقه إلى منبع ديانة النصارى ، رافعا الصليب على كعبات الوثنيين ، قد آواهم وأمنهم ، بل سمع ما يقولون فى السيد المسيح ونصرهم على رهبانه وقساوسته ورجال الدين فى أكسوم .

كانوا يمشون فى الأسواق يبيعون ويبتاعون ، وكانوا يجلسون إلى من يأنس إليهم من النصارى والوثنيين يعرضون عليهم الإسلام ويقرءون عليهم القرآن ، وكان الجدل يشتد بينهم وبين النصارى والرهبان ، وكان الحوار يحتدم أحيانا ، ولكن الرهبان كانوا على الدوام يعجبون من أين جاء هؤلاء العرب المسلمين العلم والحكمة وقد كانوا لا يدرون ما الكتاب وما الإيمان وما جوهر الدين !

وكانوا إذا ما انتهت أيام أسواق صنعاء شدوا الرحال إلى نجران وكانت تبعد عن صنعاء عشر مراحل . إنها أرض ذات نخل وأشجار بها جبل من حديد ، وكان يضرب منه سيوف كثيرة وكانت الكنائس منتشرة فيها ، فكانوا يشترون السيوف ليبيعوها فى الحبشة ويحاورون النصارى والرهبان فى الدين ، وينبئون الناس أن الله قد بعث محمدا عليه الصلاة والسلام بشيرا ونذيرا .

---

(١) الفيل ١ ـــ ٥ .

وكانوا يقرءون على الرهبان القرآن فيلقون إليهم أسماعهم وهم فى دهشة مما يسمعون ، وذات ليلة راح رجل من أصحاب محمد — ﷺ — يتلو : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شىء شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا فى تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ ﴾(١) . وما انتهى من تلاوته حتى استبدت الحيرة بالسامعين ، فمن أين لأهل مكة هذا العلم وعهدهم بهم شعراء كل همهم التفاخر أو الهجاء أو التشبيب ؟ وكان لشعرهم جرس ورنين ولكن لم تكن له حلاوة ما يقرأ أصحاب النبى عليه السلام ولا سحره ولا عمقه ولا إعجازه .

وذاع فى نجران أمر الرسول الذى يزعم أنه يكلم من السماء وأنه بعث فى مكة ، وانتشر نبؤه فى اليمن . ودار الجدل حول صدق رسالته فقال فريق منهم إنه النبى الذى بشر به موسى وعيسى وأنه الفراقليط ، وراح فريق ينكر ذلك القول ، واشتد الحوار بينهم ثم رأوا أن يبعثوا عشرين رجلا منهم

---

(١) البروج ١ — ٢٢ .

يكلموه ويسألوه .

وخرج القسيسون والرهبان إلى مكة وسألوا عن النبى — ﷺ — ، فقيل لهم إنه فى المسجد ، فانطلقوا إلى الحرم وأرشدوا إليه فإذا هم أمام رجل فوق المربوع ، بعيد ما بين المنكبين ، غزير الشعر ، تلمس جمته شحمة أذنيه ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار عليه مهابة ووقار ، يكاد أن يشع من وجهه النور ، ما أسرع أن تقع محبته فى القلوب ؛ فجلسوا إليه وكلمو وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ينظرون إلى أبى القاسم والرهبان والقسس من حوله يصغون إلى صوته الرصين .

وراح يتكلم بكلام بين فصل ، ثم قرأ عليهم القرآن فاستشعروا كأنما قد تعرضوا لنفحات رحمة الله ، فانشرحت صدورهم بأنوار اليقين ، فإذا بهم على نور من ربهم وإذا بألسنتهم تتعجل أن تنطق شهادة الحق المبين .

وفاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا إلى الله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . ورأى أبو جهل توقيرهم لأبى القاسم فتحرك غضبه وكاد ينفجر غيظا لما عرف أنهم قد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فلما قاموا عنه اعترضهم فى نفر من قريش فقالوا لهم :

— خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ! ما نعلم ركبا أحمق منكم .

فقالوا لهم :

— سلام عليكم لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

لو كان الأمر أمر الدين فها هم هؤلاء رهبان النصارى وقسيسوهم يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى الإنجيل وما كانوا أعلم منهم بأمر الرسالة والرسول ، ولكن لم تكن العداوة بسبب الآلهة بل كانت خوفا من أن يذهب بنو هاشم وبنو المطلب بالمجد كله وأن يصبح سادات بنى أمية وبنى مخزوم وبنى تيم ورجال بيوت شرف قريش العشرة اتباعا ليتيم قريش الذى تغلغل نفوذه فى الحبشة وفى اليمن .

أصبح شأن أبى القاسم أخطر مما كانوا يتصورون ، فنجاشى الحبشة قد رفض طلب قريش وأبى أن يسلم المسلمين الذين لاذوا به ، ولم يكتف بذلك بل رد هداياهم ردا مهينا . ونصارى اليمن قد شدوا الرحال إليه وما كادوا يجلسون إليه حتى آمنوا بصدق رسالته واستجابوا له ، فبات القضاء على هذه الفتنة شيئا لا مفر منه إن أرادوا أن يبقوا على سلطانهم فى مكة .

اضطهدوه وعذبوه ولكنه صبر على الاضطهاد والتعذيب ، أغروا به سفهاءهم فاحتمل الأذى واستمر فى دعوته دون أن يدب اليأس فى قلبه . وأرادوا قتله ولكن عشيرته وأهله قاموا دونه ، وحوصروا فى شعب أبى طالب ونزل بهم أقسى ألوان العذاب فما وهنوا ولا فكروا فى أن يسلموه .

إنه أبو طالب الذى يحميه ، إنه هو الذى يحول بينه وبين طالبيه ، فلو ذهب أبو طالب لأصبح القضاء على أبى القاسم وعلى دعوته أمرا ميسورا . وما دار بخلدهم أنه فى رعاية الله . ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾[1] .

---

(١) الصف ٨ .

١٨

كان النضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وعتبة بن أبى معيط وأبو سفيان بن حرب وأعداء محمد جالسين فى دار الندوة يسخرون من ابن أبى كبشة الذى سحر أتباعه بقرآنه ، فقال قائل منهم :

ـــ إن محمدا سخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم ، وما هو إلا مفتر يقوله من تلقاء نفسه .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾(١) .

كانوا يستهزئون بمحمد عليه السلام ، ويحاولون أن ينالوا من القرآن المجيد ، فكان الحوار محتدما بينهم وبين الرسول الكريم ، وكان القرآن يلزمهم الحجة ولكنهم كانوا يستكبرون ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(٢) .

﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾(٣) .

﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ، فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ﴾(٤) .

---

(١) النحل ١٠١ ـــ ١٠٢ (٢) الأنفال ٣١ ـــ ٣٢ .
(٣) النحل ٢٤ . (٤) الشورى ٢٤ .

﴿ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١) .

كانوا يسخرون إذا ما قال لهم رسول الله — ﷺ — إنهم لمبعوثون ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾(٢) . ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما تدرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾(٣) .

وقالوا إن محمدا قد سخر بأصحابه لما جعلهم يهاجرون إلى الحبشة فى سبيل وهم كبير ، فجاء القرآن الكريم يوضح لهم ما أعد الله للمهاجرين لو كانوا يعقلون : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾(٤) .

كانوا يجادلون بألسنتهم ولكنهم كانوا فى حيرة من أمر ابن عبد الله، فمن أين له ذلك العلم وتلك الحكمة التى تتدفق من بين شفتيه وقد لبث فيهم من قبل عمرا وما اشتغل بأمور الدين ؟! وكان القرآن يوضح لهم ما غاب عنهم : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾(٥) ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر

---

(١) الجاثية ٢٤ — ٢٦ .
(٢) النحل ٣٨ .
(٣) الجاثية ٣٢ .
(٤) النحل ٤١ .
(٥) الشورى ٥٢ — ٥٣ .

ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(١) .

وكانت تقشعر جلودهم إذا ما نزل فيهم قول شديد ، ولكنهم كانوا يحاولون أن يبدوا هادئين: ﴿ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾(٢) .

وكان رسول الله — ﷺ — يضيق بما يقولون ولكن الله عز وجل قد أنزل عليه : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾(٣) .

كانوا يتخذون آيات الله هزوا ولكنهم كانوا يرتجفون فرقا من أن يصغى الناس إلى القرآن المبين ، فلا جرم أنهم كانوا يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

قدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا فقد ذاع صيته فى اليمن ، فخشيت قريش أن يلتقى بالنبى — صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يجلس إليه ويلقى إليه السمع فيستولى على فؤاده بسحر قرآنه . فهرعوا إليه وقالوا :

---

(١) النحل ٣٣ . (٢) الجاثية ٧ — ١١ .
(٣) الأحقاف ٣٥ .

ـــ يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر.. يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

وما زالوا به حتى أجمع ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه حتى حشا فى أذنيه حين غدا إلى المسجد قطنا ، فرقا من أن يبلغه شىء من قوله وهو لا يريد أن يسمعه .

فغدا إلى المسجد فإذا رسول الله ــ ﷺ ــ قائم يصلى عند الكعبة فقام منه قريبا ، فإذا بسمعه يرهف وإذا بأذنيه تلتقطان ما يقرأ رسول الله عليه السلام من آيات الله البينات ، وإذا به يحس حلاوة ما مس أذنيه من كلام حسن فقال فى نفسه :

ـــ واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته

وجلس يرقب رسول الله ــ ﷺ ــ من طرف خفى ، فلما نهض لينصرف إلى بيته قام الطفيل فاتبعه ، حتى إذا ما دخل بيته دخل عليه فقال :

ـــ يا محمد إن قومك قالوا لى إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع منه شيئا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف[١] لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى

---

(١) الكرسف : القطن .

قولك فسمعته قولا حسنا ، فاعرض على أمرك .

فعرض عليه — ﷺ — الإسلام ثم راح يتلو عليه القرآن :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع * يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا * فويل يومئذ للمكذبين * الذين هم فى خوض يلعبون * يوم يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون * إن المتقين فى جنات ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون * متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم * فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين * أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون * أم لهم

سُلَّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين * أم له البنات ولكم البنون * أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون * أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون * وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم * فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون * يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم يُنصرون * وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون * واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾(١) .

واستمر رسول الله — ﷺ — يتلو عليه القرآن والشاعر اللبيب يصغى إليه وهو مأخوذ يستشعر كأن الحجاب الذى كان بينه وبين ملكوت السماء يرتفع بلطف خفى من الله تعالى ، وأن شيئا غريبا يلمع فى قلبه من وراء ستر الغيب كالبرق الخاطف ، كان نور الله ينسكب فى نفسه لتتلألأ فى فؤاده حقائق الأمور ، فانكشف له الأمر وفاضت على صدره أضواء اليقين ، فقد كان يطلب الحق فهداه الله السبيل ، فقال وهو يتهلل بالبشر والتسليم :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وسادت لحظة صمت ملؤها انفعالات تفجرت من كنوز البر جعلت الدمع من أعين الرجلين يفيض . واختلجت الخواطر فى نفس الطفيل فقال :

— يا نبى الله إنى إمرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام .

---

(١) سورة الطور .

وانطلق الطفيل إلى اليمن يحس أنه قد خلق خلقا آخر ، جاء إلى مكة وهو من عباد ذى الكفين « مزهوا بمكانته فى قومه » فإذا به يعود وهو من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . خرج من قبيلة دوس وهو معجب بأشعاره تنتفخ أو داجه غرورا إذا ما سمع المترنمون ينشدون قصائده ، فإذا به بعد أن سمع كلام الله وشرح الله صدره للإسلام قد جعل دبر أذنيه كل ما نظم من قريض وأصبحت أمنيته أن يقرأ القرآن فى دوس ، بل أن تتردد تلاوته فى جبال اليمن وسهولها ووديانها بله فى العالمين .

وخرج إلى قومه حتى إذا كان بفرجة بين جبلين تطلعه على القوم النازلين على الماء ، راح يتهيأ ليعلن قومه بالنبأ العظيم ، ليقول لهم : إن ربكم واحد لا إله إلا هو فاعبدوه ، وراح يهبط إليهم من الثنية حتى جاءهم فأصبح فيهم .

فلما نزل أتاه أبوه وكان شيخا كبيرا فراح يضمه إلى صدره ويقبله فى شوق شديد ، فقال له الطفيل :

— إليك عنى يا أبت فلست منك ولست منى .

فقال الشيخ فى دهش :

— ولم يابنى ؟

— أسلمت وتابعت دين محمد — ﷺ — .

وراح الطفيل يدعو أباه إلى الإسلام ويتلو عليه بعض آيات الذكر المبين ، فإذا بالشيخ يحس كأنما ما يسمع يرفعه إلى السماء ليقرع أبواب الملكوت ، إنه كان يستمع بسر قلبه فإذا به يشاهد ما وراء حواسه ، وإذا به فى لحظة يكشف عن جوهر وجوده الإنسانى وينزع إلى السمو إلى النبع

الروحى الفياض الذى يهدى إليه القرآن المجيد ، كانت حياة الشيخ عبثا قبل أن يأتيه ابنه باليقين ، كان يخبط فى الظلمات حتى أشرق عليه النور من مكة ، كان يسجد لذى الكفين ويحج إلى الطائف ليتمسح باللات ثم يشد الرحال إلى الحرم ليقدم إلى العزى ومناة وهبل والأصنام الأخرى القرابين ، مع أن الله معه أقرب إليه من حبل الوريد .

وملأت الدموع عينى الشيخ وقال فى انفعال شديد :

ـــ أى بنى ، فدينى دينك .

ـــ فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما علمت .

وانطلق الشيخ فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء ، فراح الطفيل يعرض عليه الإسلام ، فأحس الشيخ كأن قوة رحيمة تمحق الزائف من وجدانه وتثبت الحق وتحرره من العبودية والذلة والمسكنة ؛ وتمنحه حرية السمو إلى ما فوق الأهواء وما عاش فيه من خرافات .

كان ما يقوله ابنه يعبر عن صوت العقل ، إنه النزاهة الحقة ، إنه اليقين الذى ما بعده يقين ، إنه الصراط المستقيم ، إنه كشف حقيقة نفسه فى نور الله ، فإذا به يفطن إلى أن الحياة دون الله لا معنى لها ، وأن لا سعادة أبدية إلا بالله ، فقال وهو يتقد حماسة :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وأتته صاحبته متطلقة الوجه يلوح عليها الشوق الشديد ، فما إن رأته حتى ارتمت عليه فقال لها :

ـــ إليك عنى ، فلست منك ولست منى .

ـــ لم ؟ بأبى أنت وأمى .

ـــ قد فرق بينى وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ـــ ﷺ ـــ .

وراح يصف لها ما كان بينه وبين قريش وكيف أن الله أبى إلا أن يسمعه قراءة محمد عليه السلام ، ثم قال :

— فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق .

فقالت وهى ترنو إليه فى حب :

— فدينى دينك .

— فاذهبى إلى حمى ذى الشرى فتطهرى منه .

كان ذو الشرى إله النبط العظيم وكان له بعد هائل فى البتراء ، كان عرب الجنوب يحجون إليه وكانوا يطلقون عليه « ذا الشرى ورب البيت » ، وقد اتخذت قبيلة دوس ذا الشرى إلها ووضعوه فى مكان فى بطن جبل يهبط منه ماء قليل ، وقد اندثرت عبادة ذى الشرى فى الشمال بعد أن قضى الرومان على مملكة أحفاد إسماعيل وبقيت فى بعض قبائل اليمن .

ووقفت امرأته مترددة وأحس أنها تخشى غضبه وأن ينزل بأبنائها السوء ، فقال لها :

— بأبى أنت وأمى، أتخشين على الصبية من ذى الشرى شيئا ؟

ولم تنبس بكلمة فقال لها :

— لا ، أنا ضامن لذلك .

فذهبت فاغتسلت ثم جاءت ، فعرض عليها الإسلام وقرأ القرآن فإذا بها يستشعر لذة لا كدر لها ، وذاقت حلاوة الإيمان فاشتاقت إلى سماع المزيد من آيات الله البينات ، فالشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين من نعمة الله .

وألبسها الله لباس الإيمان فصفا قلبها ، وانكشف فيه فى لحظة من أسرار الله فى ملكوت السماوات والأرض ما لا تقدر عليه فى عشرات السنين ، فإذا بها تنجذب إلى السماء ، وإذا بها تحس قربا حقيقيا من الله ، وإذا بأنوار المعرفة تشرق فى فؤادها فهى على نور من ربها ، فقالت والعبرات تسيل على خديها :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقام إليها الطفيل يضمها إليه فى قوة كأنه وجدها بعد طول غياب .

وخرج الطفيل بن عمرو الدوسى إلى قومه فرحبوا به ، وألقوا إليه سمعهم ، فقد حسبوا أنه سينشدهم بعض شعره ، فإذا به ينهاهم عن عبادة ذى الكفين والآلهة الأخرى ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ويأمرهم أن يهجروا ما وجدوا عليه آباءهم ، فإذا بهم يقولون كما قال كفار قريش :

ـــ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون .

وكان بين قومه رجل آدم ، بعيد ما بين المنكبين ، ذو ضفيرتين أفرق الثنيتين ، أبيض لين ، لحيته حمراء ، يصغى إلى الطفيل فى اهتمام شديد ، وقد استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه ، فتعرض لنفحات رحمة ربه ، وافتتح الله عليه من مزايا لطفه ، فإذا فى فؤاده سراج يزهر ، وإذا بباب الفوز الأكبر يفتح على مصراعية ، وإذا به ينطلق فى طريق الوصول إلى الله .

وأبطأ قوم الطفيل عليه فانصرف مطرقا حزينا ، فقد ساءه وهو المطاع فى قومه أن يغلقوا أفئدتهم دون الحق ، واتبعه ذلك الرجل ذو اللحية الحمراء ، حتى إذا دخل بيته دخل عليه فقال :

ـــ اعرض على الإسلام .

فعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ، فقال الرجل بعد أن أنار الله بصيرته :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله.

كان الرجل أبا هريرة و لم يكن أكثر من راعى غنم ، ولكن الطفيل بن عمرو قد سر بإسلامه سرورا عظيما ، فقد كان أول من استجاب لدعوته من غير أهله . ولو عرف الطفيل فى ذلك الوقت مدى ما سيرفع الإسلام من شأن أبى هريرة لكان سروره أعظم وأشد .

١٩

رد أبو بكر جوار سيد الأحابيش ورضى بجوار الله لما طلب منه ابن الدغنة أن يدخل بيته يصنع فيه ما يحب ، وألا يصلى عند باب داره لأنه يستبكى إذا ما قرأ القرآن فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، وقريش يخشون أن تفتن رقته صبيانهم ونساءهم وضعفاءهم .

وخرج أبو بكر إلى الكعبة فلقيه سفيه من سفهاء قريش فحثا على رأسه ترابا ، وكان العاص بن وائل يمر إلى جواره يرفل فى حلته ، فالتفت إليه أبو بكر وقال :

— ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟

— أنت فعلت ذلك بنفسك .

فرفع أبو بكر بصره إلى السماء وقال :

— أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك !

ومشى أبو بكر إلى الكعبة فإذا بقريش فى أنديتهم ، وإذا بأبى طالب جالس فى ظل الكعبة حيث كان يجلس أبوه عبد المطلب ومن حوله رجال بنى هاشم والمطلب ، وإذا بالشيخ الذى وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا يشرد بذهنه يفكر فى ابنه الحبيب جعفر الذى هاجر إلى الحبشة مع من هاجروا إليها من المسلمين قبل أن يدخل بنو هاشم والمطلب الشعب ويحاصرهم فيه كفار مكة .

ورن فى ضمير الشيخ قول ابن أخيه : « يا عم إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها إلا اسما هو الله ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان » . ورأى بعين خياله الرجال الخمسة الذين اعتزموا تمزيق الصحيفة ، فود لو أن جعفرا قد رأى ما كان من هؤلاء الرجال ، فأبو طالب وإن كان لم يسلم فقد كان هواه مع المسلمين ، وكان حبه لبنيه الذين دخلوا فى دين الله يجعله يفرح لما يفرحهم ويشتهى أن لو سعدوا بلحظات الانتصار التى غابوا عنها .

كان لحس الأرضة للصحيفة الظالمة عملا هز وجدان كل المسلمين ، وكان أبو طالب يحب أن يشهد جعفر والذين معه فى الحبشة ذلك الحدث الجليل ، وكان ما صنعه الرهط من قريش فى نقض الصحيفة دليلا على تصدع جبهة المعادين لدين الله ، وعلى أن بين الكافرين بما جاء به محمد عليه السلام من يأبى الظلم والقطيعة والبهتان ، وملأت الانفعالات صدر أبى طالب فراح ينشد :

ألا هل أتى بَحْرِيَّنَا[1] صنع ربنا
على نأيهم والله بالناس أرود[2]

---

(١) من كان قد هاجر من المسلمين فى البحر إلى الحبشة .
(٢) أرفق .

فيخبرهـــم أن الصحيفـــة مـــزقت
وأن كل مـــا لم يـــرضه الله مـــفسد
تراوحهـــا إفك وسحـــر مجمـــع
ولم يُلف سحر آخر الدهر يصعـد
تداعـــى لها مـــن لـــيس فيها بقرقـــر
فطائرهـــا فى رأسهـــا يتـــردد
وكانت كفـــاءٌ وقعـــةٌ بأثيمـــة
ليقطـــع منها ساعـــد ومقلَّـــد[١]
ويظعـــن أهـــل المكـــتين فيهرُبـــوا
فرائصُهـم مـــن خشيـة الشر تُرعَـد
ويُتـــرك حـــراثٌ يقـــلب أمـــره
أيتهم فيهم عنـــد ذاك وينجـــدُ
وتصعـــد بين الأخشبين كتيبـــةٌ
لها حـدج سهـم وقـوس ومرهـــد[٢]
فمـن ينشَ مـن حضار مكـة عـــزه
فعزتنـــا فى بطـــن مكـــة أتْلـــد
نشأنـــا بها والنـــاس فيها قلائـــل
فلـم ننـــفك نـــزداد خيرا ونحمـــد
ونُطعم حتـى يترك النـاس فضلهـم
إذا جعلت أيدى المفـيضين تُرعـــد

---

(١) عنق .

(٢) رهده : سحقه سحقا شديدا .

جزى الله رهطا بالحجون تبايعوا
على ملأ يهدى لحزم ويُرشد
قعودا لدى خَطم الحجون كأنهم
مقاولة[١] بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه
إذا ما مشى فى رفرف الدرع أحرد[٢]
جرى على جُلّى الخطوب كأنه
شهاب بكفى قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤى بن غالب
إذا سيم خسفا وجهه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه
على وجهه يُسقى الغمام ويُسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد
يحض على مَقرى الضيوف ويحشِد
ويبنى لأبناء العشيرة صالحا
إذا نحن طفنا فى البلاد ويمُهد
ألظّ[٣] بهذا الصلح كل مبرأ
عظيم اللواء أمره ثم يُحمد

---

(١) ملوك .
(٢) الحرد : أن تثقل الدرع على الفارس .
(٣) لزم وألح .

قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا
على مهَل وسائر الناس زقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا
وسُرَّ أبو بكر بها ومحمد
متى شُرِّك الأقوام فى جل أمرنا
وكنا قديما قبلها نتودد
وكنا قديما لا نُقِرُّ ظلامة
وندرك ما شئنا ولا نتشدد
فيالقصى هل لكم فى نفوسكم
وهل لكم فيما يجىء به غدُ
فإنى وإياكم كما قال قائل
لديك البيان لو تكلمت أسود[1]

وراح أبو بكر يقلب عينيه فى الجالسين حول الكعبة ، فرأى رسول الله — ﷺ — وقد جلس عنده عمر بن الخطاب وبعض أصحابه فذهب إليهم ألقى عليهم السلام ثم قعد يصغى إلى حديث النبى الكريم ، فأحس كأن كل أوصاب نفسه قد انقشعت وغمرته سعادة روحية طاغية ، فما ألقى سمعه إلى حديث نبيه عليه السلام إلا أشرق النور فى قلبه وانشرح صدره انكشف له سر الملكوت .

كان السيد المسيح يقول للناس توبوا فقد اقترب الملكوت ، وكان يحيى

---

(١) أسود : اسم جبل كان قتل فيه قتيل فلم يعرف قاتله ، فقال أولياء المقتول هذه المقالة ، فذهبت مثلا .

ابن زكريا عليه السلام يقولِ توبوا فقد اقترب الملكوت ، وقد قال السيد المسيح لحوارييه ذات يوم إن الملكوت كلام الله على الأرض ، وقد أوحى الله إلى عبده قرآنه ، فكان أبو بكر وعمر والمسلمون إذا ما قرىء عليهما كلام الله أو إذا ما تلوا كلام الله تنشرح صدورهم وتفيض بالدمع أعينهم وترفع الأحجبة بين أفئدتهم والملكوت .

كانوا يرون بنور الله ، وكانوا يتبرون من علائق الدنيا ويزهدون فيها ويفرغون قلوبهم من شواغلها ، ويستعدون بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله عليهم من الرحمة ، فانكشف لهم الأمر ونظروا إلى الملكوت وفازوا الفوز الأكبر .

وبينا هم يتحدثون إذ نزل الوحى على رسول الله — ﷺ — فأطرقوا جميعا ، ولم يقو أحدهم أن يرفع إليه بصره ، وسمعوا عند وجهه دويا كدوى النحل ، فمكثوا ساعة حتى إذا ما فصم الوحى عنه استقبل القبلة ورفع يديه فقال :

— اللهم زدنا ولا تنقصا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا .

ثم التفت إلى أصحابه وقال :

— لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة .

ثم قرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون *والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون *

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون ﴾(١) .

كانوا يتحدثون فى الصلاة ، فإذا جاء أحدهم بعد أن يبدأ الإمام فى الصلاة ، يسأل : أهذه الركعة الأولى أم الثانية ؟ فكان أحد المصلين يرد عليه ثم يستأنف صلاته ، فلما نزلت هذه الآيات البينات بطل الكلام فى الصلاة ، ليفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون .

وكانوا يعرضون عن اللغو وينفقون فى سبيل الله قد سدوا فى وجه المعاصى كل المسالك المؤدية إلى أهوائهم ، ولكن الله تبارك وتعالى أراد أن يرشدهم إلى طريق الرفعة ، طريق الملكوت ، طريق الجنة التى أعدت للمتقين ، طريق الخلود .

ومر سادات قريش بالرسول عليه السلام فإذا بالمستضعفين من أصحابه جالسين إليه : خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث وصهيب ، فقالوا مستهزئين :

ـــ هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهو منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا .

وجاء إلى النبى عليه السلام بعض سادات العرب ونظروا إلى المستضعفين من أصحابه فى تأفف ، فقالوا :

ـــ نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك

---

(١) المؤمنون ١ ـــ ١٠ .

فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت .

كان النبى ﷺ يتلهف على انتشار دين الله وكان يرى فى اعتناق هؤلاء الأقوام الإسلام نصرا للدين ، وكان على ثقة من أن أصحابه الذين من الله عليهم بالهداية سيقدرون الحافز إلى استجابة دعوة هؤلاء السادة الأمجاد ، فقبل عليه السلام وهو كاره ما طلبوه ، فقام عنه أصحابه الفقراء ، وأراد المتكبرون أن يستوثقوا من دوام هذا التفضيل فقالوا :

— اكتب لنا كتابا .

فدعا بصحيفة وقدمها إلى على بن أبى طالب ليتكب لهم كتابا ، فإذا بالعرق يتفصد من جبين الرسول عليه السلام ، وإذا بالجهد ينزل به ، ولم يستطع أحد أن يرفع إليه بصره ، كان يوحى إليه ، حتى إذا ما انتهى الوحى رفض أن يكتب ما طلبوه ، وطلب دعوة المستضعفين من أصحابه ، واستمر فى قلق حتى إذا أقبلوا عليه بش لهم وقال :

— سلام عليكم . كتب ربكم على نفسه الرحمة .

ثم راح يرتل ما أنزل عليه : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾[1] .

---

(١) الأنعام ٥٢ — ٥٤ .

لم تعرف يثرب الاستقرار فالحروب مشبوبة بين الأوس والخزرج وقد هرع الناس إلى الحصون خشية القتل ، واليهود يمشون بين الحيين بالوقيعة حتى لا يتم بينهما صلح ، فما تصالحا إلا كانت الدائرة على اليهود .

وكان الظفر فى أكثر الحروب للخزرج على الأوس ، وكان الشعراء يلعبون دورا خطيرا فى تلك الحروب فحسان بن ثابت شاعر الخزرج يفخر بعشيرته وما تأتى من ضروب البطولة ، وقيس بن الخطيم يجاوبه بقصائد أقسى من وقع السهام ، وقد ذهبت الأوس لتحالف يهود بنى قريظة فبعثت الخزرج إلى اليهود :

ــ لئن فعلتم فأذنوا بحرب .

فوقع الرعب فى قلب اليهود فأرسلوا إلى الخزرج :

ــ إنا لا نحالفهم ولا ندخل بينكم .

فقالت الخزرج لليهود :

ــ فأعطونا رهائن وإلا فلا نأمنكم .

فأعطوهم أربعين غلاما من بينهم ففرقهم الخزرج فى دورهم ، فلما أيست الأوس من نصرة اليهود راحوا يتشاورون فى أن يحالفوا قريشا فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بين الأوس والخزرج أن من أراد حجا أو عمرة لم يعرض له فأجار أموالهم من بعدهم البراء بن معرور .

وخرج قيس بن الخطيم مع الأوس يطلبون الحلف من قريش ، فمر حسان بن ثابت بليلى بنت الخطيم فقال لها حسان :

ــ اظعنى فالحقى فالحى فقد ظعنوا ، وليت شعرى ما خلَّفك وما

شأنك : أقل ناصرك أم راث رافدك ؟

فلم تكلمه وشتمه نساؤها ، فراح يذكرها بشعره الذى قاله فى يوم الربيع :

لقد هاج نفسك أشجانها ... وعاودها اليـوم أديـانها
تذكـرت لـيلى وأنى بها ... إذا قطعت منك أقـرانها
وحجّل فى الدار غربـانها ... وخفت من الدار سكـانها
وغيرها معصرات الريـاح ... وسح الجنـوب وتهتـانها
مَهاة من الـعين تمشى بها ... وتتبعهـا ثم غـزلانها
وقـفت عـليها فساءلتها ... وقد ظعن الحى : ما شأنها
فعـيَّت وجاوبنـى دونها ... بما راع قلبـى أعـوانها

وأتى الأوس مكة ودخلوا دار الندوة وما خرجوا منها حتى كانوا قد حالفوا قريشا وخرجوا يطوفون حول البيت مستبشرين . وأقبل الوليد بن المغيرة على سادات قريش فلما علم بالحلف الذى كان بينهم وبين الأوس اربد وجهه وقال :

ــ والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخذوا شرفهم وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس بأى شىء :

قولوا لهم إنا نسينا شيئا لم نذكره لكم ، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت فرأى الرجل امرأة تعجبه قبلها ولمسها بيده .

فلما قالوا ذلك للأوس نفروا وقالوا :

ــ اقطعوا الحلف بيننا وبينكم .

فقطعوه وعاد الأوس إلى يثرب مكفهرة وجوههم فما وجدوا حليفا يقف إلى جوارهم فى قتال الخزرج ، فلما لم يتم لهم الحلف ذهب بنو حارثة

إلى خيبر فأقاموا بها سنة لم يمت منهم فيها عجوز ، فقالوا :

— أهون حادث موت عجوز فى سنة .

ورأى الخزرج ذهاب بنى حارثة إلى خيبر وهوان الأوس فراحوا يفتخرون عليهم فى أشعارهم ، وملأ الغرور زعيمهم عمرو بن النعمان البياضى فقال :

— والله لا يمس رأسى غسلا حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير وأقتل رهنهم .

كان ليهود بنى قريظة والنضير غزار المياه وكرام النخل ، وقد بلغهم ذلك التحدى وبلغ من كان فى يثرب من الأوس فمشوا إلى كعب بن أسعد القرظى فدعوه إلى المحالفة على الخزرج ففعل ، ثم تحالفوا مع قريظة والنضير فأصبح الأوس واليهود قوة قادرة على مناوأة الخزرج ، ثم أرسلوا بذلك إلى بنى حارثة الذين كانوا قد خرجوا إلى خيبر فقدموا ليضموا إلى الحلف ، فراح شعراء الخزرج يتغنون بجلاء بنى الحارثة إلى خيبر وأخذهن الرهن من اليهود فقال قائلهم :

هلم إلى الأحلاف إذ رق عظمهم
وإذ أصلحوا ما لا جذمان ضائعا

إذا ما امرؤ منهم أساء عمارة
بعثنا عليهم من بنى العير جادعا

فأما الصريخ منهم فتحملوا
وأما اليهود فاتخذنا بضائعا

وذاك بأنا حين نلقى عدوّنا
نصول بضرب يترك العز خاشعا

وأخذت الخزرج فى قتل الرهن فقد نقض اليهود اتفاقهم ودخلوا بينهم وبين الأوس وحالفوهم ، فقال كعب بن أسد القرظى :

ـــ إنما هى ليلة ثم تسعة أشهر وقد جاء الخلف .

وأرسل بنو قريظة وبنى النضير وهم الذين عرفوا بالصريح لأنهم من بنى الكاهن بن هارون إلى الأوس وقالوا لهم :

ـــ انهضوا إلينا فنأتيهم بأجمعنا .

فجاءت الخزرج إلى عبد الله بن أبى بن سلول فقالوا :

ـــ مالك لا تقبل الرهن ؟

فقال عبد الله بن أبى :

ـــ لا أغدرهم أبدا وأنتم البغاة وقد بلغنى أن الأوس تقول : منعونا الحياة فيمنعونا الموت . ووالله ما يموتون أو تهلكون عامتكم .

فقال له عمرو بن النعمان :

ـــ انتفخ والله سحرك .

فقال عبد الله بن أبى وهو ينظر إلى عمرو فى ضيق :

ـــ إنى لا أحضركم وكفانى أنظر إليك قتيلا يحملك أربعة فى كساء .

كان عبد الله بن أبى بن سلول يطمع فى أن يضع الأوس والخزرج واليهود التاج على رأسه ، حقا لقد كان خزرجيا إلا أنه كان يبذل غاية الجهد لكيلا يغضب الأوس ، وكان يمقت المتعصبين من الخزرج الذين يشعلون نيران الفتنة فما كان من الميسور أن يصبح التتويج حقيقة واقعة ما دامت العداوات ناشبة بين الحيين ، وكان يعمل على أن ينيم الشر إلى حين ، ولكن العصبية القبلية كانت تشعل الحروب على الدوام فلم يجد ابن أبى فرصة يحقق فيها أحلامه وأغلى أمانيه .

فاجتمع الخزرج وأرسوا عليهم عمرو بن النعمان البياضى وعبد الله بن أبى يرقب ذلك فى حنق شديد ، فهو يريد أن يطفئ هذه الحرب ولكن مشايخ قومه رأوا غير ما يريد ، وهو يرى غيره يرأس على قبيلته وهو يمشى على الأرض فكان الحسد ينهش قلبه ، ولكنه كان يتحلم بالصبر فما يطمع فيه أكثر من زعامة الخزوج وحدهم .

كان أبو عمرو الراهب مع الأوس و لم يخرج عبد الله بن أبى مع قومه بل دخل حصنه واعتزل فيه ، والتقى الأوس وحلفاؤهم بالخزرج فى ثبات ودار قتال رهيب بين الجانبين ، وراح قيس بن الخطيم يصول ويجول بين صفوف أعدائه يقط الرقاب ويطعن القلوب ، وكانت الدّبـرة على الخزرج ، وقتل عمرو بن النعمان وجىء به تحمله أربعة .

وحلفت اليهود لتهدمنَّ حصن عبد الله بن أبى فمشوا إلى الحصن ومعهم أبو عمرو الراهب و كانت تحته جميلة بنت أبى ، فلما أحاطوا بالحصن ، قال لهم عبد الله :

ـــ أما أنا فلم أحضر معهم ، هؤلاء أولادكم الذين عندى فإننى لم أقتل منهم أحدا ، ونهيت الخزرج فعصونى .

كان جل من عنده من الرهن من أولاد بنى النضير ففرحوا حين سمعوا بذلك ، فاجاروه من الأوس ومن قريظة فأُطلق أولادهم وحالفهم ، ثم راح يعمل فى دهاء ليؤلف بين قلوب الأوس والخزرج واليهود ليعرفوا له جميعا فضله فيضعوا التاج على رأسه راضين .

كانت حرب بعاث بين الأوس والخزرج حرب تطهير للأرض التى أعدها الله لهجرة رسوله ، قتل فيها عمرو بن النعمان زعيم الخزرج وقتل فيها رئيس الأوس حُضَير ، وقتل من أكابرهم من كان لا يُؤمَن أن يتكبر ويأنف

أن يدخل فى الإسلام ، و لم يبق منهم غير عبد الله بن أبى بن سلول وأبو عامر الراهب ليستمر الرسول عليه الصلاة والسلام فى كفاحه حتى يتم الله على المؤمنين نعمته ، فما كان الله سبحانه وتعالى ليفرش طريق رسله بالورود ، بل شاءت إرادته أنه بالصبر الإيمان والعرق والكفاح يُنال الفوز الأكبر .

٢١

كان أبو طالب مسجى فى فراشه وقد التف حول سريره على بن أبى طالب وأخوه عقيل وزوجه فاطمة بنت أسد والعباس وأبو لهب وبعض بنى هاشم ، فالشيخ كان يمضى آخر أيامه على الأرض فكان يقلب بصره فى وجوه الذين جاءوا لعيادته فيبدو على وجهه بعض ما يدور فى رأسه من أفكار وذكريات .

ودخل عليه أبو سفيان ابن أخيه الحارث فرفت بسمة ترحيب على شفتى الشيخ وأقبل يحادث شاعر الهاشميين فى ود عميق ، فقد حمل أبو سفيان بن الحارث لواء الشعر فى البيت الهاشمى بعد أن مات الزبير بن عبد المطلب ، وسيصبح المنافح الوحيد عن شرف قبيلته بعد أن يمضى الشيخ الذى هدته السنون ، فأبناؤه على وجعفر وعقيل وشباب المطلبيين الذين دخلوا فى الإسلام لم يحفلوا بالشعر .

وطاف بذهنه ابنه جعفر فاستشعر شوقا طاغيا إليه وود لو تكتحل برؤيته عيناه قبل أن يموت ، ولكن أنى له هذا ؟ فجعفر هناك فى الحبشة مع زوجه أسماء بنت عميس ، إنه فر بدينه من اضطهاد قومه ، خرج خائفا

يترقب من البلدة الطيبة التى يأمن فيها الطير ، فضل أن يكون فى رعاية الله على أن يكون فى جوار أبيه .

وراح يفكر فى جعفر ، رآه طفلا ورآه شابا وتذكر يوم أن رأى محمد ابن عبد الله وعليا يصليان وعليٌّ على يمين ابن عمه ، فالتفتِ إلى جعفر وقال : صل جناح ابن عمك . فصلى عن يساره .

ما كان أبو طالب عدوا للإسلام ولا عدوا لمحمد عليه السلام ، فهو على يقين من صدق ابن أخيه وأنه يدعو إلى مكارم الأخلاق وأنه لعلى خلق عظيم ، ولكنه كان يؤمن إيمانا عميقا بأن الله سبحانه وتعالى أجل من أن يبعث بشرا رسولا ، ولولا ذلك الإيمان الراسخ لدخل أبو طالب فى دين الله ، ولو فعل لكان ذلك فى غير صالح الإسلام، فلو أسلم أبو طالب وبادر أقرباؤه وبنو عمه إلى الإيمان به لقيل قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصبوا له ، ولأغلق أبناء بيوتات قريش المنافسة لبنى هاشم أفئدتهم فى عناد وجاهلية فى وجه أنوار اليقين .

وكان عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأمية بن خلف وأبو سفيان جالسين فى الحرم ، فجاءهم نبأ أن المرض قد ثقل على أبى طالب فقال بعضهم لبعض :

— إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا ، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شىء فتعيرنا العرب ويقولون : تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه .

كانوا يخشون أن تعيرهم العرب إذا ما قتلوا محمدا عليه السلام بعد موت عمه ، فبعثوا رجلا يقال له المطلب ليستأذن لهم فى الدخول على شيخ بنى

هاشم ، فانطلق إلى دار أبى طالب فقابل عليا فقال له :

— إن مشيخة قومك يستأذنون فى الدخول على أبيك .

فدخل على كرم الله وجهه ودنا من سرير أبيه فقال :

— هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم يستأذنون عليك .

— أدخلهم .

ومشى عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشرافهم إلى دار أبى طالب ، فلما دخلوا عليه قالوا :

— يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ونكف عنه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه، ولما دخل — ﷺ — على أبى طالب وكان بين أبى طالب والقوم فرجة تسع الجالس فخشى أبو جهل أن يجلس النبى — ﷺ — فى تلك الفرجة فيكون أرق منه فوثب أبو جهل فجلس فيها، فلم يجد الرسول — ﷺ — مجلسا قرب أبى طالب فجلس عند الباب.

والتفت الرسول — ﷺ — إلى أشراف قومه وقال :

— خلوا بينى وبين عمى .

— ما نحن بفاعلين وما أنت بأحق به منا . إن كانت لك قرابة فإن لنا قرابة مثل قرابتك .

فقال أبو طالب لرسول الله — ﷺ — :

— يابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا ليعطوك وليأخذوا منك .

فالتفت رسول الله — ﷺ — إلى سادات قومه وقال :

— تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه .

فصفقوا بأيديهم ثم قالوا :

— أيسع لحاجتنا جميعا إله واحد ؟

كانوا يؤمنون أن فى الأرض سبعة آلهة وفى السماء إلها ، وأن كل إله له عمله فقالوا :

— سلنا غير هذه الكلمة .

فنظر إلى عمه وقال :

— يا عم ما أنا بالذى يقول غيرها .

وقال بعضهم لبعض :

— والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه .

ثم قاموا وقبل أن يغادروا المكان التفتوا إلى رسول الله — ﷺ — وقالوا مهددين :

— لتكفن عن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذى أمرك بهذا .

وخرجوا ، وانطلق رسول الله إلى داره وهو حزين فعمه الذى يحوطه وينصره ويغضب له يجود بأنفاسه وقومه لا يزالون سادرين فى عداوتهم ، فقد مضت عشر سنين منذ أن نزل عليه الوحى فى غار حراء وهو يدعوهم إلى الهدى ليلا ونهارا فلا يزيدهم دعاؤه إلا فرارا ، لعله باخع نفسه ألا يكونوا مؤمنين .

وفكر فى أبى طالب ، فى الرجل الذى كفله بعد موت عبد المطلب والذى قال له بعد أن بعث ولقى من قومه عنتا : اذهب يابن أخى وقل ما

شئت . و لم يكن على دينه ، بل وقف كالطود فى وجه غضب قومه يبعد عنه أذى الحاقدين الثائرين المطالبين بدمه ، ولا يكتفى بحمايته بل يتحمل الأذى والجوع فى شعب أبى طالب ويظل محصورا سنتين ونصف سنة دون أن يضعف أو يلين ، فلولا عناية الله وحماية أبى طالب لكان فى الغابرين .

أن يموت أبو طالب وهو على الكفر يحز فى نفسه ، بل يغمره بالأسى العميق ، فهو يشفق على عمه الحبيب نار جهنم والعذاب الأليم ، فإن كان قد غادر بيت عمه فسيعود إليه يرجو الشيخ فى حرارة أن ينطق بشهادة الإيمان ليشهد له بها عند الله العظيم .

وفاضت أحزانه لما فكر فى تهديد قريش ، إنهم سيسبون الله سبحانه وتعالى إن سب آلهتهم ، وهو لا يدرى ماذا يفعل حيال ذلك التهديد . لماذا أبى أكثر الناس إلا كفورا ؟ لماذا يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير ؟ إنه ليحزنه إعراض أبى طالب عن الحق وإنه يتوق إلى أن يأخذ بيده إلى الجنة ولنعم دار المتقين . وإنه ليحزنه استكبار قومه ويزيد فى أساه تهديدهم بسب الله وهجوه .

كان يأسو على عمه وعلى قومه ، وفيما هو غارق فى أحزانه نزل عليه الوحى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾[١] ، فبعث إلى كتاب الوحى ليكتبوا ما أنزل عليه فى سعف النخل والرقاع والعظام ويتلوه على المؤمنين .

وانقلب رسول الله ﷺ إلى عمه ، فراح أبو طالب يرمقه من بين أجفانه التى ثقلت فيستشعر راحة ، فهو فى قرارة نفسه يحب ابن أخيه عبد

---

(١) الأنعام ١٠٨ .

الله حبا يفوق حبه لبنيه ، حبا استولى على مشاعره حتى إنه كان لا يطيق فراقه . وتذكر أنه عما قريب سيودع الدنيا فرأى أن يوصى بنى هاشم بمحمد خيرا فقال :

— يا معشر بنى هاشم ، أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا .

فلما قال ذلك طمع رسول الله — ﷺ — فيه فقال :

— يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟

— فما تريد يابن أخى ؟

— أريد أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله .

فقال أبو طالب فى وهن :

— يابن أخى قد علمت أنك صادق ، ولكنى أكره أن يقال إنى قلتها جزعا من الموت .

فراح رسول الله يقول له :

— أى عم ، فأنت فقلها أستجل لك بها الشفاعة يوم القيامة .

— والله يابن أخى لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن أنى إنما قلتها جزعا من الموت لأقررت بها عينك لما أرى من شدة وجدك .

وجاء أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبى ابنى خلف وعتبة بن أبى معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البخترى إلى أبى طالب ورسول الله — ﷺ — عنده وقد استولى عليه الجزع خشية أن يموت أبو طالب على كفره ، فهو يطمع فى هدايته وفى انتشاله من الضلالة قبل أن تفيض روحه جزاء على عطفه عليه ونصرته له وقيامه دونه ، فلما رأى أبو طالب وجهاء قريش راح يوصيهم :

— يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة . أوصيكم بتعظيم هذه البنية (الكعبة) فإن فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش .

صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن صلة الرحم منسأة (فسحة) فى الأجل ، وزيادة فى العدد ، واتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم . أجيبوا الداعى وأعطوا السائل ، فإن فيهم شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام .

وصمت أبو طالب يلتقط أنفاسه فدنا محمد عليه السلام من سريره ليقول له فى توسل : « قل يا عم لا إله إلا الله » ، ولكن أبا طالب قال وهو يقلب عينين واهنتين فى وجوه سادات قريش الذين بدوا له كأشباح :

— وإنى أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين فى قريش ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن . وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا . إذ أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم يا معشر قريش ، كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد .

فلاحت الرقة فى وجه على بن أبى طالب واستبد به انفعال شديد ، فلم يبق على إسلام أبيه إلا أن ينطق بالشهادة فيتوج جليل أعماله بتاج المتقين ، ويفوز بجنات النعيم . وراح يرقب رسول الله — ﷺ — وهو يدنو من أبيه الذى كان يعانى سكرات الموت بقلب يتأرجح بين الرجاء واليأس ، ويبتهل فى أعماقه إلى الله أن يشرح قلب الشيخ إلى الإيمان وأن ينيره بأنوار اليقين .

ومال محمد — ﷺ — على عمه الذى يجود بأنفاسه وقال وقد ترقرق الدمع فى عينيه :

— يا عم قل أشهد أن لا إله إلا الله .

كان رسول الله — ﷺ — يريد أن يدخل عمه فى رحمة الله ، يريد ألا يموت عمه وهو ظالم لنفسه ، يريد ألا يخزيه الله يوم القيامة ، يريد أن تتوفاه الملائكة طيبا . إنه يحرص على هداه ، فنياط قلبه تكاد تتمزق أسفاً على أن عينى عمه فى غطاء عن ذكر الله . إنها لحظات فإن لم ينطق أبو طالب بالشهادة قبل أن يلفظ آخر أنفاسه فستحبط أعماله فلا يقيم الله له يوم القيامة وزنا ، وأشفق عليه فقال فى نبرات متوسلة كأنها ذوب نفسه الطاهرة :

— يا عم قل أشهد أن لا إله لا الله .

وراح سادات قريش ينظرون فى قلق وقد تعلقت أعينهم بشفتى الرجل الذى كان يحتضر ، فإن نطق بالشهادة فسيزعزع ذلك موقف العناد الذى يتخذونه من ابن أخيه ، بينا كان على بن أبى طالب ومن حضر من المسلمين يتلهفون على أن ينطق الشيخ الجليل بالشهادة ليزحزح نفسه عن النار ، كانوا يستشعرون خطر اللحظة ، إنها كلمة ثم تصبح الجحيم هى المأوى أو

الجنة هى المأوى .

وخشى أبو جهل أن يلين الشيخ لتوسلات ابن أخيه وأن يرق لعبراته فقال :

ــ بل على ملة عبد المطلب ..

وارتفعت أصوات الكافرين :

ــ على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

فقال أبو طالب فى صوت خافت :

ــ أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

واشتد وجد رسول الله ــ ﷺ ــ ونزل به جزع شديد ، وملأت الدموع عينى على بن أبى طالب ، وهل أوجع للقلب أن يرى الابن البار أباه الحبيب يلقى بنفسه فى أتون الجحيم ؟

إن عليا يكاد يتفجر أسى فهرع إلى أبيه يتوسل إليه أن يستجيب لدعوة رسول الله ــ ﷺ ــ قبل الفوات ، وراح العباس يقلب عينيه بين أخيه الذى كان فى النزع الأخير وابن أخيه على بن أبى طالب الذى ارتمى على صدر أبيه يحاول أن ينتزع منه الشهادة قبل أن يسبقه الموت بانتزاع الروح ، وبين رسول الله ــ ﷺ ــ الذى ارتسم على وجهه المتألق بالنور أبلغ آيات الأسى العميق .

وراح أبو لهب يمد عينيه إلى ما يجرى أمامه فإذا به يتمنى أن تخمد أنفاس أخيه لينتهى ذلك القلق المدمر الذى استبد به ، فالانفعالات التى مارت فى وجدانه كانت أعنف من أن يحتملها الشيخ الذى أمضى حياته فى اللهو والميسر والشراب .

وكانت فاطمة بنت أسد تذرف الدمع الهتون وما كانت لتحفل بذلك الذى يجرى بين سادات قريش وبين الرسول عليه السلام ، فقد كانت حزينة حتى الموت لفراق الرجل الذى شاركها الحياة والذى كان نور العينين وهواء الرئتين وخفقات الفؤاد .

وشهق أبو طالب شهقة فإذا به فى الغابرين ، فأطرق رسول الله — ﷺ — وهو واله حزين ، ثم ألقى نظرة وداع على عمه الحبيب فقال :

— أما والله لأستغفرن لك .

وضاق صدر على ابن أبى طالب فجعل يغدو ويروح وهو يسح الدموع ، وملأ الرضا قلوب أبى سفيان وأبى جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبىّ ابنى خلف وعقبة بن أبى معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البخترى ، فقد مات أبو طالب على ملتهم ملة عبد المطلب وهاشم وآبائهم الأولين .

ورأى على بن أبى طالب من خلال دموعه الراحة التى ارتسمت على وجوه شيوخ قومه فأحس كأن خناجر مسمومة تمزق أحشاءه ، إنه لم يقف من قبل موقفا أغيظ له من هذا فأبوه قد اختار النار على الجنة ، وكفار قريش قد اغتبطوا لموت أبيه على الكفر فلن ينسى لهم أبدا أنهم هم الذين حرضوا أباه على أن يموت على ملة عبد المطلب وهاشم وقصى ، أيقظوا فيه فى لحظة ضعف عصبية الجاهلية ودفعوا به إلى السعير .

وخرج رسول الله — ﷺ — وعيناه تفيضان من الدمع حزنا يشكو بثه إلى الله ، فهو لا يستطيع أن يذهب إلى خديجة ينبئها أن عمه الحبيب قد مات لتشاركه فى أحزانه ولتحمل عنه بعض ما يضيق صدره ، فخديجة مسجاة فى فراشها قد ثقل عليه المرض منذ أيام .

وبقى رسول الله — ﷺ — وحده وقد فاض فؤاده بالأسى ، وراح يتذكر أيامه مع أبى طالب ، يتذكر طفولته ورحلة الشام ، وعرض عمه عليه أن يؤجر نفسه لخديجة ، وخطبة عمه يوم أن ذهب معه ليخطب الطاهرة سيدة نساء قريش ، وذلك اليوم الذى تكلمت فيه قريش وطلبت منه أن يخلى بينهم وبينه عليه السلام ، وإباءه ذلك وقوله له عليه السلام اذهب يابن أخى وقل ما أحببت .

إنه جزء من حياته ، إنه جزء من رسالته ، فإن كانت خديجة أم المؤمنين حاضنة الإسلام فأبو طالب قد دافع عنه دفاع الصناديد ولو أنه لم يعتنق دينه إيمانا منه بالحرية . إنه أبى أن يسلم ابن أخيه وقبل منابذة المشركين لبنى هاشم وبنى المطلب ، ودخل فى الشعب وحوصر واحتمل آلام الاضطهاد والجوع . إنه يستحق أن يبتهل رسول الله — ﷺ — إلى ربه ودموعه تجرى على خديه وأن يستغفر للرجل الذى حدب عليه وكان يحيطه وينصره ، وقبل أن يرفع أكف الضراعة إلى الله تفصد العرق منه وثقل جسمه ونزل عليه الوحى بآيات ربه : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[1] .

---

(١) التوبة ١١٣ .

٢٢

كانت خديجة مسجاة فى فراشها وقد ذبلت ودب الوهن فى جسدها ، ولكن عقلها كان صاحيا فكانت الذكريات تنثال على رأسها ، إنها ترى ذلك اليوم الذى خرجت فيه إلى الحرم مع سيدات من قومها فى عيد من أعيادهم وجاء يهودى ووقف يصيح : هذا زمان ظهور نبى ، فمن استطاعت منكن أن تكون له فراشا فلتفعل . وإنها لترى النساء يحصبنه بالحصى بينما وقفت ساكنة ، وإن كان قوله قد استقر فى سويداء قلبها .

وإنها لتذكر ذلك اليوم الذى رأت فيه فى منامها الشمس تهبط من السماء لتستقر فى سقف دارها فتنشر منها ضياءها على العالمين ، ورأت بعين خيالها قوافلها تستعد للخروج إلى الشام ومحمد بن عبد الله يغدو ويروح بين مخازنها والقافلة وهى ترقبه من العالية ، وسرعان ما رن فى ضميرها صوت ميسرة وهو يحدثها عن الأمين وعن الأرباح التى كسبوها بحسن خلقه وجميل شمائله .

وجاء رسول الله — ﷺ — وهو يحاول أن يخفى القلق الذى استبد به وراح يسألها كيف أصبحت ، وجلس إليها يحدثها فى رقة ويحوطها بحبه فكانت على الرغم مما تعانى من آلام مرضها تستشعر راحة نفسية ، فهو حبيبها وزوجها ورسولها الذى أخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام والسلام ، وأخذ بيدها إلى النبع الروحى الصافى الذى نهلت منه فلم تظمأ بعدها أبدا . إنه ارتفع بها من دنيا الماديات إلى عوالم السعادة الأبدية ، فتح بصيرتها وفؤادها لاستقبال نفحات ربها وعرفها سبل اللذة

الحقة ، لذة النظر إلى وجه الله والسعادة بالقرب منه والاستبشار بإشراق أنوار المعارف فى عين ذاتها .

ورأته بعينيها الزائغتين فحاولت أن تبتسم فى جهد دون جدوى ، فهى تحاول حتى فى أشد الأوقات قسوة أن تلقاه باشة ، فهو زوج كريم لم يخدش كبرياءها أبدا ، ظل منذ أن تزوجها الزوج الوفى الذى لم يفكر فى أن يتزوج أخرى أو يتسرى بجارية من الجوارى ، وما كان فى مكة كلها من اكتفى بزوجة واحدة فالرجال يتزوجون كيفما يشاءون ويتسرون بالإماء دون حدود . ولكن رسول الله — ﷺ — كان يحبها حبا ملك عليه كل عواطفه ، حبا صافيا عظيما جليلا لا يدع مجالا لحب آخر ، وقد شد أواصر ذلك الحب أن الزوجين الكريمين كانا يحبان ذات الله ويتفانيان فى عبادته .

ومرت بخيالها الليالى التى كانت تقومها خلف رسول الله — ﷺ — تصلى فى استغراق ، حتى تغيب عن الدنيا وترتفع على أجنحة الشوق لتهيم فى ملكوت السماء تغترف من خزائنه لطائف المعارف والسعادة السرمدية.. والساعات الطويلة التى كانت تقفها بين يدى ربها تبتهل إليه والدموع تسيل على خديها أن ينصر رسوله وأن يتم نوره ، فلفها أسى عميق أن ستغادر الدنيا تاركة محمدا عليه السلام ليقطع الشوط وحده دون أن تشاركه لذة الكفاح والبذل حتى يأتى نصر الله . فاغرورقت عيناها بالدموع وخنقتها عبراتها .

إنها ذاهبة إلى إله كريم زهدت فى الدنيا من أجله وأنفقت أموالها فى سبيله وبذلت كل ما فى طاقتها بل ما فوق طاقتها لتؤيد رسوله وتهيئ له الأسباب ليبلغ رسالات ربه . إنها ليست حزينة على إدبارها ولكنها تكاد

أن تتمزق أسى كلما خطر لها أن سيصبح زوجها الحبيب وحده أمام الذين قست قلوبهم ، دون أن يجد القلب الحنون الذى يمسح آلام نفسه التى تمزقها سخرية الساخرين وهزء المستهزئين ممن بعثه الله لهم هدى ورحمة ونورا .

إنها على يقين من أنه مع الله وأن الله معه ، ولكنه كان يعود إليها بعد أن يعرض على الناس دين الله ويتلقى إهاناتهم مرهقا حزينا ، فكانت تواسيه وتغمره بعطفها حتى تصفو نفسه ويستعيد عزمه وتشتد روح الكفاح فيه . فإلى من يعود رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ بعد الجهاد والتعب والكفاح ؟ سيعود إلى بيت خلا من الأنيس الذى يشاركه فى حمل متاعبه . سيعود إلى الوحدة والصمت وإرسال الخيال إلى ما لاقى من اضطهاد فيزداد حزنا على حزن .

سيتألم دون أن يجد من يخفف عنه آلامه . سيبكى دون أن يجد من يجفف له دموعه ، سيغلق صدره على لوعة نفسه فلن يجد من يبثه أشجانه ، سيدخل صامتا ويخرج صامتا وما أقسى أن يصبح صاحب الحس المرهف حليف الوحدة والأحزان .

كانت الدموع تبلل روحها والأسى يعتصر قلبها لأنها ستترك الرجل الذى ملأ حياتها غنى وحده ، لأنها ستحرم اللذة الروحية الصافية التى كانت تنعم بها حتى فى أقسى أيام الاضطهاد . لقد أكلت ورق الشجر أيام أن حاصرهم الكافرون فى شعب أبى طالب ، ولكنها كانت متفرحة بالله ، سعيدة بالأنس به ، مستبشرة بترقب رحمته . كانت حياتها مذ عرفت رسول الله ـــ ﷺ ـــ حقيقة أمتع من الأحلام ، مفعمة بالروعة والآمال التى كانت تسمو فوق كل الآلام .

وأطبقت جفنيها على عينيها ولكن الرؤى استمرت تلح على خيالها وصدى صوت رسول الله — ﷺ — يهمس فى وجدانها ، إنها تسمعه وهو يقول لها : إن جبريل يقرئك السلام من ربك ، فترتجف من الرأس إلى القدم ؛ ويسرى فى ضميرها ترجيع صوت الرسول عليه السلام وهو يتلو القرآن ، فتحس كأنما ترتفع لترفرف فى السماوات العلى وقد غمرتها رقة فياضة تفيض من المآق عبرات وبستجيب لها القلب الواهن شدة خفقات .

ومر بخاطرها يوم أن مات القاسم فاستشعرت أسى ، إنها لم تفطن فى ذلك اليوم إلى عظم الفاجعة فما كان أبو القاسم قد نبئ بعد . أما الآن فإنها تقدر فداحة المصاب ، فلو أن القاسم كتب له أن يعيش لورث مجد النبوة ولكانت منه سلالة رسول الله — ﷺ — .

وطاف بها طيف عبد الله الطيب الطاهر الذى قرت به عينا وفرح رسول الله — ﷺ — لمولده وسر به المسلمون سرورا عظيما لأنه قد أصبح لنبيهم من يحفظ فيهم نسله الشريف . إنها كادت أن تطير به فرحا فقد جاءها بعد أن يئست من أن تلد لرسول الله — ﷺ — ذكرا . ولكن نشوتها ماتت فى مهدها فقد فاضت روح ابنها الحبيب فى أحضان أبيه الواله الحزين ، حزنت على عبد الله حزنا كاد ينقض ظهرها ولكنها وجدت السلوى فى تفريغ القلب من شواغله والإقبال بكنه الهمة على الله ، والعزاء فى أنها قد أصبحت أم المؤمنين جميعا .

وراح رسول الله — ﷺ — ينظر فى وجهها فيلفه خوف شديد . كانت الطاهرة وسيدة نساء قريش ناصعة البياض غاضت حمرة وجنتيها وخبا بريق عينيها ومشى الفناء فى جسدها المسجى . أتموت أم المؤمنين ولما

يمض على موت عمه ثلاثة أيام ! إنه لم يفق بعد من هول فجيعته فى عمه أبى طالب . إنه حزن لموت عمه الذى نصره حزنا عميقا وزاد فى أساه أنه كان قد عزم على أن يستغفر لعمه ولكن الله نهاه عن أن يستغفر له . وقد أحس فداحة غياب خديجة من حياته لما كتم آلامه ولم يبثها شجونه ، فكيف يشكو إليها ما به وهى مريضة تسرع الخطا فى طريق الفناء ؟

الموت ؟! أتموت خديجة حقا ؟! أتتركه بلا نصير يلاطم أمواج الحياة وحده ؟ أتذهب وتترك داره بلا روح ؟ ومن للصبية من بعد الأم الرءوم التى تبسط حنانها على الجميع ؟ وحانت منه التفاتة إلى فاطمة الزهراء فأحس كأن كبده تكاد أن تنفطر . وزاد فى كربه أنه فطن إلى أن ابنته الحبيبة الرقيقة قد عرفت الموت فى وجه أمها ، فراحت تغالب دموعها حتى لا تؤذى ببكائها من كانت تغمرها بالحب والحنان .

أيفقد أبا طالب وخديجة فى ثلاثة أيام ؟ أيفقد الحماية والرعاية والعطف والتأييد والنصر فى ساعات ؟ إن موت أبى طالب كان فاجعة ، أما موت خديجة فكارثة ، ستجرح قلبه جرحا لن يندمل على الأيام . صدقته لما كذبه الناس ، وأنفقت أموالها راضية فى سبيل الله لما بخل الناس ، وواسته ونصرته لما عز الأنصار ، ولولا حضانتها للإسلام لما بلغت دعوته ما بلغته .

وشرد رسول الله — ﷺ — وفى وجهه أعمق الأسى ، وراح يقلب صفحات الماضى فى وجد وقد غلبته رقته فترقرقت الدموع فى عينيه . رأى نفسه وقد عاد من غار حراء بعد أن نزل عليه الوحى ترتجف بوادره وخديجة تستقبله فى خوف ، حتى إذا ما سمعت منه ما كان بينه وبين الروح الأمين قالت له فى إيمان : أبشر يابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده

إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

كان فى حاجة إلى من يسكن روعه ، فلم تكتف خديجة بإنزال السكينة على قلبه بل نفثت فى روحه من إيمانها وأيدته بتصديقها ، و لم تذهلها المفاجأة بل قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله — ﷺ — أنه رأى وسمع ، ثم رجعت مستبشرة إلى زوجها لتقول له إن ابن عمها قال لما سمع منها : قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة .

وراحت خديجة تدور على أحبار اليهود ورهبان النصارى تسأل عن جبريل فيقال لها : قدوس قدوس ! يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم ؟ فتقول : بعلى ابن عمى أخبرنى أنه يأتيه . فيقال لها : ما علم به إلا نبى ، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، فإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يتسمى به .

إنه لا ينسى ذلك اليوم الذى سمع فيه صوتا من السماء فرفع بصره فإذا الملك الذى جاءه بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعب منه أشد الرعب فرجع إلى خديجة يقول لها :

— زملونى زملونى !

إنه لا يستطيع أن ينسى عطفها السابغ وحدبها عليه وثباتها . فلو أن خديجة فزعت أو ذهبت نفسها شعاعا لزادت فى آلامه ، فإنه أشفق على نفسه أن يكون به كهانة ، وخشى أن يكون به جنون ، ولكن قولها العظيم الذى قالته بدد مخاوفه . إن ذلك القول يمده بقوة هائلة كلما اشتد به الكرب وإنه ليسرى فى ضميره كأجمل أنشودة ترددت فى وجدان الزمن :

« كلا يابن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث » .

ورقت نفسه وود لو أجهش بالبكاء ، ولكنه كان يعالب دموعه وإن سرت فى كل كيانه مرارة الفراق . فما أقسى أد يتصور أن سيعود يوما إلى الدار وقد خلت من الطاهرة ، من كانت ابتسامتها التى تستقبله بها تغسل أوصاب نفسه ، وإقبالها عليه وقد تهللت بالفرح يجدد آماله التى كاد يزعزعها عناد المعاندين وهزء المستهزئين . إنه ما سمع شيئا يكرهه من قومه إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها وأخبرها به . إنه لا يدرى ماذا يكون حاله لو لم يكن الله قد قيض له خديجة لتكون حاضنة الإسلام وراعية رسوله .

وأحس فى تلك اللحظة أكثر من أى وقت مضى أن الله قد اصطفى خديجة لتكون زوجة رسوله لأن الله يعلم ما أودع فى قلبها من كنوز عالية نادرة قلما تجتمع فى قلب امرأة : حب عارم لله ورسوله ، وإيمان عميق بالله ورسوله ، وعدم خشية لومة لائم فى الله ورسوله ، وإنفاق عن طيب خاطر فى سبيل الله ورسوله ، وتضحية عن رضا بكل غال مرضاة لله ورسوله ، وزهد فى الدنيا وقطع كل العلائق بها للإقبال بكنه الهمة على الله ورسوله . كان فؤادها مستودعا لكل ما فى البشرية من جلال وفضائل وخلق عظيم .

وطاف بذهنه أول يوم خرج فيه إلى الكعبة ليصلى لله و لم يكن معه غير سيدة نساء قريش وعلى بن أبى طالب . كانت ثابتة الخطو هادئة النفس لاذت بالسكينة كأنما لم تكن خارجة لتعلن على الملأ أنها اختارت دينا غير دين قومها ، وأنها كفرت بما ورثت من عقائد أسلافها ، غير حافلة بأنها تسفه أحلام الآباء ما دامت قد أحست إشراق أنوار اليقين فى عين ذاتها ، إن أروع ما فيها أنها صادقة مع نفسها قد وهبت حياتها وما ملكت يداها لله

ولرسول الله .

وجاء ابنها هند بن أبى هالة ومال عليها وقبلها وراح يسألها :

— كيف أنت يا أمه ؟

فحاولت أن تحرك شفتيها ولكنها عجزت عن أن تتكلم ، ففتحت عينيها وملأتهما منه ، ثم التفتت إلى زوجها الكريم فإذا بالأسى يغمره وإذا به يحاول أن يبعد عينيه عن عينيها حتى لا ترى ما فيهما من أحزان . إنه رقيق مرهف الحس . ويا طالما تهللت بالفرح كلما ارتادت معه عوالم ما فوق الطبيعة وما وراء المحسوسات ، ويا طالما انقلبت مستبشرة بشرف ما حصلت عليه من معلومات وسعيدة بالعطايا النورانية التى وهبت لها من جود الله وكرمه ، ولكنها فى هذه اللحظة أحست أن يدا قوية تعتصر قلبها لا جزعا من الموت بل حزنا على فراق رسول الله — ﷺ — .

وجاء أسامة بن زيد وارتمى فى أحضان الرسول عليه السلام ، كان زيد ابن محمد قد تزوج أم أيمن وكان أسامة ثمرة ذلك الزواج الذى باركه رسول الله — ﷺ — . وكان عليه السلام يحب زيدا ويحب أسامة ، فكان يقال لأسامة الحب ابن الحب . وكان الرسول يبتهج إذا ما مشى إليه ، وكان يستقبله بالترحاب ويقبله فى عطف أبوى ، ولكنه احتوى الصبى بين ذراعيه وهو صامت ، فقد كان قلبه ينز حزنا على خديجة الوفية التقية التى أحسنت فى هذه الدنيا حسنة وهى على صراط مستقيم .

وذاع فى مكة أن أم المؤمنين تجود بأنفاسها فهرعت إليها أختها هالة وابنتها زينب وزوجها العاص بن الربيع ، وخرجت تشتد إليها أم الفضل زوجة العباس ، وفاطمة بنت أسد وإن لم يمض على موت زوجها أبى طالب ثلاثة أيام ، فقد تعلقت بالطاهرة القلوب .

ودخلت زينب على أمها ونظرت فى وجهها فلاح عليها الجزع الشديد ، ورأى رسول الله — ﷺ — الحزن والألم فى وجه ابنته فلم يحتمل البقاء فانسحب خارجا يبكى وينتحب ليطفئ النار التى تلظت بين ضلوعه .

وراحت زينب تنادى أمها الحبيبة فى لهفة ، وهالة تذرف الدموع على أختها ، وفاطمة الزهراء تتلوى من الألم وعبراتها تغسل وجهها . وفتحت أم المؤمنين عينيها فرأت زينب فمدت يدها وقبضت بها على يد الغالية ، وشرد خيالها فرأت رقية وزوجها عثمان بن عفان وقد وقفا يودِّعانها قبل الهجرة إلى الحبشة . كانا كملكين كريمين جميلين جليلين يفران من الأبالسة ، فعقبة بن أبى معيط زوج أم عثمان بعد موت عفان ، قد سامهما سوء العذاب حتى هان عليهما فراق الأهل والوطن والأحباب .

وملأها على الرغم من الوهن الذى مشى فى بدنها حنين إلى رقية وعثمان ، فيا طالما سمعت من زوجها عن جمال سارة زوج إبراهيم فكانت تتخيلها كرقية ، ويا طالما سمعت منه عن جمال يوسف فكانت تراه بعين خيالها فى صورة عثمان . وكانت تصغى إلى سورة يوسف فتتحرك أشجانها للغلام الذى انتزعته القسوة من أحضان أهله . وما دار بخلدها أن سيأتى يوم تفر فيه بناتها من وجه الاضطهاد .

إن رقية هناك فى الحبشة وهى تتلهف على أن تراها قبل أن تموت ، إنها فى شوق إلى أن تشم ريحها ، إلى أن تمرر يدها على شعرها ، إلى أن تضم صدرها إلى صدرها ، إلى أن تلثم عينيها ووجنتيها وشفتيها ، وأن تمتزج دموعها بعبراتها ، وأن تختلط أنفاسها بأنفاسها ، ولكن هيهات ! ستذهب دون أن تودع فلذة كبدها فقد كان وداعها يوم أن خرجت إلى الحبشة

آخر الوداع .

وشهقت أم كلثوم شهقة وهى فى غمرة الأسى فالتفتت إليها العيون الدامعة كأنما تنهاها عن ذلك النحيب الذى يؤذى الطاهرة ، فانسلت من الغرفة لا يرقأ لها دمع فإذا بأبيها عند باب الغرفة واقف يمسح الدموع ، فاستشعرت أم كلثوم كأنها ستلفظ روحها مع عبراتها .

ودخل على بن أبى طالب وقد تمزق حزنا على موت أبيه على كفره ، وما مد الفتى عينيه إلى أم المؤمنين حتى أحس بقلبه ينخلع من مكانه ، أينضب ينبوع الحنان الذى نهل منه أنبل المشاعر مذ جاء إلى هذه الدار مع ابن عمه ؟ أتغيب أم المؤمنين من حياة رسول الله عليه السلام ؟ وما دار بخلده ذلك الخاطر حتى فزع وغص فما كان بقادر على أن يتصور عيش رسول الله الحبيب وقد اختفت من حياته الطاهرة وزيره وعونه بعد الله .

وراح الفتى يبكى فى صمت المروءة والشجاعة والأنفة والحنان وحلاوة اللسان وصدق النية وصلاح السريرة ، إنها كانت تعمل للآخرة دائما أبدا ، لا تنفك عن ذكر المعاد . رضيت عن الله ورضى الله عنها ، فطوبى لخديجة ولرسول الله العزاء .

وجاء حكيم بن حزام يلقى على عمته نظرة أخيرة فوقف أمام جلال الموت مطأطئا حزينا ، نسى فى تلك اللحظة أنها حاضنة ذلك الدين الذى جاء به زوجها ليسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ويفرق به بين الأخ وأخيه والرجل وصاحبته والأب وبنيه ، ولم يعد يذكر إلا أنها عمته التى كانت تغمره بحنانها وكان يهفو إليها قلبه . إنه يحبها حبا صادقا على الرغم من كل ما كان بينه وبينها من أمر الدين ، وإنه يحس غصص الدموع فى حلقه وقد فاض بها وجدانه ، وراح يجاهد دموعه فلزم الصمت فكان صمته أبلغ

بيان .

وهرعت نساء بنى هاشم وبنى أسد إلى دارها وفاضت بهن غرفتها ، وجاءت أم أيمن إلى رسول الله — ﷺ — وقد أفحمت بالبكاء تقول له إن سيدتها الطاهرة تطلبه ، فوقف عليه السلام أمام باب حجرتها لا يستطيع أن يتقدم خطوة ، فأم المؤمنين فى النزع الأخير وهو لا يحتمل أن يراها وقد ضاق صدرها بروحها . إنه يتمزق من الألم ويهتز من الحزن حتى ليكاد ينهار ، واختلس إليه النظرات على بن أبى طالب وزيد بن محمد وهند بن أبى هالة فانقبضت قلوبهم وأحسوا كأن شوكا يعترض حناجرهم وقد تحركت فيهم الشفقة على حبيبهم حتى كادت أن تنسيهم عظم فجيعتهم فى الأم الحنون التى سكبت فى وجدانهم أرق المشاعر وأنبل الإحساسات .

وجاءت أم الفضل إلى رسول الله — ﷺ — وعيناها تفيضان من الدمع حزنا لتقول له إن خديجة تناديه ، فجعل رسول الله يتلفت بعينين زائغتين وقد نزل به حزن ثقيل ، وأشفق على نفسه من قسوة معاينة الطاهرة وهى تموت فلم تطاوعه قدماه على الدخول بل ظل فى مكانه عند الباب لا يريم وقد سرت جمرات الحزن بين ضلوعه .

وارتفعت الأصوات بالنحيب فكان ذلك إيذانا بانطواء أربع وعشرين سنة وثمانية أشهر شاركت فيها خديجة بعلها العظيم حياة التقشف التى فرضها على نفسه قبل الرسالة ، وحياة الكفاح وتحمل كل الإساءات فى سبيل الرسالة وإشراق النور . وصكت الأصوات آذان الواقفين خارج غرفة الطاهرة مطرقين فانفجروا بالبكاء . وقد ذهل رسول الله — ﷺ — عن نفسه فانخرط فى النحيب ، ولم تقو رجلاه على حمله فانهار وهو يحس كأن نارا استشرت فى جوفه ، فإنه لشيء أليم موجع لقلبه أن تذهب

خديجة رفيقته وأنيسته وأن تتركه وحده فى ظلام الطريق .

واستشعر كأن العواصف والأعاصير قد هبت عليه وهو يضرب فى بيداء الحياة وليس له من ناصر يعينه على تبليغ رسالات ربه . وزاد فى كربه أن زينب وأم كلثوم وفاطمة الزهراء كن يولولن ويندبن الطاهرة سيدة نساء قريش وأم المؤمنين ، وأن أم أيمن جعلت تغدو وتروح والهة حزينة بينا راح أسامة يجأر بالبكاء يعلو صوته على صوت الجميع .

وجاء المسلمون إلى بيت نبيهم مهطعين يحملون أحزانهم وقد راح كل منهم يفكر فى أسى فى كلمات يعزون بها رسول الله ـ ﷺ ، حتى إذا ما أقبلوا عليه ورأوا فى وجهه لوعة الحزن عقدت ألسنتهم فقد عز العزاء ، وأطرقوا برءوسهم يبكون فى صمت أليم .

وأقبل أبو بكر يستعبر فلما رأى حبيبه محمدا عليه السلام قد هدته الفاجعة سرت فى بدنه رعدة و لم يقو على كبح جماح عواطفه فارتفع صوته بالنشيج ، واندفع إلى رسول الله عليه السلام وضمه إلى صدره كأنما يود لو يحميه من الأشجان التى انقضت عليه ، فتعانق الصديقان يبكيان ويذرفان أغلى الدموع على حاضنة الإسلام الغالية .

ونظر حمزة وعمر إلى الصديقين المتعانقين اللذين غسلت العبرات وجهيهما ، فتفجرت ينابيع الأسى بين ضلوعهما وسحت أعينهما الدموع تنفيسا عن اللوعة التى تكاد أن تكتم الأنفاس ، ورنا أبو لهب إلى ابن أخيه الذى أعتق جاريته يوم أن بشرته بمولده فرق له قلبه ونسى فى غمرة الحزن ما كان بينهما من خصام ، فسالت دموعه تغسل لحيته الحمراء .

وجهزت خديجة فحمل المسلمون نعشها وساروا به فى الطريق الذى طالما قطعته خديجة فى جاهليتها وفى إسلامها ومن حولها إماؤها إلى الحرم .

وكان وجوه قريش وسادات مكة من مسلمين وكافرين يسيرون فى الجنازة مطرق الرءوس يسيرون فى هدوء ، وقد غمرتهم الأحزان . فمنذ ثلاثة أيام قبروا أبا طالب وها هم أولاء ينطلقون اليوم لقبر الطاهرة ، فأفئدتهم لا تزال ممتلئة بالعبرة .

وساروا إلى الحجون وقد ثارت العواطف فى الأفئدة . كان رسول الله — ﷺ — الذى ألف الله به إخوانا وفرق أقرانا وأعز به الذلة وأذل به العزة يستشعر كأنما يودع قطعة عزيزة من نفسه ، أو جزءا أصيلا من سويداء قلبه ، وكانت وجوه المسلمين باسرة وقلوبهم باكية يزيد فى أساهم أنهم يحسون فى صميم وجودهم أن السماء تبكى على أم المؤمنين ، ناصرة الإسلام .

وبلغوا القبر فاشتد النحيب حتى تجاوبت به جبال مكة التى تطل على الحجون ، والتف المسلمون برسول الله عليه السلام يبكون وهو يذرف الدمع الهتون ، فكانت أفئدتهم تتمزق حزنا لحزن نبيهم الذى نزل حبه بسويداء قلوبهم . ودلى الجسدِ الطاهر فى القبر فجأر الناس بالبكاء وجزع المسلمون جزعا شديدا ، فنبيهم الكريم قد خنقته عبراته وارتفع صوته بالنشيج لينفس عما يتلظى بين ضلوعه من نيران الأحزان .

وغيبت فى الثرى أول من أشرق قلبها بأنوار اليقين بعد رسول الله — ﷺ — ، وطويت صفحة من أنبل صفحات البشرية ، وأغلى الدموع تذرف على الطاهرة سيدة قريش حاضنة الإسلام أم المؤمنين عليها السلام .

٢٣

مات أبو طالب فأحس أعداء الرسول — ﷺ — راحة فقد انهار السد المنيع الذى كان يحول بينهم وبين صب جام غضبهم على أبى القاسم ، فلن يجد بعد اليوم من يمنعهم من إنزال الأذى به وتعذيبه حتى يعود إلى ملتهم ، أو يقتلوه وبستريحوا من تلك الفتنة التى لم تترك دارا من دور مكة إلا دخلتها وفرقت أهلها شيعا وأحزابا .

وماتت خديجة فنزل بدارها حزن عميق ، وكان أكثر المحزونين محمدا عليه السلام ، فلم تكن خديجة زوجة عاقلة رشيدة وحسب ، بل كانت نعم العون لزوجها على تبليغ رسالات ربه ، إن قلبه يتمزق أسى على فراقها ولكن ما كان حزنه ليمنعه من أن يخرج إلى الناس يدعوهم إلى الصراط المستقيم ويرشدهم إلى سبل ربه .

غادر محمد عليه السلام الغرفة التى أعدت لعبادته وسار فى الردهة خطوات يتحاشى أن يلتفت إلى الحجرة التى فاضت فيها روح الطاهرة ، ثم هبط فى الدرج ومشى هونا فى الممر الذى يقود إلى الباب . حتى إذا ما وقف على عتبته وهم بأن يصعد إلى الطريق إذا بالحجارة تصوب إليه من دور أبى جهل والأسود بن عبد يغوث وأمية وأبّى ابنى خلف والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، فتقهقر عليه السلام يحتمى بالحجر الكبير الذى كان فى ممر الدار ، والحجارة تهطل عليه هطول المطر المدرار .

وامتلأ رسول الله عليه الصلاة والسلام بالحنق والغضب ، فقومه قد بيتوا العزم على أن يجاهروا بعداوته وأن يسوموهُ سوء العذاب وأن يقتلوه

دون أن يخشوا بنى هاشم وبنى المطلب . فقد أصبح فى الغابرين الرجل الذى كان يستطيع أن يجمع الهاشميين جميعا مسلمين و كافرين لنصرة ابن أخيه ، وما من رجل هاشمى بقادر على ذلك غير أبى لهب ، وأبو لهب من حزبهم قد شن أقسى ألوان الاضطهاد على ابن أخيه واشترك مع الكافرين فى حصار عشيرته فى شعب أبى طالب .

رأى رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — تهجم قريش فتذكر أبا طالب فقال :

— يا عم ، ما أسرع ما وجدت فقدك .

لم يكن رسول الله عليه السلام يخشى القتل بعد أن كتب الله على نفسه أنه سيعصمه من الناس ، ولكنه ما كان بقادر على أن يخرج من خلف الحجر الذى احتمى به ، فقذائف الحجارة تنهال عليه من بيوت جيرانه فى إصرار كأنما قد عزموا على أن يضعوا حدا للعداوة الناشبة بينهم وبينه .

كانت دار أبى لهب تطل على دار خديجة فصكت أصوات الحجارة مسامع أبى لهب فراح ينظر ، فرأى جيران ابن أخيه يلقون عليه الحجارة فى ضراوة . لقد نالت قريش من رسول الله — ﷺ — ما لم تكن تناله فى حياة أبى طالب ، فتحركت فى أبى لهب نخوته فانطلق مهرولا إلى حيث كان ابن أخيه مختبئا . فلما رأى الرجال أبا لهب يشتد إلى دار خديجة كفوا عن إلقاء الحجارة وقد تهللوا بالفرح ، فقد حسبوا أن أبا لهب سيسلمه لهم ليقتلوه فتطيب نفوسهم بعودة عزتهم التى أذلها ابن عبد الله .

وجاء أبو لهب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا محمد ، امض لما أردت وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه . لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

وخرج أبو لهب مع ابن أخيه يحدثه فى ود وأبو جهل والنضر وعقبة بن أبى معيط وسادات قريش الذين قبضوا على الحجارة بأيديهم ينظرون فى دهش ، فما خطر لهم على قلب أن يحمى أبو لهب ابن أخيه الذى قال فيه قرآنا كله هجاء قاذع يتلوه المسلمون .

واتفق أن أحد المستهزئين سب النبى — ﷺ — فأقبل عليه أبو لهب ونال منه ، فولى وهو يصيح :

— يا معشر قريش ، صبأ أبو عتبة .

فأقبلت قريش على أبى لهب وقالوا له :

— أفارقت دين عبد المطلب ؟

— ما فارقت دين عبد المطلب ، ولكن أمنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى إلى ما يريد .

— أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

وما كانوا صادقين فيما قالوا بل كانوا لا يريدون معارضة أبى لهب حتى لا يزداد إصرارا على تأييد الرسول عليه السلام . وأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بين أبى القاسم وعمه فما أيسر إثارة غضب حليف الخمر والميسر .

وجعل الرسول عليه السلام يدعو الناس إلى الإسلام وهو مطمئن إلى نصرة عمه لا يخشى إيذاء المشركين ، وأحنق أبا جهل وعقبة بن أبى معيط بسط أبى لهب حمايته على ابن أخيه ، فقد رسما خططهما بعد موت أبى طالب للإجهاز على عدوهما اللدود ظنا منهما أن اختفاء أبى طالب سيترك الصابئ بلا ناصر . أما وقد قام أبو لهب دونه فلا بد من الإيقاع بين سيد بنى هاشم الجديد وأبى القاسم .

كان عجبا أن يقوم عدو ابن أخيه اللدود دونه ، فراحت أم جميل تلوم زوجها على مساندة من هجاهما فى قرآنه أشد الهجاء ، ومشى رجال من أعداء الرسول عليه السلام إلى المرأة الحانقة يؤججون نيران حقدها على ابن عبد الله ويوسوسون لها أن تلتقط أذن زوجها تنفث فيها نقض ذلك العهد العجيب الذى قطعه على نفسه ، وما كانت المرأة فى حاجة إلى إيعاز فنفسها الممرورة كانت كفيلة بأن تحيل حياة أبى لهب جحيما مادام على عهده لمنافس أخيها أبى سفيان .

ومكث رسول الله أياما يعرض نفسه ودين الله على الناس لا يتعرض له أحد من قريش وهابوا أبا لهب ، إلى أن انطلق أبو جهل وعقبة بن أبى معيط إلى رسول الله — ﷺ — فقال له أبو جهل :

— يا محمد أين مدخل أبى طالب[1] ؟

— فى النار .

فانطلق أبو جهل وعقبة بن أبى معيط إلى أبى لهب فقالا له :

— أأخبرك ابن أخيك أين مدخل أخيك أبى طالب ؟ يزعم أنه فى النار .

فذهب أبو لهب إلى ابن أخيه فقال :

— يا محمد أين مدخل أبى طالب ؟

لم يشأ أن يثير عداوة عمه الذى يحميه ، ولم يكن ليكذب قط ولو خسر العالم كله فقال :

— مع قومه .

---

(١) فى الأصل عبد المطلب وأعتقد أن ذلك خطأ لأن عبد المطلب من أهل الفترة ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

فخرج أبو لهب إلى أبى جهل وعقبة فقال :

ـــ قد سألته فقال مع قومه .

فقالا :

ـــ يزعم أنه فى النار .

فعاد أبو لهب إلى الرسول عليه السلام فقال :

ـــ يا محمد أيدخل أبو طالب النار ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أسى :

ـــ نعم ، ومن مات على مثل ما مات عليه أبو طالب دخل النار .

إنه موقف شديد على الرسول عليه السلام ، فأبو طالب قد نصره وهو يحبه ولكن حبه ربه أشد ، وما كان يستطيع أن يكذب على الله ولو فقد تأييد أبى لهب ، فقال أبو لهب فى حدة :

ـــ لا برحت لك عدوا وأنت تزعم أن أبا طالب فى النار .

واشتد على رسول الله عليه السلام وعادت قريش إلى إيذائه ، فبينا هو فى طريقه إلى داره حزينا لموت أبى طالب وفقد خديجة التى كان يجد عندها العطف والمواساة ، إذا ببعض سفهاء قريش نثر على رأسه التراب فدخل بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكى ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول لها :

ـــ لا تبكى ، لا تبكى يا بنية ، فإن الله تعالى مانع أباك .

وجلس الرسول صلوات الله وسلامه عليه مهموما من كيد الكافرين ، وزاد فى أساه أنه بدأ يحس قسوة غياب خديجة من حياته ، فما ملكت بناته غير البكاء وما خفت إليه إحداهن تمسح عنه أحزانه ، وما كان ليرضى أن يشهن آلامه أو يحدثهن عن لوعة الأسى المتأججة بين ضلوعه ، فقد كان

أكبر من أن يحملهن همه ، بل صار عليه أن يحملا أعباءه وأعباءهن بعد أن استجابت سيدة الدار لنداء ربها ، وتركته بلا أنيس فى الأرض يكشف له عن خبيئة نفسه ، ولا وزير صدق يشاركه التفكير والتدبير ، بينا العواطف الجياشة تمور فى الصدور .

وأطرق عليه السلام يفكر فى أمره ، فوجد أشد الناس عداوة له أبا جهل وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وابنى خلف . فأبو جهل قد شنها عليه حربا لا هوادة فيها منذ أوحى إليه ، وعقبة قد داس على رقبته ذات يوم بينا كان ساجدا لله فى الحرم حتى إن عينيه كادتا أن تخرجا من محجريهما فانتصب عليه السلام قائما وهو يتوعد عقبة بالقتل إن لقيه خارج مكة ، ومنذ ذلك اليوم لم يُنه — ﷺ — عما توعد به ابن أبى معيط وزاد عقبة طغيانا وكفرا .

تزوج عقبة بن أبى معيط أروى ست عمر بن كريز ابنة عمته أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله بعد أن مات عنها عفان ، ولم يخفف زواجه من ابنة عمته من حدة عداوته للإسلام والمسلمين ، بل إنه أوغل فى الكيد لرسول الله — ﷺ — واشتد فى إيذاء عثمان بن عفان ابن زوجه ورقية بنت محمد عليه السلام حتى خرجا مهاجرين إلى الحبشة ، فرارا من اضطهاد عقبة وصحبه .

ونهض عقبة مع أبى جهل والنضر وابنى خلف فى أمر مقاطعة بنى هاشم وضرب الحصار عليهم فى شعب أبى طالب ، وكانت له اليد الطولى فى تأليب عمه أبى لهب عليه بعد أن رق له قلبه وبسط عليه حمايته . كان محمد قد توعد عقبة بالقتل إذا لقيه خارج مكة ، وإنه وهو فى إطراقته الحزينة بعد أن استأنف أبو لهب عداوته واشتد عليه هو وقريش يجد أن القتل جزاء

وفاق لعقبة بن أبى معيط على ما جنت يداه .

وجعل يفكر فى النضر بن الحارث ابن خالته ، إنه يؤذيه ويكثر من إيذائه والنيل منه . وما أكثر أقاربه الذين آذوه ولكن النضر قد تجاوز كل حد فى عداوته ، لم يكتف بالسخرية منه بل راح يستهزئ بالله سبحانه وتعالى وقرآنه استهزاء الجاهلين . ولو وقع النضر ذات يوم فى يده فلن يدعه يمشى من بعد فى الأرض التى دنسها بأساطيره وسب الله بغير علم ، سبحان الله عما يصفون ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

وانقضى الليل والرسول عليه السلام يناشد ربه ويدعوه ويشكو إليه هوانه على الناس والدموع تنهمر من عينيه ، فالخطوب تحيط به من كل جانب ، حزن ثقيل نزل بقلبه لموت أبى طالب وأم المؤمنين ، واشتداد الكافرين عليه شدة لم يذق مثلها قبل أن يفقد عمه الحبيب ، إنه أضعف من أن يقف أمام ذلك الطغيان الهائل وحده ، وهو فى أشد الحاجة إلى عون الله ونصره ، وهو على ثقة بالرغم من كل ما يلاقى من صعاب بأن نصر الله قريب .

وخرج إلى المسجد وهو شارد يستشعر فى أعماقه أن الكافرين يتربصون به ، ودخل إلى الحرم من باب بنى مخزوم ومد بصره فإذا بأبى بكر وعدا وبعض الصحاب قد جلسوا بالقرب من زمزم ، فمشى إليهم فوقعت عليه أعين سادات قريش فهبوا إليه مزمجرين وأخذوا يتجاذبونه وهم يقولون له — ﷺ :

— أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا .

وجعل بعضهم يدفعه إلى بعض وما دنا من أصحابه أحد إلا أبو بكر ،

لم يحتمل أن يرى رسوله ونبيه وصفيه وحبيبه وهم يتجاذبونه فانطلق إليهم يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول :

— أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

ولم يكن لينفعه دفاع أبى بكر عنه فالعداوة قد بلغت ذروتها ، فإما القتل وإما أن يخرج من مكة ، وفى شوال سنة عشرة من النبوة خرج إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة ضيق الصدر كسير الفؤاد ، لعله يجد فى ثقيف من يشرح الله صدورهم للإسلام ويقومون معه على من خالفه من قومه .

كان الحارث بن كلدة زوج خالته فى الطائف . أيكذبه الحارث كما كذبه ابنه النضر وقاوم رسالته ؟ وكان بها أمية بن أبى الصلت من كان يرجو أن يكون رسول الله ، وكان يجلس إلى نساء ثقيف يحدثهن أنه النبى الأمى الذى تفيض بذكره الكتب المقدسة ، فلما أخبره أبو سفيان أن النبى الذى كان يحدثه عنه قد بعث وأنه محمد بن عبد الله حسده ، فلما قال له أبو سفيان : أتصدقه ؟ قال أمية : ما كنت أتبع نبيا من غير ثقيف .

وكان بها أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثقفى . إنهم سادات ثقيف وأشرافها ، فلو تابعوه لوجد منعة ورجالا يناصرونه على الإسلام . وذهب ومعه زيد إلى دار الحارث ابن كلدة طبيب العرب وراح عليه السلام يعرض على زوج خالته الإسلام فلم يلق إليه سمعه ، بل راح يتيه عليه بأجزاء الحكمة التى جاء بها من الحيرة وحوران وبصرى ، وما كان ما جاء به إلا فتات موائد فلاسفة اليونان والرومان وأساطير الفرس .

وأعرض الحارث بن كلدة عن دعوة رسول الله — ﷺ — كما أعرض عنها من قبل ابنة النضر ، فقام رسول الله — ﷺ — وهو ضيق الصدر

يسير ومعه زيد بن حارثة إلى دار أمية بن أبى الصلت .

وفى دار أمية اشتد الجدال بين رسول الله — ﷺ — وبين من كان يطمع فى النبوة ، وقد كان حديث ابن أبى الصلت يقطر حسدا وحقدا . إنه لبس مسوح الرهبان وانقطع للعبادة وعكف على قراءة الكتب ليكون أهلا للرسالة ، ولكن الله جلت قدرته اصطفى غيره والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وغادر رسول الله — ﷺ — دار أمية بن أبى الصلت وهو حزين قد ضاق صدره بعناده ، فالرجل على علم بالله وكتبه ورسله ، بل إنه ليعلم أنه رسول الله حقا وصدقا ، فما باله لا يصدقه ولا يتبع الهدى ؟ فأنزل الله عليه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون * من يهد الله فهو المهتدى ومن يُضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾[1] .

ودخل رسول الله — ﷺ — وزيد بن حارثة على أولاد عمرو بن عمير ، وكانوا إخوة ثلاثة : عبد ياليل وعبد كلال وحبيب . فلما جلس إليهم راح يكلمهم فيما جاءهم به ، يقول إنه رسول رب العالمين ويعرض عليهم الإسلام ونصرته والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم :

---

(١) الأعراف ١٧٥ — ١٧٨ .

— إنى أمرط (أنتف) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال له آخر مستهزئا :

— ما وجد الله أحدا يرسله غيرك .

وقال له الثالث :

— والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسول الله كما تقول أنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام — ﷺ — من عندهم وقد أيس من خير ثقيف ، وخشى أن يبلغ قومه ما لقى من ثقيف من خذلان فيشتد أمرهم عليه ، فالتفت إلى أولاد عمرو بن عمير الثقفى وقال فى صوت متهدج قد بللته الدموع :

— اكتموا على.

— اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض .

وسار رسول الله عليه السلام ليخرج من الطائف وقد ضاق صدره وتعب خاطره واستولى عليه حزن ثقيل ، وانطلق زيد بن حارثة مطرق الرأس كسير الفؤاد ، وما ابتعدا قليلا عن سادات ثقيف وأشرافهم حتى أغروا برسول الله سفهاءهم وعبيدهم فخفوا إليه يسبونه ويصيحون به :

— الكافر باللات . الصابئ .

واجتمع الناس عليه يؤذونه وزيد بن حارثة يحاول أن يفض السفهاء من حوله دون جدوى ، فقد كبر عليهم أن يأتى من مكة رجل يسب آلهتهم اللات فى عقر دارهم .

وقعدوا له صفين على طول الطريق وفى إيديهم الحجارة ما إن يمر بين الصفين حتى يرموا رجليه بالحجارة لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا

أرضخوها بالحجارة ، ونظر زيد بن حارثة فى جزع إلى الصفين فإذا بهما يمتدان على مدى بصره .

وراح رسول الله — ﷺ — يتقدم والسفهاء يدقون رجليه بالحجارة دقا ، وزيد بن حارثة يحاول أن يقيه بنفسه دون جدوى فشج رأسه وسالت الدماء من رجليه ، بيد أن ألمه لرسول الله — ﷺ — كان أشد من إلمه على نفسه .

واختصب نعلا رسول الله عليه السلام بالدماء ووجد ألم الحجارة ، فقعد إلى الأرض وقد نال منه الجهد وارتسم على وجهه أعمق آيات الألم وراح يلتقط أنفاسا مكروبة ، وزيد بن حارثة يحس أنه سيموت كمدا على الرسول الحبيب ، فخف السفهاء إليه فأخذوا بعضديه فأقاموه فدفعوه ليستأنف مسيره .

وراح محمد (ﷺ) يسير والحجارة تصوب من الصفين إلى قدميه فيسيل الدم الطاهر على الأرض ويترنح عليه السلام من العذاب بينا ضحكات السفهاء الماجنين تجلجل فى الفضاء ، وراح زيد بن حارثة يعاون أحب أهل الأرض إلى قلبه ليقيم صلبه ويقطع طريق الآلام ، ولكن الطريق ما كان لينتهى فالألم الذى كانا يحسانه كان فوق طاقة البشر . فقعد الرسول عليه السلام على الأرض مبهور الأنفاس ، وارتمى زيد بن حارثة وهو يكاد أن يغيب عن الوجود ، فخف الرجال إليهما فأخذوا بعضديهما فأقاموهما فدفعوهما إلى الطريق ليستأنفوا رضخ أقدامهما بالحجارة وهم يضحكون ، فالدماء الطاهرة التى تسيل على الرمال كانت تثير ضحك غلاظ الأكباد قساة القلوب .

وسارا وهما يسمعان الضحكات كأنما كانت آتية من مكان سحيق ،

وقد مادت الأرض تحت أقدامهما ورأيا السماء تتراقص وقد راحت الدماء ترسم أربعة خطوط حمراء على الأرض ، وقد ضاق صدر رسول الله — ﷺ — وصدر زيد بذلك الظلم المبين ، فما كان يخطر على قلب أن أقواما تقسو قلوبهم حتى يصبح تعذيب الأبرياء لعبتهم التى تشرح الصدور .

وتحمل الرسول عليه السلام ومولاه عذاب الهون حتى خلفا الصفين اللذين اصطفا من الظالمين على جانبى الطريق ، فلم يقو زيد على الوقوف فارتمى على الأرض يلهث ويلتقط أنفاسه فى جهد جهيد ، بينا رفع رسول الله — ﷺ — رأسه والدم يسيل من رجليه والعرق يتفصد من جبينه وقد امتزج بالتراب وراح يناجى ربه ويقول :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

كان طريق الآلام ينتهى عند بستان لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة ، وكانا فى البستان يريان ما لقى أبو القاسم من سفهاء أهل الطائف فأشفقا عليه وطافت بهما رأفة ، فما ناله ابن عبد الله من إيذاء يمزق أقسى القلوب ، إنه كان ينوء من الجهد فتأبى قسوة السفهاء إلا أن يأخذوا بعضديه ليقيموه حتى يستأنفوا دق رجليه بالحجارة وهم يضحكون ملء الأشداق ، وهو يرفع رجليه ويضعهما والدماء تنبثق منهما لتروى الأرض .

وراح رسول الله — ﷺ — يعاون مولاه على النهوض ، حتى إذا ما

استطاع زيد أن يقيم صلبه راحا يتقدمان إلى البستان وهما يترنحان وقد زاغت منهما العيون ، ويزفران ويشهقان فى صوت مسموع ، حتى إذا ما بلغا شجرة راحا يستظلان بها وتمددا تحتها يلتقطان الأنفاس .

وتحركت لأبى القاسم رحِمُهما فدعوا غلاما لهما يقال له عداس فقالا له :

ــ خذ قِطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ــ ﷺ ــ ، ثم قال له :

ــ كل .

ووضع زيد فيه يده ، فلما وضع رسول الله ــ ﷺ ــ فيه يده قال :

ــ باسم الله .

ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ثم قال :

ــ والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .

فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟

ــ أنا نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى .

ــ من قريةِ الرجل الصالح يونس بن متى ؟

فقال عداس فى دهش :

ــ وما يدريك ما يونس بن متى ؟ والله لقد خرجت منها وما فيها عشرة يعرفون ما متى ، فمن أين عرفت أنت متى وأنت أمى وفى أمة أمية ؟

ــ ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى .

فأكب عداس على رسول الله — ﷺ — يقبل رأسه ويديه وقدميه وزيد ينظر وقد اغرورقت فى عينه الدموع تأثرا .

رأى عتبة وشيبة ابنا ربيعة ما يفعل عداس بأبى القاسم فالتفت أحدهما إلى الآخر فى عجب ثم قال :

— أما غلامك فقد أفسده عليك .

فلما جاءهما عداس قالا له :

— ويلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟!

— ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه و لم نرك فعلته بأحدنا .

فقال عداس وقد أشرق وجهه بالإيمان :

— يا سيدى ، ما فى الأرض شيء خير من هذا ، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى .

— ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك .

— لا يفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع ودينك خير من دينه .

ويئس رسول الله — ﷺ — من خير ثقيف فانصرف من الطائف راجعا إلى مكة وهو حزين ، وزيد بن حارثة ينطلق معه يفكر فيما سيفعل حبيبه بعد أن أخرجه قومه من مكة وبعد أن لقى أبشع ألوان الاضطهاد فى الطائف .

وسارا صامتين على راحلتيهما ، رسول الله ﷺ يستشعر أعمق آيات الأسى ، فقد انقضت عشر سنين منذ أوحى إليه أول مرة وما انتشر دين الله فى مكة و لم تستجب له القبائل ، وقد ردته الطائف ردا قاسيا غير كريم .

إنه سأل القوم أن يكتموا عليه خشية أن يصل إلى قومه أنباء خذلان ثقيف له ورفضهم دعوته فيزداد إيذاء قريش له ، ولكن عتبة وشيبة ابنى ربيعة

كانا فى بستانهما وقد رأيا ما فعل به سفهاء الطائف وما نالوا منه .

وكان زيد يئن أنينا مكتوما فوقع الحجارة منه لا يزال يؤلمه . ولكن ألم نفسه كان أقسى وأشد ، فما بال الناس يؤذون فى ضراوة من يريد أن يفتح عيونهم العمى وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ؟ وما بال قريش قد لجت فى العداوة حتى إنها أخرجته من داره ؟ وكيف يعود رسول الله عليه السلام إلى مكة بعد أن طرده أعداؤه منها ؟

ونزلا بوادى نخلة على مسيرة ليلة من مكة ، وقام — ﷺ — فى جوف الليل يصلى ، فمر به نفر من الجن فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

وأقام رسول الله — ﷺ — بنخلة أياما ، فقال له زيد :

— كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك ؟

— يا زيد . إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

لم يتزعزع إيمانه بنصر الله لحظة فى أحلك أيام رسالته ، كان على يقين من أن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . فإن كان قد مكث فى نخلة أياما فقد أقام بها حتى يلتقط أنفاسه بعد ما لقى من سفهاء ثقيف . وإنه داخل على قومه على الرغم من أنهم أخرجوه ليبلغ رسالات ربه ، فإن لم يفعل فإنه يكون قد تقاعس عن تأدية رسالته وحاشا لله أن يكون من اصطفاه خوارا ، أو أعجز من أن ينهض بأمانته .

وامتطى رسول الله — ﷺ — راحلته وانطلق إلى مكة وزيد فى رفقته يستشعر خوفا على النبى عليه السلام ، وانتهت الرحلة عند غار حراء فنزل به رسول الله ، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره . كان الأخنس

يعطى النبى — ﷺ — من طرف اللسان حلاوة وكان يظهر له الود ، فإذا ما انصرف الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وجلس إلى المشركين نال من أبى القاسم ، وعاد الرجل الذى بعثه محمد عليه السلام إلى الأخنس فقال :

— إن الأخنس يعتذر بأنه حليف ، والحليف لا يجير .

فبعث — ﷺ — إلى سهيل بن عمرو فقال :

— إن بنى عامر لا يجير على بنى كعب .

وراح رسول الله — ﷺ — يفكر فى شريف من أشراف قريش يجيره فتذكر مطعم بن عدى وبلاءه فى رفع الحصار عن بنى هاشم لما حاصرهم أعداء الرسول فى شعب أبى طالب فأرسل رجلا من خزاعة إليه يقول : « أدخل فى جوارك » .

وبلغ الخزاعى مطعم بن عدى فقال له :

— إن محمدا يريد أن يدخل فى جوارك .

فقال مطعم دون أن يتردد :

— نعم .

ودعا بنيه وقومه فقال :

— تلبّسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمدا .

فدخل رسول الله — ﷺ — حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام مطعم بن عدى على راحلته فنادى :

— يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلا يهجُه أحد منكم .

فانتهى — ﷺ — إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ومطعم وولده مطيفون به وفى أيديهم السيوف ، قد أجاروا رسول الله

من أعدائه وإن لم يدخلوا فى دين الله .

وخفت فاطمة وأم كلثوم إلى أبيهما يقبلانه فى وجد والدموع تنهمر من أعينهما ، وهرع أسامة بن زيد إلى النبى فضمه إليه فى حب ، ثم دخل غرفته التى أعدت لعبادته وشرد بذهنه فرأى بعين خياله سفهاء ثقيف وهم يأخذون بعضديه ويرفعونه بينهم لينتصب واقفا بعد أن يكون قد قعد على الأرض من الإعياء ليتمكنوا من دق رجليه بالحجارة فى أثناء سيره وهم يتضاحكون ، كانت قسوتهم أليمة ولكن رفضهم لدعوته كان أقسى على قلبه من كل آلام بدنه وما حاق به من عذاب . وفيما هو شارد حزين إذ أوحى إليه : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

وفصم عنه الوحى فرفت على شفتيه ابتسامة عذبة وأحس رضا ، فقد كان إسلام الجن بعد ما لاقى من اضطهاد قريش وثقيف تسرية عنه وبارقة ضياء لمعت فى الظلام ، فازداد يقينا على يقين أن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

تذييـــل

قال بعض الزنادقة وهم يحاورون جعفر الصادق منتقدين القــرآن الكريم :

ـــ طعنًا فى القرآن ، لو قال امرؤ القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . وكرر ذلك أربع مرات فى نسق أما كان عيبا ؟ فكيف وقع فى القرآن : ﴿ قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾[1] ؟ وهى مثل ذلك .

فقال جعفر الصادق :

ـــ قال له المشركون : اعبد معنا آلهتنا يوما نعبد معك إلهك عشرة ، واعبد معنا آلهتنا شهرا لنعبد معك إلهك سنة . فنزلت إنى لا أعبد ما تعبدون يوما ولا أنتم عابدون ما أعبد عشرة ، ولا أنا عابد ما عبدتم شهرا ولا أنتم عابدون ما أعبد سنة .

وقد تضمنت كتب التفسير بحوثا فى تعليل سبب تكرار آية « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فيرى بعضهم أنها ضرب من ضروب التأكيد وبعضهم الآخر يرى أن واحدة منهما تشير للمستقبل والثانية تشير إلى الماضى .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده :

ـــ مفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام فى المعبود ، ومفاد الجملتين

---

(١) سورة الكافرون .

الأخريين تمام الاختلاف فى العبادة : فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الإله الواحد المنزه عن الند والشفيع ، المتعالى عن الظهور فى شخص معين أو المحاباة لشعب أو واحد بعينه والذى تعبدونه على خلاف ذلك .

وعبادتى مخلصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة ، فأين هى من عبادتى ؟.

وجاء فى منتخب تفسير القرآن :

« قل يا محمد : يأيها الكافرون المصرون على كفرهم . لا أعبد الذى تعبدون من دون الله . ولا أنتم عابدون الذى أعبد وهو الله وحده . ولا أنا عابد مثل عبادتكم لأنكم مشركون . ولا أنتم عابدون مثل عبادتى لأنها التوحيد . لكم دينكم الذى اعتقدتموه ولى دينى الذى ارتضاه الله لى » .

وأعتقد أن السورة تحتمل كل هذه التفاسير .

وقد حاول الزنادقة الطعن فى القرآن والتشكيك فى صدق رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام فوضعوا أحاديث نبوية لزعزعة ضعاف الإيمان ، وكان مما وضعوه حديث ما ألقى الشيطان فى روع الرسول عليه السلام من كلمات لما أنزلت عليه سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾[1] وقد أخذ بعض الرواة والإخباريون المولعون بكل غريب هذا الحديث دون تمحيص ودسوه فى سيرة سيد المرسلين ، وإن كان بادى الاختلاق .

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه : لما رأى

---

(١) النجم ١ .

رسول الله — ﷺ — من قومه كفًا عنه ، جلس خاليا فتمنى فقال :

— ليته لا ينزل على شيء ينفرهم عنى .

وقارب رسول الله — ﷺ — قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ حتى بلغ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة ﴾[1] ألقى الشيطان على لسانه كلمتين : « تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى » ولما بلغ الغرانيق العلا قال الواقدى : فتكلم رسول الله — ﷺ — بهما ، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا ، ورفع المغيرة بن الوليد ترابا إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود . ويقال : إن أبا أحيحة سعيد بن العاص أخذ ترابا إلى جبهته فسجد عليه — وكان شيخا كبيرا — فرضوا بما تكلم به رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فأما إذ جعلت لها نصيبا عندك فنحن معك .

فكبر ذلك على رسول الله — ﷺ — من قولهم حتى جلس فى البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة ، فقال جبريل :

— ما جئتك بهاتين الكلمتين .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قلت على الله ما لم يقل .

فأوحى الله إليها : ﴿ وإن كادوا ليفتنوك عن الذى أوحينا إليك لتفترى

---

(١) النجم ١٩ — ٢٠ .

علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾[١] .

ففشت تلك السجدة فى الناس حتى بلغت أرض الحبشة ، فبلغ أصحاب رسول الله — ﷺ — أن أهل مكة قد سجدوا فأسلموا ، حتى إن الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة قد سجدا خلف النبى — ﷺ — ، فقال القوم :

— فمن بقى بمكة إذا أسلم هؤلاء ! عشائرنا أحب إلينا .

فخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حالهم ، فقال الركب :

— ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها فعاد يشتم آلهتهم وعادوا له بالشر فتركناهم على ذلك . فأتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة . ثم قالوا : قد بلغنا . ندخل فننظر ما فيه قريش ويحدث عهدا من أراد بأهله ثم نرجع .

فدخلوا مكة و لم يدخل أحد منهم إلا بجوار ، إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيرا ثم رجع إلى أرض الحبشة ، فكان خروجهم فى شهر رجب سنة خمس ، فأقاموا شعبان ورمضان وقدموا فى شوال من السنة .

هذا الحديث الذى فيه الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ونحوها و لم يدخله البخارى ولا مسلم ولا ذكره فى علمه مصنف مشهور . والغرنوق طائر طويل العنق وهو الكركى أو يشبهه ، ووجه الشبه بين الأصنام وتلك الطيور أن تلك الطيور تعلو وترتفع فى السماء ، فالأصنام شبهت بها فى علو

---

(١) الإسراء ٧٣ — ٧٥ .

القدر وارتفاعه ، وقبل أن أقول رأيى فى هذا الموضوع سأورد آراء من كذبوا ذلك الحديث أو سلموا به من السالفين .

قال القاضى عياض فى كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » :

— اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه .

أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، مع ضعف نقلته واضطراب رواته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته ، فقائل يقول : إنه فى الصلاة ، وآخر يقول : قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أخذته سنة . وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها . وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبى — ﷺ — لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك . وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبى — ﷺ — قرأها ، فلما بلغ النبى ذلك قال : « والله ما هكذا أنزلت » إلى غير ذلك من اختلاف الرواة .

ومن حُكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية . والمرفوع فيها حديث شعبة عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فيما أحسب . قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى — ﷺ — بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا . ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبى . عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف

ما نُبِّه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه .

وأما حديث الكلبى فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار البزار إليه ، قال : والذى منه فى الصحيح أن النبى — ﷺ — قرأ « والنجم » وهو بمكة ، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

هذا توهينه من طريق النقل ، والله أعلم بالصواب .

وأما من جهة المعنى : فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته — ﷺ — ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبى — ﷺ — أن من القرآن ما ليس منه حتى يُنبهَه جبريل عليهما السلام ، وذلك كله ممتنع فى حقه — ﷺ — من قبل نفسه عمدا — وذلك كفر — أو سهوا ، وهو معصوم من هذا كله ، وقد تقرر بالبرهان وبالإجماع عصمته عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدا ولا سهوا ، أو أن يتشبه عليه من يلقيه الملك مما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو يتقول على الله لا عمدا ولا سهوا . وقد قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾[1] الآية . وقال : ﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾[2] الآية .

ووجه ثان وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا ، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبى — ﷺ — ولا من

---

(١) الحاقة ٤٤ .   (٢) الإسراء ٧٥ .

يحضره من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك — وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجح حلمه واتسع فى باب البيان معرفة فصيح الكلام علمه ؟!.

ووجه ثالث ، أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندى المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبى — ﷺ — لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأقل شبهة ، ولم يَحْكِ أحد فى هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا فى قصة الإسراء وقصة القضية ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ، فما روى عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل على بُطلها واجتثاث أصلها .

قال القاضى عياض : ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ، ليلبِّس به على ضعاف المسلمين .

ووجه رابع ، ذكره الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾[1] الآيتين .

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ، فمضمونه هذا .

---

(١) الإسراء ٧٣ ، ٧٤ .

ومفهومه أن الله عصمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيرا ! وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال عليه السلام : « افتريت على الله وقلت ما لم يقل » . وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كل ما فى القرآن كاد فهو ما لا يكون . قال الله تعالى : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾[1] ولم يذهب .

قال القاضى القشيرى : ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل فما فعل ، وما كان ليفعل — ﷺ .

وأما المأخذ الثانى — وهو مبنى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعاذنا الله من صحته — فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ذكرها القاضى عياض وضعف بعضها واستحسن بعض ، نذكر منها ما استحسنه وجوزه إن شاء الله .

منها ما ذكره القاضى أبو بكر فى أجوبته عن هذا الحديث قال :

— لعل النبى — ﷺ — قال ذلك فى أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، لقول إبراهيم عليه السلام ﴿ هذا ربى ﴾[2] على أحد التأويلات . يريد : أهذا ربى ؟! ولقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾[3] بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته ، وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد وأنه ليس من المتلو .

---

(١) النور ٤٣ .

(٢) الأنعام ٧٦ .

(٣) الأنبياء ٦٣ .

قال القاضى عياض : ولا يعترض على هذا بما روى أنه كان فى الصلاة ، فقد كان الكلام فيها قبل غير ممنوع . والذى يظهر ويترجح فى تأويله عند القاضى أبى بكر وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبى — ﷺ — كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصل الآى تفصيلا فى قراءته كما رواه الثقاة عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبى — ﷺ — بحيث يسمعه من دنا منه من الكفار ، فظنوها من قول النبى — ﷺ — وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله تعالى وتحققهم من حال النبى — ﷺ — من ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه ، وقد حكى موسى بن عقبة فى مغازيه نحو هذا وقال : إن المسلمين لم يسمعوها وإنما ألقى الشيطان ذلك فى أسماع المشركين وقلوبهم .

قال القاضى عياض ويكون ما روى من حزن النبى — ﷺ — لهذه الإشاعة والشبهة وقد قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾(١) الآية . فمعنى (تمنى) تلا . قال الله تعالى : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾(٢) أى تلاوة ، وقوله : ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ﴾(٣) أى يذهبه ويزيل اللبس به ويحكم آياته .

ومما يظهر فى تأويله أيضا أن مجاهدا روى هذه القصة : « والغرانقة العلا » . فإن سلمنا القصة قلنا : لا يبعد أن هذا كان قرآنا ، والمراد

---

(١) الحج ٥٢ . (٢) فصلت ٢٦ . (٣) الحج ٥٢ .

بالغرانقة العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى : الملائكة على هذه الرواية ، وبهذا فسر الكلبى الغرانقة أنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله كما حكى الله عنهم ورد عليهم فى هذه السورة بقوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾[١] . فأنكر الله كل هذا من قولهم .

وقيل : إن النبى — ﷺ — لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، خاف الكفار أن يأتى بشىء من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا تلاوة النبى — ﷺ — ويشغبوا عليه على عادتهم قولهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[٢] ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه ، وأشاعوا ذلك وأذاعوه ، وأن النبى — ﷺ — حزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه فسلاه الله تعالى بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾[٣] الآية ، وبين للناس الحق من ذلك من الباطل ، وحفظ القرآن وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه الله تعالى من قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٤]

وقال الفخر الرازى : هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القبول بها ، قال الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾[٥] ، وقال بصحتها جمع منهم الشهاب بن حجر وقال :

— رد عياض لا فائدة فيه ولا يعول عليه .

هذه جملة آراء السلف السابقين فى حديث « الغرانيق العلا » .

---

(١) الحج ٥٢ . (٢) فصلت ٢٦ . (٣) الحج ٥٢ .
(٤) الحجر ٤٩ . (٥) النجم ٣ ، ٤ .

وعندى أنه موضوع قد أولع به المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، فهو حديث لا يثبت للنقد . ومن عجب أن يلقى الشيطان فى روع رسول الله — ﷺ — بكلمتين فى سورة يقول فى صدرها علام الغيوب : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى ﴾[1] . أفكان عالم الغيب والشهادة لا يعلم أن الشيطان سيجترئ أن ينطق بشىء من الوحى ؟. إن كان سبحانه وتعالى يعلم فما كان يؤكد فى صدر السورة أن رسوله لا ينطق عن الهوى ، وإن كان لا يعلم — وحاشا لله ألا يعلم — فتلك نقيصة يتنزه عنها رب العزة ، ألصقها بذاته العلية كل من قال بصحة ذلك البهتان والزور .

ولو استشهدنا بتسلسل أحداث السيرة لانهارت هذه الفرية من أساسها ، فالمشهور أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى قد عادوا إلى مكة قبل حصار الكافرين لبنى هاشم وبنى المطلب فى شعب أبى طالب ، وما لا جدال فيه أنهم عادوا بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة . وسواء أكانت عودتهم أنهم قد بلغهم أن عظماء مكة قد سجدوا مع المسلمين لما قرأ الرسول عليه السلام سورة والنجم ، أى أن سورة « والنجم إذا هوى » كانت قد نزلت قبل عودة المسلمين من الحبشة ، ولكن أحداث التاريخ تكذب ذلك الزعم ، فسورة والنجم قد نزلت بعد أن أسرى به — ﷺ — ، وقد أسرى به بعد عودة المسلمين العودة الأولى من الحبشة ، وبعد وفاة عمه أبى طالب، وزوجته خديجة رضى الله عنها ،

---

(١) النجم ١ — ٥ .

وبعد خروجه إلى الطائف وما لقى به من عذاب ، فكل قول بأن سورة النجم قد قرئت أيام كان المسلمون الذين هاجروا الهجرة الأولى فى الحبشة قول خاطئ يكذبه الواقع التاريخى ، فكيف يتحدث القرآن عن الإسراء والمعراج وما كان الإسراء قد وقع ؟! إن حديث « الغرانيق العلا » حديث موضوع دون مهارة ، فهو مضطرب الروايات متقطع الإسناد ، قد مزج المدح بالذم ، يكذبه الواقع التاريخى وتسلسل أحداث السيرة . ولو كان النبى — ﷺ — قد نطق بالشهادة لأصنام قومه لظهر هذا الحدث الخطير فى أقوال أعدائه الذين لم يكن لهم من حياتهم إلا مجادلته وإظهار جوانب الضعف فى دعوته .

وقد قيل فيما قيل من غث الحديث أن الكلمتين اللتين ألقى الشيطان بهما فى روع الرسول ، وحاشا لله أن يكون للشيطان عليه سلطان — قد نسختا ، وهذا الزعم يجرنا إلى توضيح الناسخ والمنسوح فى القرآن .

والنسخ لغة إبطال الشيء ورفعه ، والمتكلمون عن النسخ فى القرآن يجعلونه على ثلاثة أضرب[1] .

١ — ما نسخ خطه وحكمه ، ويروون فى ذلك عن أنس أنه قال : « كنا نقرأ على عهد رسول الله — ﷺ — سورة تعدلها سورة التوبة ، ما أحفظ منها غير آية واحدة : « ولو لا أن لابن آدم واديين من ذهب لا بتغى إليها رابعا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » .

كما يروون عن ابن مسعود أنه قال : أقرأنى رسول الله — ﷺ — آية

---

(١) تاريخ القرآن للأستاذ إبراهيم الإبيارى .

فحفظتها وكتبتها فى مصحفى ، فلما كان الليل رجعت إلى مصحفى فلم أرجع منه بشىء ، وغدوت على مصحفى فإذا الورقة بيضاء . فأخبرت النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال لى : « يابن مسعود تلك رفعت البارحة » .

وهذا عندى قسم يكاد سرده يدل عليه ويكشف عن سقوطه ، فما أجل الله حكيما عليما ، وما كانت الرسالة تجربة بشرية يجوز عليها تعديل أو الوقوع فيما سينقض بعد حين . ولقد كان الرسول يحدث المسلمين بحديثه ويقرأ عليهم وحى السماء . ولقد كان عليه السلام يعارضهم ما حملوه عنه على التوالى حرصا على سلامة الوحى من أن يختلط به غيره . وكم من سامع خلط ما بين ما هو وحى وبين ما هو حديث للرسول ، ولكنه كان بعد حين قليل مردود إلى السلامة حين يلقى بما عنده الرسول أو صحابيا على بصيرة بما هو وحى وما هو حديث . وسرعان ما كانت تستقيم الأمور وسرعان ما كان يبين هذا من ذاك ، حتى إذا ما حان أن يقبض الله إليه رسوله كانت العرضة الأخيرة للقرآن ولم تكن إلا هذا ومثله .

٢ — ما نسخ خطه وبقى حكمه ، ويروون لهذا خبرا عن عمر بن الخطاب يقول : « لولا أكره أن يقول الناس قد زاد فى القرآن ما ليس فيه لكتبت آية الرجم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، لا ترغبوا عن آبائكم فإن ذلك كفر بكم . الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا منن الله والله عزيز حكيم » .

وأحسب أن عمر لو صح هذا عنه وأنه سمعها عن الرسول ما تخلف عن أن يكتبها ، ثم ألم يسمعها مع عمر غيره فيجعل منه شاهدا معه ، إن كان عمر لا يرى أنه وحده مجزئ ، اللهم إن هذا ينقض علينا ذاك التحرى فى

الجمع الذى قام به الصحابة ، وينقض علينا تلك المعارضات التى كانت تتم بين الرسول والقارئين ، وينقض علينا التفكير السليم ، وما نحب لمن يعالج ما يتصل بكتاب الله إلا أن يكون ذا تفكير سليم .

٣ — ما نسخ حكمه وبقى خطه . وهذا شىء يقتضيه التشريع والانتقال والتى انتهت بقوله يخاطب نبيه : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾(١) وكانت قبلها ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾(٢) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ إنما حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ فجاء قوله عليه الصلاة والسلام « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » . يستثنى شيئا من الميتة المذكورة فى القرآن .

وقد عد الناظرون فى هذا نحوا من ١٤٤ ، منها : ثلاثون آية فى البقرة : عشر آيات فى آل عمران ، أربع وعشرون آية فى النساء ، تسع آيات فى المائدة ، خمس عشر آية فى الأنعام ، آيتان فى الأعراف ، ست آيات فى الأنفال ، إحدى عشرة آية فى التوبة ، ثمانى آيات فى يونس ، أربع آيات فى هود ، آيتان فى الرعد ، آية فى إبراهيم ، خمس آيات فى الحجر ، أربع آيات فى النحل ثلاث آيات فى بنى إسرائيل ، آية فى الكهف ، خمس آيات فى مريم ، ثلاث آيات فى طه ، ثلاث آيات فى الأنبياء ، ثلاث آيات فى الحج ، آيتان فى المؤمنين ، سبع آيات فى النور ، آيتان فى الفرقان ، آية واحدة فى النمل ، آية واحدة فى القصص ، آية واحدة فى العنكبوت ، آية واحدة فى

---

(١) البقرة ١٤٤ .
(٢) البقرة ١١٥ .

الروم ، آية واحدة فى السجدة ، آيتان فى الأحزاب ، آية واحدة فى سبأ ، آية واحدة فى الملائكة ، أربع آيات فى الصافات ، آيتان فى ص ، ثلاث آيات فى الزمر ، آيتان فى حم « المؤمن » ، آية واحدة فى حم « السجدة » ، سبع آيات فى الشورى ، آيتان فى الزخرف ، آية واحدة فى الدخان ، آيتان فى الجاثية ، آيتان فى الأحقاف ، آيتان فى محمد ، آيتان فى ق ، آيتان فى الذاريات ، آيتان فى الطور ، آيتان فى النجم ، آية واحدة فى القمر ، آية واحدة فى المجادلة ، ثلاث آيات فى الممتحنة ، آيتان فى القلم ، آيتان فى المعارج ، ست آيات فى المزمل ، آيتان فى الإنسان ، آية واحدة فى عبس ، آية واحدة فى التكوير ، آية واحدة فى الطارق ، آية واحدة فى الغاشية ، آية واحدة فى التين ، آية واحدة فى العصر ، آية واحدة فى الكافرون .

فهذا بيان الآيات التى فيها نسخ نستطيع أن نرجع إلى تفصيلها فى كتب النسخ مثل كتاب « الناسخ والمنسوخ » لأبى القاسم هبة الله بن سلامة المتوفى سنة ٤١٠ هجرية ، ثم فى كتب التفسير .

وسوف نرى أن كل ما يتصل بها هو ترتب أحكام اقتضاها التشريع السماوى ، الذى أملاه نزول القرآن مجزءا وفق أحوال المسلمين وتدرجهم فى الحياة .

هذا هو ما جاء فى تاريخ القرآن للأستاذ إبراهيم الإبيارى ، وإن أى عاقل يفهم مبادئ البلاغة ليستطيع أن يجزم بأن ما زعم من أنه كان فى القرآن ما نسخ حكمه وخطه إن هو إلا من وضع من أرادوا الكيد لقرآن الله المجيد ، فما من كلمة أنزلت قد رفعت ، وإن ما استشهد به المولعون بتدليس الروايات ونسبتها إلى كبار الصحابة ليحمل فى طياته دليل بطلان الدعوة ،

أيصدق أى لبيب أو غير لبيب أن مثل هذا القول المتهافت الذى وضعه الواضعون : « ولولا أن لابن آدم واديين من ذهب وفضة لابتغى إليها رابعا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » يمكن أن يكون من نبع القرآن العظيم ؟ إن هذا الزعم لا يزيد على أنه استخفاف بالعقول .

وما زعم من أن فى القرآن ما نسخ خطه وبقى حكمه ، فهو قول لا يستند إلى دليل ، بل إنه افتراء على الله ، فإذا كان مبدأ الرفع من القرآن معترفا به فلماذا بقيت الآيات التى قيل إنه نسخ حكمها .

إن بقاء الآيات التى قيل إن أحكامها نسخت فى القرآن لخير برهان على أن ما ينزله الله لا يرفع ، فما كان القرآن من عمل بشر يبدل ويغير فيه ويرفع آيات وينزل آيات ، بل هو من لدن عليم حكيم خبير ، فليس فى القرآن ما نسخ خطه وحكمه وليس منه ما نسخ خطه وبقى حكمه .

بقى ما زعم أنه بقى خطه ونسخ وحكمه ، وفى رأيى أن ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ ، فإنى أنزه الله سبحانه وتعالى عن أن ينزل حكما ثم ينسخه ، وإذاما رجعنا إلى الآيات الـ ١٤٤ التى زعم أنها نسخت لوجدنا أن أحكامها لا تزال قائمة ، فمن يستطيع أن يقول إن آية ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[١] قد نسختها آية : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[٢] إن آية ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ تقرر حقيقة ستظل حقيقة لا ريب فيها ما دامت الأرض والسماوات . وهل يمكن أن يقال إن آية : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من

---

(١) البقرة ١١٥ .　　(٢) البقرة ١٤٤ .

آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾[١] قد نسختها آية : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ؟

إنى أعتقد فى يقين أن ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ فى أى صورة من الصور التى زعم المتكلمون عن النسخ فى القرآن أنها على ثلاثة أضرب ، فالقرآن قد نزل من عند أحكم الحاكمين ، ولو أن الكافرين قد علموا بوقوع هذا النسخ لوجدوا حجة تؤيد زعمهم أن القرآن إن هو إلا من إملاء رسول الله — ﷺ — .

قالوا فيما قيل إن آية : ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾[٢] قد نسخت ، فهل نزلت آية صرحت للمسلمين بأن يقربوا الصلاة وهم سكارى ؟ إننا لو استعرضنا جميع الآيات التى قيل إنها نسخت نجد أن حكمها لا يزال قائما ، وأعتقد أن بدعة الناسخ والمنسوخ قد شاعت بعد صدر الإسلام عندما شغل الناس بإحصاء عدد آيات القرآن وترتيب الآيات وترتيب السور والبحث عما هو مكى منها وما هو مدنى . وقد شجع بعض العلماء على الخوض فى الناسخ والمنسوخ عدم فهمهم حقيقة تفسير : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾[٣] . فقد حسبوا أن التبديل إنما يقع على الآية القرآنية وهى طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ، بينما المقصود بالآية هنا المعجزة التى يقوم بها الأنبياء ، فالمراد أن معجزة عيسى

---

(١) البقرة ١٧٧ .

(٢) النساء ٤٣ .

(٣) النحل ١٠١ ، ١٠٢ .

كانت غير معجزة موسى ، فمعجزة عيسى عليه السلام كانت إحياء الموتى ، بينا كانت معجزة موسى عليه السلام لما واجهه فرعون بالسحرة أن يلقى عصاه فإذا هى حية تسعى . ولما بعث الله محمدا — ﷺ — إلى قوم اشتهروا بالبلاغة والبيان بدل الله معجزته وأنزل على رسوله عليه السلام القرآن ، ويؤيد هذا ما جاء فى « المنتخب » فى تفسير : « وإذا بدلنا آية .. » : (وإذا جعلنا معجزة لك بدلا من معجزة مساوية لنبى سابق فجئناك بالقرآن معجزة ، رموك بالافتراء والكذب على الله ، والله وحده هو العليم علما ليس فوقه علم بما ينزل على رسله من المعجزات ، ولكن أكثرهم ليسوا من أهل العلم والمعرفة الصادقة) .

ولقد مات رسول الله (ﷺ) والقرآن كله مكتوب على العُسُب (جريد النخل) واللخاف (صفائح الحجارة) والرقاع والأديم والأكتاف (عظام الأكتاف) والأقتاب (ما يوضع على ظهور الإبل ، كما كان محفوظا فى صدور الرجال يحفظه حفظة من المسلمين) .

وكان رسول الله — ﷺ — يقرأ القرآن على جبريل عليه السلام مرة فى شهر رمضان ، فلما جاءت السنة التى مات فيها قرأه عليه مرتين فى رمضان ، فراح رسول الله — ﷺ — يعارض ما أنزله عليه ربه بسوره وآياته على ما حفظه عنه حفظة المسلمين ، فكان فى صدور الحفظة صورة مما كان فى صدر الرسول .

وبعد موت الرسول — ﷺ — ارتدت بعض القبائل عن الإسلام فأعلن أبو بكر الصديق الحرب عليها ، وقد اشتد القتل يوم اليمامة بقراء القرآن فخف عمر بن الخطاب إلى أبى بكر يعرض عليه جمع القرآن قبل أن يذهب من الصدور . وراح أبو بكر يفكر فيما عرضه عليه عمر فاقتنع

بضرورة جمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت وكان من كتاب الوحى فى المدينة ، وحضر زيد مجلس أبى بكر وعمر وسمع منهما ما هما فيه فإذا هو معهما فى الرأى ، وإذا أبو بكر حين يجد من زيد حسن الاستجابة يتجه إليه ويقول :

— إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ، فتتبع القرآن اجمعه .

فراح زيد بن ثابت يتتبع القرآن يجمعه وما كان ذلك أمرا عسيرا ، فقد كان هناك حفظة من المسلمين . ولو أردنا اليوم أن نجمع القرآن مرة أخرى دون أن نرجع إلى المصحف فما أيسر ذلك لو جئنا بعشرة من القراء الحافظين .

وفى أيام عثمان رضى الله عنه عاد حذيفة بن اليمان من حرب أرمينية وأذربيجان ودخل على أمير المؤمنين فزعا من اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن ، وراح يقول لعثمان :

— أدرك الأمة قبل أن يختلفوا .

أرسل عثمان يطلب الصحف من عند حفصة بنت عمر زوج النبى عليه السلام ، وأرسلت حفصة بالصحف إلى عثمان ، وجمع عثمان إليه زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام وكلهم من كتاب الوحى ، وأمرهم بنسخ هذه الصحف بعد أن وقف يخطب الناس يناشدهم أن يأتوه بما معهم من كتاب الله ، وكان عهدهم بالنبى عليه السلام قريبا ، إذ لم يكن مضى على وفاته أكثر من ثلاث عشرة سنة ، فراح الرجال يأتونه بالورقة والأديم فيه القرآن .

ولم يكتف عثمان بذلك بل دعاهم رجلا رجلا يسألهم عما إذا كان

رسول الله — ﷺ — قد أملاه عليه ، فيقول الرجل نعم ، حتى إذا فرغ من ذلك قال :

— من أكتب الناس ؟

فقال الناس :

— كاتب رسول الله زيد بن ثابت .

قال عثمان :

— فأى الناس أعرب ؟

— سعيد بن العاص .

وكان سعيد أشبههم لهجة برسول الله عليه السلام ، قال عثمان :

— فليمل سعيد وليكتب زيد .

وتم جمع مصحف عثمان ، ولما قورن بالمصحف الذى جمعه أبو بكر رضى الله عنه وشارك فيه عمر وجد أنه هو هو الذى جمعه عثمان ثانية واستحلف الناس عليه . وأرسل عثمان ستا من هذه المصاحف إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس مصحفا بالمدينة ، وأمر عثمان فحرق ما كان مخالفا لمصحفه .

ويقول ر . ف . بودلى فى كتاب « الرسول : حياة محمد » عن القرآن : « إنه لمن الغريب أن تلاحظ دون أسباب ثابتة وطيدة أن هناك سوء فهم عام لمحمد — ﷺ — أكثر من أى مؤسس آخر من مؤسسى الديانات العظيمة . إننا لا نجد ما دونه معاصرو موسى أو كونفوشيوس أو بوذا ولا نعرف إلا بعض شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته ولا نعرف شيئا عن الثلاثين سنة التى مهدت الطريق للسنوات الثلاث التى بلغ فيها أوجه ، ولكننا نجد أن قصة محمد — عليه السلام — واضحة كل

الوضوح . ففى سيرة محمد نجد التاريخ بدل الظلال والغموص ، ونعرف الشىء الكثير عنه ، كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا فى زمان أكثر قربا مس زماننا ، وما كان تاريخه الخارجى وشبابه وأقاربه وعاداته خرافة بمن الخرافات ولا شائعة من الشائعات ، وما كان تاريخه الداخلى وقد وضح بعد رسالته برواية مبهمة لمبشر غامض أو مشوش ، فبين أيدينا الآن كتاب معاصر فريد فى أصالته وفى سلامته لم يشك فى صحته كما أنزل أى شك ، وهذا الكتاب هو القرآن ، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد . ولو أن الأفكار قد دونت فى الرقاع وسعف النخل والعظام فى لحظات غريبة ، فالسور والآيات الأصلية قد حفظت ، وما كان هذا هو الحال فى العهد القديم والعهد الجديد (التوراة والإنجيل) بعد قرون أو حتى عشرات السنين بعد موت الرسول، فإن أبا بكر خليفة محمد — ﷺ — قد جمع الرقاع التى دون فيها القرآن ونسخها حرفيا ، وحفظت هذه النسخة عند حفصة إحدى زوجات محمد (عليه السلام) .

وفى عام ٦٤٦ بعد الميلاد ، أى بعد موت محمد — صلوات الله عليه وسلامه — بأربع عشرة سنة ، أحرق عثمان خليفة محمد الثالث وصديق محمد ومعاصره جميع نسخ القرآن التى كتبها الأتباع المتحمسون من الذاكرة ولم يبق إلا مصحف حفصة ، وقد نسخ عنه جميع المصاحف الأخرى ، ومنذ ذلك الوقت لم يضف إلى القرآن شىء ولم يحذف منه شىء » .

وهذا رأى لكاتب أمريكى آخر فى القرآن وإعجازه[١] ، قال : « إن

---

(١) المستشرقون والإسلام للأستاذ المهندس زكريا هاشم زكريا .

كل نبى يجب أن يأتى ببرهان عن طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتى به الأولياء ويسمى كرامة ، والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فإن جماله الأدبى الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزا ، وهما يضعان من يتلوه ، ولو كان أقل الناس تقوى فى حالة خاصة من الحماسة .

لقد تحدى محمد الإنس والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل . ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية فإن محمدا كان يحتقر الشعر ودفع عن نفسه أن يكون واحدا من الشعراء .. ولكن الأمر يتعلق بشىء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحى الإلٰه وإلهام الشياطين » .

وقد عكف كبار الكتاب الغربيون على قراءة القرآن وقد تأثر به كثير منهم ، فقد قرأ جوته القرآن فى ترجمة ألمانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته (فرانكفورت) المستشرق العلامة مرجولين (١٧٧٢ م) ، حتى إذا ما فرغ منها عكف بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها طبعها فى مدينة (بادوا) فى الشمال الشرقى من إيطاليا القس الجزويتى (ماراتشى) Marracci عام ١٦٩٨ م ، وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية .

وما أن ... جوته تلاوة القرآن فى الترجمتين حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية نقلا عن الترجمة الألمانية . ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألمانى من الآيات بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الأولى بمعرفة شول Sholl عام ١٨٤٦ م وهذه الآيات قوله تعالى :

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ﴾[١] .

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾[٢] .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[٣] .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[٤] .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[٥] وكلها من سورة البقرة ، ثم من سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾[٦] .

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء

---

(١) البقرة ١١٢ . (٢) البقرة ١١٥ . (٣) البقرة ١٦٤ .
(٤) البقرة ١٧١ . (٥) البقرة ١٧٧ . (٦) آل عمران ١٤٤ .

فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾[(١)] .

ومن سورة النساء : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[(٢)] .

ومن سورة المائدة : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعلمون ﴾[(٣)] .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾[(٤)] .

ومن سورة الأنعام : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾[(٥)] .

ومن سورة يونس : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ﴾[(٦)] .

ومن سورة يوسف : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾[(٧)] .

ومن سورة طه : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ﴾[(٨)] .

ومن سورة العنكبوت : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن

---

(١) آل عمران ١٧٩ . (٢) النساء ١٤٣ . (٣) المائدة ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) المائدة ١٠١ ، ١٠٢ . (٥) الأنعام ٧٥ (٦) يونس ١٠ .

(٧) يوسف ٨ . (٨) طه ٢٥ .

فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾[١] . ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لا رتاب المبطلون ﴾[٢] .

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾[٣] .

وقد ظل جوته طويلا يمعن فى دراسة القرآن إمعان الباحثين وهو يقول : إن القارئ الأجنبى يمله لأول قراءته ، ولكنه يعود فينجذب إليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم . ويستشهد جوته فى كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات :

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾[٤] .

ويقول جوته : إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة . وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون لأن محمدا لم يرسل برسالة شاعر للتفنن فى القول والتنويع فى ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من المخيلة والأوهام لاستحداث اللذة وإدخال الطرب . بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف ، وإنما

---

(١) العنكبوت ٤٤ . (٢) العنكبوت ٤٨ .
(٣) العنكبوت ٥٠ . (٤) البقرة ٢ — ٧ .

محمد نبى مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد إنما بعث به إلى الناس ليقتضيهم القنوت والإيمان ، ومن ثمة نراه إذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار .

ويظهر فى شعر جوته الأخير الذى أسماه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تأثره بالقرآن فى روحه وعباراته .. فالقارئ المسلم لا يسعه إلا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحدة حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته : لله المشرق ولله المغرب وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا ، هو الحق وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسم الحق وتعالى علوا كبيرا ، آمين . ينازعنى وسواس الغى وأنت المقيد من شر الوسواس الخناس ، فاللهم اهدنى فى الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم ، ومهما زينت النزعات والشهوات فالنفس لا تذهب شعاعا ولا تضيع ضياعا ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والإباء تنطلق عارجة إلى أوج العلا .

« وللناس فى ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير . هذا يفعم الصدر وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيبة التركيب ، فاشكر ربك إذا بليت ، واشكر ربك إذا عوفيت » .

ويعمد جوته أحيانا إلى التضمين الصريح ومن ذلك تضمينه للآية الكريمة : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » فيقول فى مقطوعة له بعنوان التشبيه : « لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله

لا يستحي أن يضرب مثلا للحياة ببعوضة ؟ » « لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله يجلو لى فى جمال عينى الحبيبة لمحة من جماله رائعة عجيبة » .

ويقول جوته فى بعض أشعار الحكمة من ديوانه : « من حماقة الإنسان فى دنياه .. أن يتعصب كل منا لما يراه .. وإذا الإسلام كان معناه التسليم لله فإننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين » .

* * *

هاجم كثير من المستشرقين والمهتمين بالدين الإسلامى من كتاب الغربيين نبى الإسلام والقرآن ، فمنهم من زعم أن محمدا عليه السلام قد ادعى النبوة وأنه قد وضع القرآن مستمدا أسس دينه من التوراة والإنجيل ، وقد سمع بما فيهما أثناء رحلاته إلى الشام ، ولم يأت هؤلاء النقاد بجديد فمعاصرو النبى صلوات الله وسلامه عليه من الكافرين كانوا يقولون افتراه ، وأن القرآن يتلى عليه ، وأن بعض النصارى يعلمونه ما يقول ، وقد رد القرآن الكريم على هذه الافتراءات .

إن محمدا عليه السلام تحمل أفدح ألوان الاضطهاد وصبر صبر أولى العزم من الرسل ، ولو كان مدعيا للنبوة فى سبيل مغنم أرضى لقبل ما عرض عليه من جاه وسلطان وأموال ، أو لنصب من نفسه ملكا على جزيرة العرب بعد أن دانت له المدن والقبائل بالولاء ، ولما عاش عيشة الكفاف التى اختارها لنفسه .

وقد سبق فى التذييلات السابقة أن دفعت افتراء الزعم بأن محمدا عليه السلام قد أخذ من التوراة والإنجيل ما جاء به من تشريعات ، وقلت إن الديانات كلها قد عرفت منذ بدء الخليقة بالإسلام ، وأنه كلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ودخلت الأساطير فى الديانات بعث الله الرسل

ليعيدوا الإسلام نقيا كما كان . وإن التشابه بين ما فى القرآن وما فى التوراة وما فى الإنجيل فإنما مصدره أن النبع الروحى الذى استمدت منه كل الديانات السماوية واحد . ولو عثر على صحف إبراهيم وإدريس فلن تفترق فى قليل ولا كثير عن القرآن ، والتوراة قبل أن يعاد كتابتها فى أرض السبى ، وإنجيل السيد المسيح الذى لم يصل إلينا ، فالأناجيل الأربعة التى اعتمدت فى مجمع نيقية إن هى روايات يفترض أن بعض الحواريين قد كتبوها و لم يقل أحد أنها منزلة من عند الله .

القرآن معجزة الإسلام ، وقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن على أن يأتوا بآية من مثله فعجزوا على مر العصور . إن ما فيه من علوم يفوق كل ما كانت تعرف البشرية فى ذلك الوقت ، فما بالك بعلوم محمد ابن عبد الله ، ولا تزال الكشوف الحديثة تلقى أضواء على تفسير بعض ما فيه من آيات اليوم والغد ، وقد صدق الإمام على كرم الله وجهه لما قال : « القرآن حمال معان » .

إذا كانت التوراة قبل أن يعتورها التبديل من عند الله ، وإذا كان الإنجيل قد نزل على عيسى عليه السلام من السماء ، فلماذا لا يوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده محمد بن عبد الله عليه السلام ؟ الحقيقة لا يمكن تجزئتها ، فإما وحى أو لا وحى ، فإن الله يكلم رسله وحيا أو من وراء حجاب أو يبعث رسولا ، فقد أوحى الله إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه قرآنه ، وقد قال جل شأنه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] فكلما مر يوم والقرآن يقرأ فى الأرض كان ذلك تأكيدا على صدق محمد عليه

---

(١) الحجر ٩ .

السلام ، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وقد خالف الإسلام اليهودية والنصرانية فى كثير من الأصول والعقائد والعبادات ، وأقول اليهودية والنصرانية ولا أقول إسلام موسى وإسلام عيسى ، فاليهودية والنصرانية إنما تطلقان على ما طرأ على إسلام موسى وعيسى من تبديل وتحوير . ومخالفة الإسلام لليهودية والنصرانية إنما هى إعادة تشريعات الديانتين السابقتين إلى الحق الذى كانتا عليه قبل أن تخضعا لأهواء حكماء صهيون والمجالس المسكونية والمؤتمرات الدينية التى كانت تسخر الدين لخدمة الأباطرة والحكام .

زعم اليهود أن عزيرا ابن الله ، وقال النصارى المسيح ابن الله أو الله أو ثالث ثلاثة ، يضاهئون قول الذين من قبلهم . وما من دين سماوى إلا وقد جاء ليؤكد وحدانية الله ، فنوح كان يدعو إلى عبادة الله وحده ، وإدريس من قبله وإبراهيم من بعده وموسى وعيسى والحواريون لم يعبدوا إلا الله وحده . فجاء الإسلام ليعيد هذه الحقيقة الأزلية ويمحو الشرك من الأديان .

وراح اليهود يعبدون أنفسهم غرورا ويزعمون أنهم شعب الله المختار وأنهم الناس ومن عداهم أمم ، كما فعل من قبلهم اليونان والرومان والفرس ومن بعدهم العرب فى الجاهلية ثم الإنجليز والألمان وكل الدول التى ظنت أنها عظمى فى العصر الحديث . وجاء الإسلام ليعيد إلى البشرية كرامتها وليؤكد أن الناس إخوة وأن كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وراح اليهود عباد المال يفترون على الله ويحللون الربا ، وما من دين سماوى قد أباح الربا ، وقد جاء الإسلام ليقول للناس إن الله يمحق الربا

ويربي الصدقات .

وقد عبث الفريسيون والصدوقيون ومن قبلهم من المتنطعين فى الدين اليهودى فى العقيدة والتشريع ، فجاء الإسلام ليصحح العبث فى الميراث وليعيد للمرأة حقوقها وإنسانيتها وكرامتها التى أهدرت على أيدى تجار الدين ، الذين قالوا إنها نجس وحرموها من الميراث إذا كان لها أخ ، فإذا لم يكن لها أخ ، فعليها أن تتزوج رجلا من عشيرتها ليكون لها حق فى الميراث ، أما إذا ما مات عنها زوجها فلا حق لها فى ماله ، وكانت إذا ما جاءها المحيض تطرد من الدار طرد الكلاب .

جاء الإسلام معترفا بكل الأديان السماوية التى سبقته ، مطهرا لها من كل ما لحق بها من شوائب وما دخل عليها من أساطير الأولين ، معترفا بالوحى الذى ينزل على الأنبياء جميعا ، لا فرق بين نبى من بنى إسرائيل أو نبى من الأمم ، فلم يتناقض مع نفسه ولم يتحزب لنبى دون نبى كما فعل معتنقو الأديان التى سبقته: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(١) .

كان كتاب أوروبا فى العصور الوسطى يعتقدون أن الإسلام دين وثنى ، فكانوا يصورون محمدا عليه السلام عابد أوثان ، وينسجون حول شخصيته الكريمة مزاعم وأوهاما تحط من شأنه ، ولكن قام بعض المستشرقين فى القرن العشرين بعدة محاولات لتقديم محمد عليه السلام فى صورة مقبولة ولا أقول صحيحة . ففيما يكتبون بعض الثغرات إما لأنهم

---

(١) البقرة ١٣٦ .

لا يؤمنون بالوحى إطلاقا ، وإما عن سوء قصد مبررين طعناتهم بأنهم يتبعون الأسلوب العلمى الذى لا يؤمن إلا بالتحليل وأنبوبة الاختبار !

وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britanica الطبعة الحادية عشرة : كان « محمد » أشهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا . ظهر النبى فى وقت كان العرب فيه قد هـووا إلى الحضيض ، فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة ، ولا مبادئ مدنية أو سياسية أو اجتماعية ، ولم يكن لهم ما يفخرون به من الفن أو العلوم ، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجى وكانوا مفككين لا رابط بينهم . كل قبيلة وحدة مستقلة ، وكل منها فى قتال مع الأخرى ، وحاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت ، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح ، ولكن ظهر النبى « محمد » الذى أرسل هدى للعالمين فاستطاع فى سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب ، وأن يرفعها من الوثنية المحطمة إلى التوحيد ، وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والفرقان فأصبحوا دعاة هدى ورشاد بعد ما كانوا دعاة وثنية وفساد ، وانتشروا فى الأرض يعملون على رفع كلمة الله ، وعبدوا الله حق العبادة حتى فاقوا النساك والزاهدين . ولكنهم كانوا يأخذون من الدنيا ، فإذا ما أذن للصلاة تركوا التجارة والبيع وتوجهوا إلى الله رب العالمين ، وكانوا يقضون القسم الأكبر من الليل فى عبادة وتسبيح . وكانوا خاشعين لله حتى فاقوا النساك المنقطعين فى الصوامع للتعبد ، فسموا بفعل الإسلام إلى ذروة السمو الخلقى . وكانت أعمالهم فى دنياهم مصداقا لتقواهم ، فاحتلوا مكانا مرموقا بين غزاة العالم العظام . لقد ذابت الإمبراطوريات العظمى تحت حرارة إيمانهم كما يذوب الجليد تحت حرارة الشمس اللافحة . ولم يكتفوا بغزو الأقطار

الشاسعة بل أقاموا أركان دولة عظيمة دامت أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، قوية عزيزة الجانب بغض النظر عن الأجيال التى تضعضعت أخيرا . لقد وصل المسلمون إلى ذروة السمو الروحى والرخاء الاقتصادى وتثقفوا بعلوم الإسلام التى فاض خيرها على العالم أجمع فى ذلك الوقت ، والتى تغلغل ضوؤها ليبدد دياجير الجهل المتفشى فى كل مكان ، وإنه لعجيب حقا أن يتم هذا فى عشرين عاما فقط . إذن لقد كانت تعاليم النبى سهلة من الميسور الأخذ بها وناجعة قاضية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية . وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول ، بل الطبيب البازع من يشفى أكبر عدد من الحالات المستعصية ، كذلك المصلح الناجح ليس من يدعى أنه المصلح الأول ، بل من يقوم بإصلاح العالم فيهديه الصراط المستقيم » .

ويبرز هنا تساؤل : لماذا ضعفت الدول الإسلامية أخيرا ؟ السبب أن الدول الإسلامية وقعت فريسة للاستعمار الأوروبى المسيحى فى القرن التاسع عشر ، وكانت الدول المسيحية قد أعلنت الثورة على الدين ، ولما كان الضعفاء يحاولون دائما تقليد الأقوياء دون تفكير ، فقد سرت موجة من الإلحاد فى العالم الإسلامى ونخرت فيه ، على الرغم من أن ثورة المفكرين الأوروبيين على الكنيسة كان لها مبرراتها و لم يكن هناك أى مبرر للثورة على الإسلام ، ولكنه التقليد .

لما اعتنق بولص المسيحية راح يقيم أركانه على مبادىء لم يأت به السيد المسيح ، قال إن السيد المسيح هو الله وهو ابن الله ، فنشأت نظرية لاهوت السيد المسيح وناسوته ؛ وقال إن السيد المسيح قد جاء ليطهر البشرية من خطيئه آدم التى ورثها أبناؤه على مر السنين ، وأن السيد المسيح إنما قبل أن

يصلب تطهيرا للبشر من تلك الخطيئة . وقد قبضت الكنيسة على رقاب العباد لا يفكرون إلا بوحى منها ، وأن يسخر العلم لخدمتها ، وكل من قال برأى يخالف رأيها يقتل أو يحرق أو يطرد من رحمة الله .

رأى نيتشة أن الله قد تجسد ومشى فى الأسواق وانتصر عليه أعداؤه وتمكنوا من صلبه ، فلم يستطع عقله أن يتصور جسدا يبقى دون أن يفنى ، فقال إن الله قد مات . وله عذره فى ذلك التصور فمن يمشى على الأرض لا بد أن يموت . ووجد أن فكرة الخطيئة الموروثة فكرة تتنافى مع العدل الإلهى ، وعجب كيف أن الله يسقط ضلال الخطيئة على براءة الأرض ، فكفر بذلك الإله الظالم وآمن بالحس الأرضى وقال أن لا بد للمؤمنين بالحس الأرضى من أن يهووا بمعاولهم على تلك الفكرة ويهتف : « طوبى لأتقياء القلب لأنهم لا يعاينون الله » ، ويعنى بذلك أن المعرفة الحقة إنما هى تلك المعرفة الفرحى المنتشية التى تنبعث من صميم الإحساس الأرضى .

ولو أمعنا الفكر لوجدنا أن نيتشة قد ثار على الله الذى تصوره فكر بولص الرسول ، على الله الذى تجسد وأكل الطعام ومشى فى الأسواق . ولو عرف نيتشة الله الرحيم الغفور الودود الكريم الذى لا يزر وازرة وزر أخرى ، ماثار نيتشة ولما جرؤ أن يقول إن الله قد مات ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

وقد عبر ماركس عن نزعة الإلحاد المتطرفة حينما كتب : « إن أى موجود كائنا من كان لا يمكن أن يكون مستقلا فى عينى نفسه إلا إذا كان مستكفيا بذاته ، وهو لا يمكن أن يكفى نفسه بنفسه إلا إذا كان لا يدين بوجوده لأحد سواه . أما الإنسان الذى يحيا بمدد من إنسان آخر يكون له الفضل عليه فإنه لا بد من أن يشعر فى نفسه بأنه مخلوق مستعبد

خاضع مفتقر ، وأنا أشعر بأننى أحيا تماما على حساب موجود آخر أو بفضل نعمة ذلك الموجود الآخر ، ليس فقط حينما أكون مدينا له ببقائى والمحافظة على حياتى ، وإنما أيضا حينما يكون هو الذى وهبنى الحياة باعتباره مصدر كل الحياة ، ولا بد من مصدر حياتى من أن يكون بالضرورة خارجا عنى ، حينما لا تكون حياتى من خلقى أنا . وهذا هو السبب فى أنه قد يكون من العسير بمكان أن نطرد فكرة « الخلق » من أذهان العامة .. وأما نظر الرجل الاشتراكى — على العكس من ذلك — فإن تاريخ الكون بأسره ليس شيئا آخر سوى عملية خلق الإنسان ، بفضل الإنتاج البشرى ، أعنى عملية التحكم فى مصير الطبيعة بفضل تدخل الإنسان ، ومن ثم فإن الإنسان الاشتراكى إنما يملك الدليل الواضح الذى لا سبيل إلى دحضه على خلقه نفسه بنفسه ، أو على عملية إبداعه لمصيره الذاتى » .

وكان ماركس ضحية أخرى من ضحايا تعاليم بولص وسجن الكنيسة للأفكار المتحررة ، كما كان كل الفلاسفة الملحدين الذين ناقضوا أنفسهم باستمرار مع تتابع مذاهبهم ، والذين أوضحت مذاهبهم فى جلاء أنهم جميعا خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة ، فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة .

وراح سارتر يقرر أن الإنسان حر ، يعنى بذلك أن « الله غير موجود » وأن الموجود البشرى إنما ينزع إلى شىء واحد فقط ألا وهو « الوجود » ، أى أن الإنسان ينزع إلى أن يكون إلها .

تعقيد وترديد وتجريد وتسكع ذهنى لا طائل تحته ، وبذور تبذر فى الصحراء ، ومحاريث تحرث فى الماء ، وبعد عن الإنسانية وإفقارها بهدم تراثها الروحى كنز البشرية ما داموا يريدون أن يروا كل شىء بالحواس

وعلى الحواس غشاوة ، وما داموا لا يفرقون وهم فى خضم الضياع بين النار والنور .

إن كان لهم العذر أن يثوروا على ما جاءهم بولص من أوهام فعلى ماذا نحن نثور ؟ هل قال لنا الإسلام إننا ورثنا خطيئة آدم ظلما . لقد كان الله أرأف بعباده من بولص فقال جل شأنه : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾(١) ، هل قال الإسلام إن الله سبحانه وتعالى نزل إلى الأرض وأكل الطعام ومشى فى الأسواق وأن له طبيعتين إلهية وإنسية ؟ لقد حرص الإسلام على تنزيه الله تعالى عن التجسيد . فكيف يخطر على ذهن مسلم يعرف حقيقة دينه أن الله قد مات أو أن العلم قد انتصر على الله . هل وقف الدين الإسلامى فى سبيل حرية التفكير والكشف والاختراع ؟ لقد كان الإسلام يدفع أتباعه على الدوام إلى التدبر فى الكون والسير فى مناكب الأرض وجعل طلب العلم فريضة ، هل كان فى الإسلام رجال دين وكنيسة تفرض آراءها على الجميع وتطرد المعارضين من رحمة الله ؟ لم يعرف الإسلام وظيفة رجل الدين ولم يعرف الوساطة بين الخالق والمخلوق ، بل كان يصر على تأكيد الصلة المباشرة بين العبد وربه . فعلى أى شىء تثورون أيها الثائرون ؟ أتثورون على جهلكم يا عبيد الاستعمار الفكرى ؟ ولم تتشككون ؟ وما الذى يدفعكم إلى العربدة الذهنية والطريق واضح والسبيل مستقيم ؟ وكيف يرضى أصحاب العقول السليمة أن يستبدلوا اللآلئ والدرر بالماس المصنوع وإن بدا للعيون تألقه وبريقه ؟ ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾(٢) .

---

(١) البقرة ٣٧ .

(٢) الرعد ١٧ .

أين كانت فلسفة الغرب يا أصحاب العقول قبل عصر النهضة فى أوروبا ، ومن أين جاءت هذه النهضة التى يتغنى بها ضحايا الاستعمار الفكرى من المسلمين ؟ يقول الأستاذ أحمد أمين والدكتور زكى نجيب محمود فى كتابهما « قصة الفلسفة الحديثة » : اتصل الأوروبيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالا وثيقا واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية وهى لغة الأدباء والعلماء فى القرون الوسطى ، حتى إن كثيرا مما بقى من مؤلفات « ابن رشد » حفظت إلى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد لها أصلا بالعربية . وفى القرن الثالث عشر كانت كل « كتب ابن رشد » تقريبا قد ترجمت إلى اللاتينية ما عدا كتبا قليلة منها كتاب « تهافت التهافت » الذى رد به على « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، فقد ترجمت فى القرن الرابع عشر .

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسون على هذه الكتب أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، « فروجر بيكون » الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه أخذ ثقافته العلمية من الأندلس ودرس فلسفة ابن رشد .

والقسم الخامس من كتاب فى البصريات Optics مستمد ومساير كتاب « ابن الهيثم » فى « هذا الموضوع نفسه » .

إن فلاسفة الإسلام هم الذين فتحوا أعين فلاسفة الغرب على ما فى أقوال بولص من تناقض مع المفهوم السليم والعدل الإلهى ، فهم أصحاب الفضل فى تحريرهم من رق الكنيسة ومن أن السلطة الكنيسية هى وحدها مصدر الحقيقة !

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه « التفكير الفلسفى فى الإسلام » الجزء الثانى « على أن الله قد وفق رجالا متعصبين من الغرب لرد هجمات التعصب والهوى الصادرة من بنى وطنهم ، ونكرر القول بأنهم ليسوا من المستشرقين ولا من أذناب الاستعمار ، ومن أمثلة ذلك :

الأستاذ كاردانوس وهو فيلسوف ورياضى إيطالى يقول عن « الكندى » إنه واحد من بين الاثنى عشر الممتازين فى العالم .

ويقول الأستاذ فلنت عن ابن خلدون : « إن أفلاطون وأرسطو وأوجستين ليسوا نظراء لابن خلدون ، وكل من عداهم غير جدير بأن يذكر إلى جانبه » .

ويقول الدكتور محمد إقبال فى كتابه : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » ترجمة الأستاذ عباس محمود : « لقد كانت أوروبا بطيئة — نوعا ما — فى إدراك الأصل الإسلامى لمنهجها العلمى . وأخيرا جاء الاعتراف بهذه الحقيقة » .

ويقول بريفولت فى كتابه « بناء الإنسانية » : إن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ، وليس « لروجر بيكون » ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان المذهب التجريبى العربى فى عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس — فى لهف — على تحضيله فى ربوع أوروبا .

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، و لم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية .

فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوروبى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره ، أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم — كما رأيناه — لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ، و لم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ،

والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني . ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهليني .

أما ما تدعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة : لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي » :

ومن يشأ الاستزادة في معرفة فضل العرب على الفلسفة الغربية الحديثة فليرجع إلى كتاب الفلسفة الحديثة في الميزان لفضيلة الدكتور محمد فتح الله بدران .

هذه بعض الحقائق نضعها أمام المفتونين بكل ما تأتي به الحضارة الأوروبية من إلحاد وانحلال وتفكك ، راجين أن يعودوا إلى كتابهم الكريم ليتدبروا ما فيه من سمو ورفعة ، وإلى تراث المفكرين الإسلاميين السابقين ليعلموا أي نبع غزير قد نهل منه المفكرون الغربيون .

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه الصواب .

القاهرة في ١٦ / ٥ / ١٩٦٨ .

المراجـع

القرآن الكريم	
الكتاب المقدس	
صحيح البخارى	
السيرة النبوية	لابن هشام
السيرة الحلبية	لعلى برهان الدين الحلبى
نهاية الأرب فى فنون الأدب	للنويرى
بلوغ الأرب	للألوسى
المستشرقون والإسلام	المهندس زكريا هاشم زكريا
قصة الفلسفة الحديثة	أحمد أمين وزكى نجيب محمود
الفلسفة الحديثة فى الميزان	الدكتور محمد بن فتح الله بدران
الرسول . حياة محمد	بودلى ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار
الأغانى	لأبى الفرج الأصفهانى
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى	للسمهودى
تحت راية الإسلام	الدكتور أحمد الحوفى
جمهرة نسب قريش وأخبارها	للزبير بن بكار
مشكلة الحرية	للدكتور زكريا إبراهيم
مشكلة الإنسان	للدكتور زكريا إبراهيم
إيران فى عهد الساسانيين	لكريستينس ــ ترجمة يحيى الخشاب

شرح نهج البلاغة لأبن أبى الحديد

A Literary History of the Arab By Ntchilson .

Muslim Institutions By Maurice Gaudefroy - Demombynes .

العقد الفريد لأبن عبد ربه

تاريخ القرآن لإبراهيم الإبيارى

أسباب النزول للنيسابورى

١ — ابراهيم ابو الانبياء
٢ — هاجر المصرية ام العرب
٥ — قــريش
٦ — مولد الرسول
٧ — اليتــيم
٨ — خديجة بنت خويلد
٩ — دعوة ابراهيم
١٠ — عام الحــزن
١١ — الهجــرة
١٢ — غــزوة بدر

٣ — بنو اسماعيل
٤ — العــدنانيون
١٣ — غــزوة احد
١٤ — غــزوة الخندق
١٥ — صلح الحديبية
١٦ — فتــح مــكة
١٧ — غزوة تبوك
١٨ — عام الوفود
١٩ — حجة الوداع
٢٠ — وفاة الرسول

محمد رسول الله والذين معه

(فى عشرين جزءا)

للاستاذ عبد الحميد جوده السحار

قصة الاسلام منذ أيام ابراهيم الخليل الى ان لحق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى . وقد كتب المؤلف الحقائق التاريخية فى أسلوب قصصى أخاذ .

وفى هذه الأجزاء يستقصى المؤلف تاريخ العرب قبل الاسلام ، وكتب لأول مرة تاريخ العرب ما بين ابراهيم ونشأة العدنانيين ، معتمدا على ما كشفت عنه الحفريات الأخيرة فى بلاد العراق وسورية وارض العرب ، وهى حقبة لم يتعرض لها الاخباريون ولا المؤرخون الاسلاميون .

وفسر المؤلف التاريخ تفسيرا روحيا من خلال سرده للحقائق التاريخية . انها موسوعة عربية اسلامية بذل فيها الجهد الكثير .

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع ٣٩٧٠
الترقيم الدولى ٧ ــ ١٦١ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه